ديوان

هارون الرشيد

جمعه وحققه وشرحه
الدكتور سعدي ضناوي



دار صادر
بيروت

ديوان
هارون الرشيد

ديوان هارون الرّشيد

جمعه وحقّقه وشرحه
الدكتور سعدي ضنّاوي

دار صادر
بيروت

الطبعة الأولى
1998

تأسست سنة ١٨٦٣



P.O.B. 10 Beirut, Lebanon

دار صادر للطباعة والنشر
ص . ب ١٠ بيروت ، لبنان

هاتف وفاكس Tel & Fax (+961) 04.920978 / 04.922714 / 01.448827

مقدمة

1 ـ أدب الرشيد

ترى هل كان الرشيد أديباً فنجمع إنتاجه ، وشاعراً فنتحدث عن ديوان له ؟ الحقيقة أنّ الجواب في المطلق غير ممكن .

لقد كان الرشيد ذا ثقافة واسعة ، حصّلها من طبيعةٍ له محبّة للاستطلاع ، راغبة في المعرفة ، ميّالة إلى التفوّق . وساعده على التحصيل أساتذة له ، هم كبار أئمّة اللغة والأدب ، وتربيته في كنف البرامكة ، وهم بيت أدب وثقافة وفكر وطموح ، ما منهم أحد إلاّ وكان غاية في الفصاحة وآية في البلاغة .

ولقد نمت ثقافة الرشيد هذه ، واشتدّ عودها في إطار المناظرات والمحاورات التي دارت ، فيما بعد في بلاطه ، ومن مطالعات له شخصيةٍ لسنا ندري كيف تمّت ومتى ، لكنها تمّت وتحدّت غير مرّة مخزون ثقافة الجلساء ، فبرز هذا التحدّي أسئلة وامتحانات خضع لها كل عالِم وأديب ، وكل مدّع للعلم والأدب اتّصل بالبلاط .

فالمعروف أنّ الرشيد كان في إدارته لمجالس السؤال والامتحان ، يعتمد رقاعاً أعدّها مسبقاً ووضعها بمتناول يده ، تحت فراشه[1] ؛ من أين جاء بها ؟ ومتى أعدّها ؟ لا شكّ في أنّه كان يجد وقتاً للمطالعة وآخر للبحث والتقميش والاستعداد لزاد المجالس .

---

1 العقد الفريد ج5 ص : 311 .

ولا شكّ أيضاً في أنّ هذا المخزون من الثقافة اكتسبه في الفترة الأولى من حكمه ، حين أوكل للبرامكة مهمّات الإدارة وارتاح إلى حسن تصريفهم للأمور . إنما ، مع فترة الاكتساب هذه ، نما عند الرشيد إحساس بالغيرة ورغبة في التفوّق حثّا عنده حركة التحصيل والإبداع الأدبيين . فالبرامكة لم يكونوا مجرّد وزراء ، بل كانوا قمّة في كلّ شيء ، وأوّل كل شيء السخاء والكرم ، وشراء الألسن التي تحسن الحمد والشكر ، فاكتسبوا محبّة العامة وثقة الخاصة ، وأقاموا المجالس للطرب وللأدب ، وللسمر وللعلم ، ولكلّ منافسة راقية . وكان الرشيد يلهث وراءهم لحفظ ماء وجهه . فعلى صعيد البلاغة هم البلغاء ، وفي الفصاحة هم الفصحاء ، وفي التشجيع والعطاء هم الكرماء . ثم كان عليه أن يستردّ حقّه في حب الرعية وعظمة الحكّام . ولما لم يتمكّن من ذلك إبّان وجودهم ، كان عليه أن يحطّم أصنامهم ويمحو أسطورة البرامكة ليبدأ في كتابة أسطورة الرشيد ، فكانت النكبة .

هذا كلّه تبلور في ثقافة الرشيد الأدبية وخزانة فكره العامرة ، ولم يعد بينه وبين الإبداع الأدبي سوى خطوة صغيرة خطاها بعفوية وبساطة . فغدا يخطب بليغاً ، ويتحدث فصيحاً ، ويناظر في اللغة ، ويفاضل في الأدب ، ويوقّع . فأدب التوقيعات كان بدعة عبّاسيّة ، إذا لم نقل رشيديّة ، وهي أصلاً فارسيّة ، وتجلّت بصورة واضحة عند البرامكة . «وقد كان جعفر بن يحيى يوقّع القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصّة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنّها كانت تُباع ، كل قصّة منها بدينار . . .»[1] وهكذا دخل الرشيد ميدان التوقيعات .

أما شاعريّة الرشيد فلم تكن عميقة عريقة . فالشعر تغذّيه قريحة وعفويّة إنما تؤجّجه حاجةٌ تُبغى أو تأزّم نفسي يتطلب التنفيس . ولم يكن الرشيد ليحتاج إنساناً . وهو ، لو احتاجه فعلاً ، لما تنازل ليطلب منه حاجته . إنّه الحاكم المطلق ، الذي لا

1 مقدمة ابن خلدون ج2 ص 619 .

تمطر غيمة خارج ممتلكاته . فالرشيد ما كان ليقول شعر المدح ، ولا شعر الاعتذار ، ولا شعر الشكوى ولا . . . لماذا يقول الشعر إذن ؟ للتقرّب من المحبوبة ؟ ألا تكفي إشارة من الرشيد لفكّ تمنّع امرأة ، أيّة امرأة ؟ بلى . لكن اللقمة السائغة هذه لا طعم لها ولا نكهة . والرشيد ، الذي يتطلب الأدب عند وزيره وجليسه ، وحاجبه وخادمه ، وجواري قصره ، ورفيقات فراشه ، يجب أن يثبت أنّه هو ، أيضاً ، فارس في المضمار ، أديب شاعر ، لا مجرّد متذوّق متطلّب . هو إذن يقول الشعر في الحبّ والغزل . والأصحّ أن نقول : في لعبة الحب والغزل ، لأنّ جميع مشاعر الذَكَر ، التي توقد شاعريّة الشاعر وتحكم إبداعه ، مصطنعة عند الرشيد . فلا الصدود عميقٌ وحقيقيٌّ ، ولا العتب جديٌّ ، ولا الفراق نهائيٌّ ، إنّما جميع المواقف افتراضيّة ، تخلق المناسبة وتحدّد الإطار لرسم الصورة . فلا نستغربنّ إذن أن ينحصر معظم شعر الرشيد في الغزل ، والغزل في جواريه ، وأن يصل أحياناً إلى الرّثاء . ولا نعجبنّ بالتالي إذا لم نجد في هذا الشعر عمق التجربة ، ودفق الأحاسيس المتضاربة ، أو اللوعة والحسرة . إنّها لعبة النظم تلبّي لعبة الحب .

2 ـ عملنا في هذا الكتاب

إنّ ما قلناه أعلاه عن ندرة الحوافز للنظم والإبداع العفويّين جعل نظم الرشيد وإبداعه يتمّان بدافع حب الظهور بمظهر الأديب أو الشاعر ، ويرتبطان بظروف هذا الدافع ، ويكونان بالتالي بعيدين عن المتابعة والاستمرار ، نادرين ، جاعلين أدبه موزّعاً ، منتثراً في ثنايا الأخبار ومناسبات المواقف . وما كانت لملمةُ الأشعار المحدودة التي نظمها الرشيد كافية لإبراز الصورة الحقيقيّة للرشيد الأديب . لهذا قسمنا هذا الكتاب ثلاثة أقسام ، أثبتنا في الأول منها ترجمةً للرشيد ، وفي الثاني ديوانه ، وفي الثالث فصولاً تتعلّق بحياة الرشيد الأدبية . وألحقنا بذلك ثبتاً لأدب الرشيد غير المنظوم ضمّنّاه ما استطعنا جمعه من أدب الرشيد المنثور موزّعاً بين خطب وتوصيات وأقوال مأثورة وتوقيعات وأدعية . عسى أن نكون استطعنا ، في هذه العُجالة من إلقاء بعض

الضوء ، وإن باهتاً ، على الجوانب الأدبيّة لهذه الشخصيّة الأسطوريّة التي ملأت صفحات التاريخ وبلغت أسماع الدنيا فيما تلاها من عصور .

ونحن لا ندّعي الإحاطة بكل إنتاج الرشيد ولا بكلّ الأنفاس الأدبية التي اعتملت في صدر هارون ، إنّما هو قسطنا من العمل الجاد دفعناه خدمة للحقيقة . عسى أن يحفز آخرين سوانا على متابعة الجهد وكشف المعالم لاكتمال الصورة . والله ولي التوفيق .

في 97/5/4

د. سعدي ضناوي

ترجمته

ترجمته[1]

جَهيرُ العُطاسِ ، شديدُ النِّياطِ ، جهيـرُ الرُّواءِ ، جهيـرُ النَغَمْ
ويخطو ، على الأَيْنِ ، خَطْوَ الظَّليمِ ويعلـو الرِّجـالَ بِجِسمٍ عَمَمْ[2]

«كان ، إذا طافَ بالبيتِ ، جعل لإزارِه ذنبين عن يمين وعن شمال ، ثم طاف بأوسعَ من خطو الظليم ، وأسرعَ من رَجْعِ يد الأرنب»[3] ، «وإذا رجع بيده كاد يفتن من يراه»[4] . فهو تام الخلقة ، جميل ، طويل ، أبيض مسمّن ، له وفرة إذا حجّ حلقها[5] .

---

1 انظر ترجمته وأخباره في المصادر والمراجع التالية : العقد الفريد 117/5– 118 ؛ مقدّمة ابن خلدون 229/1–235 ؛ الوزراء والكتّاب ص 177–178 ؛ تاريخ اليعقوبي ج 2 ، ص 407–413 ؛ سيَر أعلام النبلاء 286/9–292 ؛ تاريخ الخلفاء ص 336–350 ؛ التنبيه والأشراف ص 299–300 ؛ خلاصة الذهب المسبوك ص 107–115 ؛ الفخري في الآداب السلطانيّة ص 193–197 ؛ الذهب المسبوك في تاريخ مَن حجّ من الملوك ص 47 ؛ الأعلام 62/8–63 ؛ شذرات الذهب 334/1 ؛ تاريخ الطبري 230/8 ؛ تاريخ بغداد 5/14 .

2 البيان والتبيين ج1 ص 151 والشعر للعمانيّ . جهير العطاس : لِسعة منخريه وتلك كناية عن قوة نفَسه – شديد النياط : قوي القلب ، وتلك كناية عن جرأته ، وشجاعته . . . الرواء : المنظر الجميل – الأين : التعب والإعياء – الظليم : ذكَر النعام ، مشهور بسرعة عدْوِه – يعلو الرجال : كناية عن الطول المفرط – عمم : تامّ ، حسن .
والبيتان في الكامل للمبرد ج1 ص 337 وفيه «جهير الكلام ، جهير العطاس» . . . «بِخَلْقٍ عمم» .

3 البيان والتبيين ص 151 .

4 الكامل ص 337 .

5 التنبيه والأشراف ص 336 .

تسمو العيونُ إليهِ كلَّما انفرجَتْ للناسِ، عن وجههِ، الأبوابُ والحُجُبُ[1]

إنّه الرشيد هارون ، أبو جعفر ، بن المهدي محمد ، بن المنصور عبد الله ، بن محمد ابن علي بن عبد الله بن العباس . استُخلف بعهد أبيه عند موت أخيه الهادي سنة سبعين ومئة[2] . وفي ليلة تولِّيه الخلافة وُلد له عبد الله (المأمون) .

أمّا مولد الرشيد فكان «بالرَّيّ لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة تسع وأربعين ومئة ، في خلافة المنصور . . . وكان الفضل بن يحيى البرمكي وُلد قبله بسبعة أيام ، فجُعلت أُم الفضل ظئراً[3] له فأرضعته بلبان الفضل .

أُم الرشيد هي الخيزران (أُم ولد) . وأولى زوجاته وأحبهنّ إلى قلبه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، أعرس بها في سنة خمس وستين ومئة ، في خلافة أبيه المهدي ببغداد . فولدت محمداً الأمين .

ولّما جلس للخلافة سلم عليه بالخلافة عمه ، سليمان بن المنصور ، وعم أبيه ، العبّاس بن محمد ، وعم جدّه ، عبد الصمد بن علي . وكان عمره إحدى وعشرين سنة .

واستدعى الرشيد يحيى بن خالد بن برمك ، وكان قد حبسه الهادي لميله إلى هارون وعزم على قتله وقتل هارون (لإخراج ولاية العهد إلى ابنه جعفر بن موسى) . وكان الرشيد يقول ليحيى بن خالد : «يا أبي»[4] . وأوّل ما فعله الرشيد أنّه قلّد يحيى ابن خالد الوزارة وقال له : «قد قلّدتُك أمر الرعيّة وأخرجتُه من عُنقي إليك . فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيتَ ، واعزل من رأيت ، وأمضِ الأمور على ما ترى» . ودفع إليه خاتمه . وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور ،

1 أمالي المرتضى ج3 ص 33 (والشعر لمروان بن أبي حفصة) .

2 تاريخ الخلفاء ص 336 .

3 الظئر : المرضِعة لغير ولدها .

4 خلاصة الذهب المسبوك . مختصر من سيَر الملوك ص 107 .

وكان يحيى يعرض عليها ويصدُر عن رأيها . . .[1] وقد أقام الرشيد في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين ، وثمانية عشر يوماً[2] ؛ ومات في رحلة غزو ، بطوس ، سنة ثلاث وتسعين ومئة ، وله خمس وأربعون سنة[3] .

عن عمرو بن بحر قال : «قد اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جِدٍّ وهزْلٍ» : وزراؤه البرامكة ، لم يُرَ مثلُهم سخاءً وشرفاً ؛ وقاضيه أبو يوسف ؛ وشاعره مروان بن أبي حفصة كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمُه عمّ أبيه العباس بن محمد ، صاحب العبّاسيّة ؛ وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأشدّهم تعاظماً ، ومغنّيه إبراهيم الموصلي أوحد عصره ، وعَوّاده زلزل ، وزوجتُه أُمّ جعفر أرغبُ الناس في الخير وأسرعهم إلى كل بِرٍّ ومعروف ؛ ومن كبار قواده المعلّى : وَلِيّ البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين . . . وغير ذلك»[4] .

«كان مواظباً على الحجّ والغزو واتّخاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكّة ، وأظهر ذلك بها وبمنى وعرفات ومدينة النبي ﷺ ، فعمَّ الناسَ إحسانه ، مع ما قُرن به من عدله . ثم بنى الثغور ، ومدّن المدن وحصّن فيها الحصون مثل طرسوس وأَذَنَه .

وعمّر المصّيصة ومرعش ، وأحكم بناء الحرب وغير ذلك من دور السبيل ، والمواضع للمرابطين . واتّبعه عمّاله ، وسلكوا طريقته ، وقفّته رعيته مقتدية بعمله ، مستنّة بإمامته فغمط الباطل وأظهر الحقّ وأنار الإسلام وبرّز على سائر الأمم . وكان أحسن الناس في أيامه فعلاً أُمُّ جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، لما أحدثته من بناء دور السبيل بمكّة ، واتّخاذ المصانع والبرك والآبار بمكّة وطريقها المعروف إلى هذه الغاية ، وما أحدثته من الدور لأبناء السبيل بالثغر الشامي

---

1 الطبري ج8 ص 230 .
2 الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك ، ص 48 .
3 تاريخ الخلفاء ص 349 .
4 خلاصة الذهب المسبوك ص 108 .

وطرسوس ، وما أوقفت على ذلك من الوقوف . . ، وما ظهر في أيامه من فعل البرامكة وجودهم وإفضالهم ، وما اشتُهر عنهم من أفعالهم[1]» .

بعد مضي سبع عشرة سنة على خلافته نقم على البرامكة استبدادهم بالسلطة والمال[2] ، وخافهم على ملكه وأولياء عهده فنكبهم . «قتل جعفر بن يحيى بالعمر ، وهو موضع بقرب الأنبار ، وبعث بجثّته إلى بغداد . ولم يزل يحيى وابنه الفضل محبوسين حتى ماتا بالرّقّة .

وخرج في خلافته الوليد بن طُريف الشاري وهزم عسكره . فوجّه إليه يزيد بن مزيد فظفر به وقتله .

وقتل هارونُ أنسَ بن أبي شيخ ، وهو ابن أخي خالد الحذّاء المحدِّث ، وكان يُرمى بالزندقة ، وكذا البرامكة كانوا يرمون بالزندقة إلا أقلّهم .

وغزا هارون سنة تسعين ومئة الروم ، وافتتح هرقلة . . . فلمّا انصرف ظهر رافع ابن الليث بطخارستان فوجّه هرثمة لمحاربته وإشخاص علي بن عيسى (والي خراسان الظالم) إليه . فلمّا قدم عليه أمر بحبسه واستصفاء أمواله وأموال ولده»[3] .

«كان الرشيد أول خليفة لعب بالصولجان في الميدان ، ورمى بالنشّاب في البرجاس ، ولعب بالأكرة والطبطاب ، وقرّب الحذّاق في ذلك ، فعمّ الناسَ ذلك الفعلُ . وكان أوّلَ من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس ، والنرد ، وقدّم اللُّعّاب وأجرى عليهم الرزق . فسمّى الناسُ أيامه ، لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها ، أيام العروس»[4] .

---

1 مروج الذهب ج4 ص 243 .

2 مقدمة ابن خلدون ج1 ص 230 وما بعد .

3 ابن قتيبة – المعارف – ص 130–131 .

4 مروج الذهب ج4 ص 243 (الصولجان أو الصوالجة : عصا معقوفة الطرف يمسكها الفارس من طرفها الآخر ويضرب بها الكرة – والبرجاس : غرض يرمى في الهواء ويوجّه إليه السهم لإصابته وهو طائر – الأكرة والطبطاب لعبة شبيهة بالتّنس) وانظر تاريخ الخلفاء ص348 .

ومع ذلك فلم تخل سنة في حكم الرشيد من ثورة خارجي أو خوارج ، أو ظهور طالبيٍّ يناوئه ويطلب الخلافة . فكانت جيوشه مستمرة في حركة دائبة . وإذا ما اشتدّ أمر ثورة ما ، كان يذهب بنفسه ، على رأس جيشه لإخمادها . أما حروبه الكبرى مع الروم فكانت بقيادته ، ويَعُدُّ ذلك غزواً لأرض الكفر وجهاداً ينال عليه الأجر . وقد جعل ديدنه الحصول على هذا الثواب ، والثواب الآخر الذي هو الحجّ . «فحجّ تسع حجج ، ولم يحجّ بعده خليفة من بغداد»[1] . وفي عام 179هـ اعتمر الرشيد في رمضان ، شاكراً الله تعالى على خلاصه من الوليد بن طُريف الشاري ، وعاد إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحجّ . فحجّ بالناس ومشى من مكّة إلى منى إلى عرفات ، وشهد المشاعر كلّها ماشياً ، ورجع على طريق البصرة ، ولا يُعرف من ملوك الدنيا ملكٌ حجّ ماشياً سوى ملكين : هرقل بن هرقل بن أنتونيس ، حجّ من حمص إلى بيت المقدس ماشياً . . . والملك الثاني هارون الرشيد[2] .

ويقال إنّ الرشيد حجّ ماشياً من بغداد سنة تولّيه الخلافة كفّارة عن يمين قطعها لأخيه الهادي بألاّ يتزوّج جاريته أمة العزيز ، وكان أن تزوّجها . «. . . ولما دخل الرشيد مكّة ، كان يُطرح له الرمل حول البيت ، ومقدار عرضه ذراعـان ، ويُرَشّ بالماء ، ويقوم الحرس بينه وبين الناس . وكان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً ، ولا يُطيق ذلك أحدٌ ممّن معه . . . وكذلك حجّت زبيدة . . . ماشية أيضاً ، وكانت حجّة عظيمة»[3] . «وكان يلبس درّاعةً قد كُتب من خلفها : حاجّ ، ومن قدّامها : غازٍ[4]» . ومدحه الشعراء كثيراً بهذه الصفة . من ذلك قول أبي المعالي الكلابي :

---

1 الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك ص 48 .

2 م . ن . صفحة 49 .

3 م . ن . ص 50 والنجوم الزاهرة ج2 ص 65 وفيها أنّ سبب الحجّ ماشياً رؤيا ظهر له فيها النبي ﷺ وهو لا يزال وليّاً للعهد مهدّداً ، فبشّره بالخلافة وطلب منه الحجّ ماشياً والتوسيع على أهل الحرمين .

4 الوزراء والكتّاب ص 206 .

فمَنْ يطلُبْ لقاءكَ أو يُـرِدْهُ　　　فبالحَرَمَين، أو أقصى الثغورِ[1]

من أكبر أخطاء الرشيد أنّه جعل ولاية العهد بين ثلاثة من أبنائه هم : الأمين والمأمون والقاسم . وقسم المملكة بينهم وهم أولاد في الخامسة وهذا خطأ كان يستشعره ، وتَردَّد كثيراً قبل الإقدام عليه .

لكن المَنازع التي كانت تَتَجاذبه ، من ميله إلى الأمين بن زبيدة ، وتوسّمه الخير والرزانة في المأمون ، وخوفه على الخلافة من أن تضيع إذا أصابه مكروه وليس عنده وليّ عهد ، وشعوره بطمع بعض كبار عائلته إلخ . . . هذه المنازع بلغت من القوّة المتكافئة ما جعله يختار هذا الموقف على مضض . إلاّ أنّ موكب الرشيد يتوسّط ولديه الأمين والمأمون كان فاتناً بروعته .

يصفه عمر بن سلمة :

إنّ للموكبِ نوراً　　　ساطعاً يَغشى العُيونا
أَتَـرونَ البـدرَ فيـهِ　　　أم أميرَ المؤمِنينا ؟
وولاةُ العهدِ عِطفَيـ　　　ـهِ شِمالاً ويمينا ![2]

كان الرشيد متميّزاً بطبيعتين متناقضتين : خوفه الله وورعه ، وحبّه الحياة ومتعها . أما **ورع الرشيد** ، فهو ، فضلاً عن تمسّكه بالجهاد والحجّ ، «كان يصلّي في كل يوم مئة ركعة إلى أن مات ، لا يتركها إلا لعلّة . ويتصدّق من صلب ماله كل يوم بألف درهم . وكان يحب العلمَ وأهله ، ويُعظم حرماتِ الإسلام ، ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص . وبلغه عن بشر المَرِيسيِّ القولُ بخلق القرآن فقال : لئن ظفرتُ به لأضربنّ عنقه . وكان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه ، سيّما إذا وُعظ ، وكان يأتي بنفسه إلى بيت الفُضيل بن عياض[3] (الزاهد) . «وكان ، إذا حجّ ، حجّ معه مئةٌ من الفقهاء

---

1 تاريخ الخلفاء ص 336 وتاريخ بغداد ج14 ص 6 وتاريخ الطبري ج8 ص 321 .
2 طبقات ابن المعتز ص 152 .
3 تاريخ الخلفاء ص 337 .

وأبناؤهم ، وإذا لم يحجّ أحجَّ ثلاثمئةَ رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة»[1] . ولمّا بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء وأمر الأعيان أن يعزّوه فيه[2] . وأمّا **عن حبّه الحياة** ، فقد «كان يحبّ الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب . . . وكان يحب المديح ، لا سيّما من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه»[3] . وكانت له مجالس سمر ومنادمة وطرب ، فتحلّق حوله نخبة من فناني العصر وصلوا بفن التلحين والغناء والعزف إلى قمة تضاهي الأعاجيب . وكانت عطاءاته ، في كل ميدان تقارب الأساطير . «فإنه لم يُرَ خليفة قبله أعطى منه : أعطى مرّة سفيان بن عيينة (الفقيه) مئة ألف ، وأجاز اسحق الموصلي (المغني) مرّة بمئتي ألف ، وأجاز مروان بن أبي حفصة (الشاعر) مرّة ، على قصيدة ، خمسة آلاف دينار ، وخِلعةً وفرساً من مراكبه ، وعشرة من رقيق الروم» .

ومن يقرأ أخبار الرشيد في الأغاني تتواتر أمامه صوَر الندماء والشرب والخروج عن الوقار . وقد اختلف المؤرّخون في صحّة ما نُسب إليه من شرب الخمر .

ويؤكّد ابن خلدون أنّ حال الرشيد ، في اجتناب الخمر ، كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته . . . وإنّما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة . وأما الخمر الصرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها ، ولا تقليد الأخبار الواهية فيها» .

ثم إنّ دور الرشيد ، في الحياة الثقافيّة والحركة العلميّة العربيّة معروف . فهو الذي حرّر هذه الحركة من عقالها ، وأطلقها على سجيتها جاعلاً منها حركة رسميّة عن طريق المؤسّسات العلميّة التي أنشأها ، من «بيت حكمة» إلى «بيمارستان» ، عن طريق النفقات التشجيعيّة التي أنفقها على المشتغلين بها . والمعروف أنّ الرشيد هو أوّل من أعطى الأعطيات الشاملة فضلاً عن العطاء الخاص ، وأوّل من أجرى الرواتب

1 خلاصة الذهب المسبوك ص 193 .

2 تاريخ الخلفاء ص 338 .

3 الفخري في الآداب السلطانيّة ص 193 .

الدائمة على المشتغلين بالفقه والعلم والأدب[1] .

ونختم بالقول إنّ الرشيد ، الذي اجتمع في نفسه خوف الله وحبّ الحياة ، اجتمع في طباعه السماح والحلم والكرم وسرعة العفو ، من جهة ، والتوفّز والانفعال وسرعة العقاب من جهة أخرى . ويبدو أنّ اجتماع هذه المتناقضات في شخص الرشيد هو خلف عظمته . لقد أحبّه الناس لأنّه جميل وطيّب وكريم ، ولأنّه ، مثلهم ، إنسان له مشاعرهم ومطامحهم وأهواؤهم ونقاط ضعفهم ؛ وهم احترموه وهابوه لأنّه يتميّز منهم ورعاً وعلماً وجاهاً وسطوة . هذه السطوة خافها القاصي والداني وأعطت دروساً لكلّ من سوّلت له نفسه أن يتحدّاها .

وساهم الازدهار الاقتصادي الذي عمّ المملكة في أيّامه في صنع أسطورة الرشيد وأيّام العروس . «فالنشاطات التجاريّة التي بلغت بلاد الصين حملت اسم الرشيد إلى كافة أقطار المعمورة المعروفة آنذاك ، وأعطت ألقاً أكبر لسمعة بلاط كان مركزاً للفن ومحوراً للثقافة»[2] .

* * *

---

1 الإمامة والسياسة ج2 ص 165 .

2 Encyclopédie de l'Islam, Paris, 1975, Tome III, Thème Al-Rachid.

ديوانه

قافية الباء

[1]

تشوّق الرشيد إلى بغداد ، وهو بالرِّقّة ، فانحدر إليها ، وأقام بها مدّة ، وخلّف هناك بعض جواريه ، وكانت حظيَّةٌ له فيهنّ خلّفها لمغاضبةٍ كانت بينه وبينها ، فتشوّقها تشوّقاً شديداً ، وقال فيها : [من المتقارب]

1 سَلامٌ على النَّازحِ المُغْتَرِبْ تحيّةَ صَبٍّ بــه مُكْتَئِبْ
2 غــزالٌ مراتِعُــهُ بالبليــخِ إلى دير زَكّى فجِسْرِ الخَشَبْ
3 أيا مَنْ أَعــانَ عَلى نَفْسِهِ بتخليفِهِ ، طَائِعاً ، مَنْ أَحَبّ
4 سَأَسْتُر ، والسَّترُ من شِيمَتي ، هَوى مَنْ أُحِبُّ بِمَنْ لا أُحِبّ

1 (1) الأغاني 317/18 ؛ و50/22 ؛ والمنتظم في تاريخ الأمم والملوك 183/10 ؛ ومعجم ما استعجم ص 582 ؛ ومعجم البلدان 513/2 ؛ والديارات ص 225 ؛ ومسالك الأبصار ج1 ص 269 .

(2) الأغاني 317/18 ؛ و51/22 ؛ ومعجم ما استعجم ص 582 (وفيه : (فَقَصْرِ) مكان «فَجِسْرِ» ؛ ومعجم البلدان 513/2 ؛ والديارات ص 225 (وفيه : «فقصر الخشب») ؛ ومسالك الأبصار ج1 ص 269 (وفيه «فقصر الحشب») .

(3) الأغاني 317/18 ؛ و51/22 ؛ ومعجم ما استعجم ص 583 (وفيه : «خلفه» مكان «طائعاً») ؛ ومعجم البلدان 513/2 ؛ والديارات ص 225 ؛ ومسالك الأبصار ج1 ص269 .

(4) الأغاني 317/18 ؛ و51/22 ؛ والمنتظم في تاريخ الأمم والملوك 183/10 ؛ ومعجم ما استعجم (وفيه «بمن أحب» مكان «لِمَنْ» ؛ ومعجم البلدان 513/2 . والديارات ص 226 ؛ ومسالك الأبصار ج1 ص 269 .

[2]

جاء في مروج الذهب 256/4[1] :

كان الرشيد كثيراً ما يُنشِدُ[2] بعد نكبة البرامكة : [من الكامل]

1 إنَّ استهانَتَها إذا وقَعَتْ لَبِقَدْرِ ما تَعْلُو بِـهِ رُتَبُهْ

2 وإذا بَـدَتْ للنَّمْلِ أَجْنِحَةٌ حَتَّى يَطيرَ فَقَدْ دَنا عَطَبُهْ

[3]

قال الرشيد وقد سِيقَتْ إليه جارية وكانت ثَيِّباً : [من الكامل]

1 قالُوا تُحبُّ صَغيرَةً ؟ فأَجَبْتُهُمْ أَشْهَى المَطِيِّ إلَيَّ ما لَمْ يُرْكَبِ

2 كَـمْ بينَ حَبَّـةِ لؤلؤٍ مثقوبةٍ نُظِمتْ وحبّةِ لؤلؤٍ لم تُثْقَبِ

فأجابته الجارية فقالت :

إنّ المَطِيّـةَ لا يَلَـذُّ رُكوبُها ما لم تُذَلَّلْ بالزِّمامِ وتُرْكَبِ

والدُّرُّ لَيْسَ بنافـعٍ أَربابَـهُ ما لم يُؤلَّفْ بالنِّظامِ ويُثْقَبِ

جاء في الأغاني 240/5–242 : أخبرنا محمد قال حدّثنا حَمّاد عن أبيه عن جدّه قال : قال لي الرشيد يوماً : يا إبراهيم ، بَكِّرْ عليَّ غداً حتى نَصطبح ؛ فقلتُ له : أنا والصبحُ كَفَرَسَيْ رِهانٍ ؛ فبكَّرتُ فإذا أنا به خالياً ، وبين يديه جارية كأنّها خُوطُ بان

3 (1–2) حدائق الأزاهر ص 123 .

1 تحقيق شارل بلاّ ، منشورات الجامعة اللبنانية .

2 كلمة «يُنشِد» لا تعني بالضرورة أنّ البيتين التاليين من نظم هارون الرشيد ، ولذلك وضع مفهرِس الكتاب علامة استفهام بعد اسم الرشيد في فهرس القوافي 20/6 .

أو جَدْل عِنان ، حُلْوة المنظر ، دَمِثة الشمائل ، وفي يدها عود ؛ فقال لها : غنّي ، فغنّت في شعر أبي نواس وهو :

تَوَهّمــه قلبــي فأصبح خــدُّه وفيه مكانَ الوهمِ من نظري أُثْرُ
ومــرَّ بفكــري خاطراً فجرحته ولم أر جِسماً قطُّ يَجرَحُه الفِكرُ
وصافَحــه قلبــي فآلَـم كفَّـه فمِنْ غَمْزِ قلبي في أناملهِ عَقْرُ

قال إبراهيم : فذهبتْ والله بعقلي حتى كدتُ أن أفتضح ، فقلتُ : مَنْ هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه التي يقول فيها الشاعر :

لها قلبي الغداةَ وقلبُها لي فنحن كذاك في جَسَدَيْنِ رُوحُ

ثم قال لها : غنّي ، فغنَّتْ :

تقول غداةَ البَيْنِ إحدى نسائِهمْ لِيَ الكَبِدُ الحرَّى فسِرْ ولكَ الصَّبْرُ
وقــد خنَقَتْهــا عَبْرةٌ فدموعُهــا على خدِّها بِيضٌ وفي نحرِها صُفرُ

– الشعر لأبي الشِّيص . والغناء لعمرو بن بانة ، خفيفُ رمل بالوسطى من كتابه وفيه لُمَتَيَّمَ ثاني ثقيلٍ وخفيفُ رَمَلٍ آخر – قال : فشرِب وسقاني ثم سقاها ، ثم قال : غنِّ يا إبراهيم ؛ فغنَّيت حسب ما في قلبي غير مُتحفِّظٍ من شيءٍ :

تَشَرَّبَ قلبــي حبَّهــا ومشى بــه تَمَشِّي حُمَيًّا الكأس في جسم شاربِ
ودبَّ هواهــا في عِظامــي فشَفَّها كما دبَّ في المَلْسوع سمُّ العقاربِ

[4]

قال : ففطن بتعريضي ، وكانت جهالةً منّي ؛ قال : فأمرني بالانصراف ، ولم يدعُني شهراً ولا حضرتُ مجلسَه ؛ فلما كان بعد شهر دَسَّ إليّ خادماً معه رُقعةً ، فيها مكتوب : [من الخفيف]

1 قد تخوّفتُ أن أموتَ من الوَجْـ ـد ولم يَدْرِ مَنْ هَوِيتُ بما بِي

2 يا كتابي فاقْرَ السَّلامَ على مَنْ   لا أُسمِّي وقل له ، يا كتابي ،
3 إنَّ كفّاً إليكَ قد بعثتني   في شَقَاءٍ مُواصَلٍ وعذابِ

فأتاني الخادم بالرقعة ؛ فقلت له : ما هذا ؟

قال : رقعة الجارية فلانة التي غنَّتك بين يدي أمير المؤمنين .

فأحسَسْتُ القصَّة ، فشتَمتُ الخادم ، ووثبتُ عليه ، وضربتُه ضرباً شَفَيْتُ به نفسي وغيظي ، وركبتُ إلى الرشيد من فَوْري فأخبرتُه القصَّةَ وأعطيته الرقعة ؛ فضحك حتى كاد يستلقي ، ثم قال : على عَمْدٍ فعلتُ ذلك بك لأمتحِن مذهبَك وطريقتَك ، ثم دعا بالخادم ؛ فلما خرج ، رآني فقال لي : قطع الله يديك ورجليك ، وَيْحَك ! قتلتني ؛ فقلت : القتلُ والله كان بعض حقّك لِما وردت به عليّ ، ولكن رَحِمتُك فأبقيتُ عليك ، وأخبرتُ أمير المؤمنين ليأتي في عقوبتك بما تستحقّه . فأمر لي الرشيدُ بِصلةٍ سنّية ؛ والله يعلم أني ما فعلتُ الذي فعلتُ عَفافاً ولكن خوفاً .

[5]

كان الرشيدُ حَدَّ المأمون . وذلك أنَّهُ دَخل على الرشيد وعنده مُغنِّيَةٌ تُغنِّيه فَلَحنت ، فكسر المأمون عَيْنَهُ عند استماعه اللحن ، فتغيّر لون الجارية ، وفطن الرشيد لذلك ، فقال : أَعْلَمْتَها بما صَنَعَتْ ؟ قال : لا واللهِ يا مولاي . قال : ولا أَوْمَأْتَ إليها ؟ قال : قد كان ذلك . فقال : كن مني بِمَرأًى ومَسْمَع فإذا خَرَجَ إليكَ أَمري فانتهِ إليه ، ثمّ أخذ دواةً وقرطاساً وكتب إليه : [من الرجز]

1 يا آخِذَ اللَّحْنِ على الـ   ـقَيْنةِ عِنْدَ الطَرَبِ
2 تُريدُ أَنْ تُفْهِمَها   حَدَّ لُغاتِ العَرَبِ
3 أُقْسِمُ باللهِ وما   سَطَّرَ أَهْلُ الكُتُبِ

5 (1-2-3) العقد الفريد 120/5 ؛ والملوك الشعراء ص 112 .

4 لَلْكَلْبُ خَيْرٌ أدباً من بَعْضِ أَهْلِ الأَدَبِ

إذا قرأت ما كتبت إليك ، فأمْرْ من يضربك عشرين مقرعةً جياداً . فدعا المأمون البوابين ، ثمَّ أمرهم ببطحه وضربه ، فامتنعوا . فأقسم عليهم ، فامتثلوا لأمره .

[6]

قال الرشيد لإحدى الجاريات : غنِّي صوتي ، فغنَّت : [من الكامل]

1 ومُخَنَّثٍ شَهِدَ الزفافَ وقَبْلَهُ غَنَّى الجواري حاسِراً ومُنَقِّبا

2 لبسَ الدلالَ وقامَ يَنْقُرُ دَفَّهُ نَقْراً أقَرَّ به العيونَ فأطْرَبا

3 إنَّ الجواري رأيْنَه فَعَشِقْنَهُ فَشَكَونَ شِدَّةَ ما بِهِنَّ فَأَكْذَبا

* * *

5 (4) العقد الفريد 120/5 ؛ والملوك الشعراء ص 112 .

6 (1–3) التذكرة الحمدونية 55/9 .

قافية التاء

[7]

كتب هارون الرشيد إلى جاريةٍ كان يُحبُّها ، وكانت تبغضه ، هذه الأبيات :

[من البسيط]

1 إنّ التي عَذّبَتْ نَفْسي بما قَدَرَتْ ... كُلَّ العذاب ، فما أَبْقَتْ ولا تَرَكَتْ
2 مازَحْتُها فَبَكَتْ ، واستَعْبَرتْ جزَعاً ... عَنّي ، فلَمَّا رأتني باكياً ضَحِكَتْ
3 فَعُدْتُ أُضْحكُ مسروراً بِضِحْكَتِها ... حَتّى إذا ما رأتني ضاحكاً ، فَبكَتْ
4 تَبْغي خلافي كما خَبّت بِراكِبِها ... يوماً ، قلوصٌ ، فَلمّا حَثّها بَرَكَتْ
5 أَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ بل زادني عَجَباً ... مملوكةٌ مَلَكَتْ من بعدما مُلِكَتْ
6 كأَنّها دُرّةٌ قَدْ كُنْتُ أَذْخَرُها ... لِيَوْمِ عُسْرٍ ، فَلَمَّا رُمْتُها هَلَكَتْ

* * *

7 (1-2-3-4-5-6) مصارع العشاق 208/2 .

قافية الثاء

[8]

كانت ذات الخال إحدى ثلاث جوارٍ ، كان الرشيد يهواهنّ ، ويقول الشعر فيهنّ ، وهن سِحْر ، وضياء ، وخنث ؛ وفيهنّ يقول الرشيد : [من الرمل]

1 إنَّ سِحْـراً وضِيـاءً وخُنُثْ ... هُـنَّ سِحْرٌ وضِياءٌ وخُنُثْ
2 أَخَذَتْ سِحْرٌ ولا ذَنْبَ لَها ... ثُلُثَي قلبـي وتِرْباها الثُلُثْ

[9]

وله في جواريه الثلاث أيضاً ، مفضّلاً سحراً على رفيقتيها : (وقد صحف بعض النسّاخ ، على ما يبدو ، اسمها إلى شجو) : [من الرمل]

1 إنَّنـي وَزَّعْتُ حُبِّـي طائِعاً ... بـينَ شَجْوٍ وضِياءٍ وخُنُثْ[1]
2 يتنازَعْنَ الهوى مِنْ ذي هوًى ... آمناتٍ عُقدةً لا تُنْتَكَثْ
3 وإذا شَجْـوٌ أَتَـتْ زائـرةً ... كشفَتْ ، عَنِّيَ شَجْوٌ كُلَّ بَثّ

8 (1) الأغاني 311/5 ، 372/16 ؛ والملوك الشعراء ص 114 (وفيه «حَنَث» مكان «خنُث» الثانية ، وهذا تحريف) ؛ والورقة ص 18 .
(2) الأغاني 301/5 ، 372/16 ؛ والملوك الشعراء ص 114 ؛ والورقة ص 18 .
9 (1–2–3) الديارات ص 227 .

1 الخُنُث : التكسُّر والدلال .

[10]

ومن شعر الرشيد يرثي جاريته هيلانة : [من مجزوء الرمل]

1 أُفٍّ للدُّنيـــا وللزيـــ ـــنَةِ فيهـا والإنــاثِ
2 إذ حَثَا التُّربَ على هَيْلا نَ في الحُفْــرةِ حــاثِ
3 فَلَها تَبْكــي البواكــي ولَهَا تشجــي المَرَاثي
4 خَلّفــت سقماً طويلاً جَعَلَــتْ ذاك تُــراثي

* * *

10 (1) فوات الوفيات 226/4 ؛ وتاريخ بغداد ج1 ص 97 (وفيه «الأثاث» بدل «الإناث») .
(2) فوات الوفيات 226/4 ؛ وتاريخ بغداد ج1 ص 97 .
(3–4) فوات الوفيات 226/4 .

قافية الحاء

[11]

قال سهل بن هارون : بَعَثَ إليّ الرشيد . فوالله لقد أُعجلتُ عن النظر ، فلبست ثياب أحزاني ، وأعظمُ رغبتي إلى الله الإراحة بالسيف وألاّ يعبث بي عبث جعفر . فلمّا دخلت عليه ، ومثلت بين يديه ، عَرَف الذُّعر في تجرّض ريقي وشخوصي إلى السيف ببصري . فقال : إيه يا سهل ، من غَمَط نِعْمَتي ، وتَعدّى وَصِيَّتي ، وجانَبَ مُوافقتي ، أَعْجَلْتُهُ عُقوبتي . قال : فوالله ما وَجَدْتُ جَوابها حتى قال لي : لِيُفْرِخ رَوْعُكَ ، ويَسْكُنْ جَأْشُكَ ، وتَطِبْ نَفْسُكَ ، وتَطْمِئِنَّ حَواسُّك ، فإنّ الحاجة إليك قرّبت منك ، وأبقت عليك ، بما يَبْسُطُ مُنْقَبِضَك ، ويُطْلِقُ معقولك ، فما اقتُصر على الإشارة دون اللسان ، فإنّه الحاكم الفاصل والحسام الباتر . وأشار إلى مصرع جعفر فقال : [من مجزوء الكامل]

1 مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْـهُ الجميلُ ففـــي عُقوبَتِـهِ صَلاحُهْ

11 (1) العقد الفريد 60/5 .

قافية الدال

[12]

جاء في ديوان الصبابة ص 252–253 : عشق هارون الرشيد جاريةً ، «فلمّا راودها عن نفسها قالت : إنّ أباك ألَمَّ بي ، فتركها . وشغف بها حتى كاد يخرج على وجهه ، فكان ينشد[1] : [من الطويل]

1 أرَى ماءً وَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ ولكــنْ لا سَبيلَ إلى الوُرودِ

فقال له القاضي : أوَكلّما قالت جارية شيئاً تصدّق قولها ؟

فقال الرشيد : ما فوق الخلافة مرتبة .

[13]

قال الرشيد لجاريةٍ صالحها : [من الوافر]

1 دعي عَدَّ الذُنوبِ إذا التَقَيْنا تَعالَــيْ لا نَعُــدُّ ولا تَعُدِّي

13 (1) فوات الوفيات 226/4 .

1 قوله : «ينشد» لا يعني بالضرورة أنَّ البيت له ، وكذلك لا يعني بالضرورة أنّه من نظم غيره ؛ والبيت للرشيد في يتيمة الدهر 74/4 ؛ وهو من أبيات ستّة في حماسة الظرفاء 105/2 منسوبة للمهديّ أمير المؤمنين ، والأوّل والثاني من أبيات الحماسة منسوبة للمأمون ، وقيل للمهدي في نزهة الجليس 98/1 .

[14]

عن العبّاس بن الأحنف أنّ الرشيد قال في حَظِيّةٍ له : [من الوافر]

1 أَمَا يَكْفيكِ أنّكِ تَمْلِكيني وأَنَّ النّاسَ كلَّهُمُ عَبيدي
2 وأنَّكِ لو قَطَعْتِ يَدِي ورِجْلي لَقُلْتُ مِنَ الهوى : أَحْسَنْتِ زِيدي

[15]

جاء في الأغاني : «مما قاله في سِحر وضِياء وخنث» : [من الوافر]

1 ثلاثٌ قد حَلَلْنَ حِمى فؤادي ويُعطِينَ الرغائبَ من ودادي
2 نظمتُ خيوطهنَّ بخيطِ قلبي فهنَّ قَرابتي حتى التنادي
3 فَمَنْ يكُ حَلَّ، من قلبٍ، مَحَلاًّ فهنَّ مع النواظرِ والسَّوادِ

[16]

بَلَغَ القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاريّ مكانة كبيرة عند الرشيد . وقيل إنّه طلبه يوماً ، فجاء وعليه بردة فقال الرشيد : [من الرجز]

1 جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِراً بِبُردِهِ سَفْواء تَرْضَى بنَسيجِ وَحْدِه

* * *

---

14 (1) تاريخ الإسلام (وفيات 191هـ-200هـ) ص 429 ؛ والبداية والنهاية 228/10 ؛ وتاريخ بغداد 12/14 .

(2) تاريخ الإسلام (وفيات 191هـ-200هـ) ص 429 ؛ والبداية والنهاية 228/10 ؛ وتاريخ بغداد 12/14 ؛ والإبانة عن سرقات المتنبي ص 210 .

15 (1-2-3) الأغاني ج16 ص 270 .

16 (1) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك 74/9 . وعبارة «قال الرشيد» لا تعني بالضرورة أنّ البيت من نظمه .

قافية الراء

[17]

كان الرشيد في مجلس مع ندمائه يتذاكرون أبياتاً لخالد بن يزيد غَنَّت بها جارية من البلاط ، إذ أقبلت وصيفة معها تفّاحة عَلَيْها مكتوب بغاليه : [من المتقارب]

سُرورُك أَلْهاكَ عن مَوْعِـدي فصيَّـرتُ تُفّاحتـي تَذْكِرهْ

فأخذ الرشيد تفّاحة أُخرى كتب عليها : [من المتقارب]

1 تقاضَيْتُ وعدي ، وَلَمْ أَنْسَهُ فتفّاحَتـــي هـــذِهِ مَعْــذِرَهْ

[18]

أسند عن معاوية بن صالح عن أبيه ، قال : أوّل شعر قاله الرشيد ، أنّه حجّ سنة وُلّي الخلافة ، فدخـل داراً ، فإذا في صدر بيتٍ منها بيتُ شعر قد كُتب على حائط : [من الطويل]

أَلا يـــا أَميرَ المُؤمنين أَمَا تَــرى ـ فَدَيْتُكَ ـ هُجرانَ الحبيبِ كبيرا

فدعا بدواة ، وكتب تحته بخطّه : [من الطويل]

1 بَلى والهدايا المُشْعَرَاتِ وما مشى بِمَكَّةَ مَرْفُوعُ الأَظَلِّ حسيرا

---

17 (1) مروج الذهب 235/4 .

18 (1) تاريخ الخلفاء ص 345 ؛ والملوك الشعراء ص 111–112 .

[19]

كان الرشيد شديد الحبّ لجاريته هيلانة ، وأقامت عنده ثلاث سنين ، ثمّ ماتت : فوجد عليها وجداً شديداً ، وقال فيها : [من السريع]

1 قد قُلْتُ لَمَّا ضَمّنوكِ الثَّرى وَجالَتِ الحَسْرَةُ في صَدْري

2 اذْهَبْ فَلا واللهِ لا سَرَّني بَعْدَكِ شَيءٌ آخِرَ الدَّهْرِ

* * *

19 (1–2) القيان ص 94 ؛ وتاريخ بغداد ج1 ص 97 ؛ ونساء الخلفاء ص 55 .

قافية العين

[20]

مما قاله الرشيد في التكتّم والستر على المحبوب : [من المتقارب]

1 لِساني كَتــومٌ لأسرارِهــمْ ودمعي ، بِسِرِّي ، نَمومٌ ، مُذيعْ

2 فلولا دموعي كتمتُ الهوى ولولا الهوى لم يكنْ لي دموعْ

[21]

قيل : «دخل الأمين على أبيه الرشيد ، وقد عُرضت له وصيفة جميلة . فلم يزل محمد ينظر إليها . وفطن أبوه ، فقال : يا محمد ، ما ترى في هذه الوصيفة ؟ قال : ما أرى بأساً . قال : فهل لك فيها ؟ قال : أمير المؤمنين أحقّ بها منّي . قال : فقد آثرك على نفسه ، فخذها . فقال الرشيد : [من الطويل]

1 ولي ولدٌ لم أَعصِهِ مُذ ولدتُهُ ولا شكَّ في بِرِّي به ، مُذْ تَرَعْرَعا

2 تَخَيَّرتُهُ للمُلكِ قبلَ فِطامِهِ وأقطَعتُه الدنيا فطيماً ومُرضَعا

3 فلا المُلكُ يخلو باعُهُ من محمدٍ ، ولا هُو منه ، بل هما هكذا معا

....

20 (1–2) خزانة الحموي ص 202 .

21 (1–2–3) المحاسن والمساوىء ص 546 .

[22]

أنشد عبد الله بن مسلم بن قتيبة للرشيد : [من البسيط]

1 النَفْسُ تَطْمَعُ والأَسْبابُ عاجِزةٌ   والنَّفْسُ تَهْلِكُ بَيْنَ اليأْسِ والطَّمَعِ

* * *

22 (1) الورقة ص 20 ؛ وحدائق الأزاهر ص 170 (وفيه «العجز» مكان «اليأس») .

قافية الفاء

[23]

عن ثُمامة بن أشرس قال : بتُّ ليلةً مع جعفر بن يحيى بن خالد ، فانتبه من منامه يبكي مذعوراً فقلت : ما شأنك ؟ قال : رأيت شيخاً جاء فأخذ بعضادتي هذا الباب ، وقال :

كَأَنْ لَم يَكُنْ بين الحُجونِ إلى الصَّفا أنيسٌ وَلَمْ يَسْمَرْ بمكَّةَ سَامِرُ

قال : فأجبته :

بَلْ نَحْنُ كُنَّا أَهْلَها فأَبادَنا صُروفُ الليالي والجدودُ العواثِرُ

قال ثُمامة : فلمّا كانت الليلة القابلة ، قتله الرشيد ، ونصب رأسه على الجسر ، ثمّ خرج الرشيد فنظر إليه ، فتأمّله ثم أنشأ يقول : [من المتقارب]

1 تقاضاكَ دَهْرُك ما أَسْلَفا وكدَّر عَيْشَكَ بعد الصَّفا

2 فَلا تَعْجَبَنَّ فإنَّ الزَمانَ رَهِينٌ بِتَفْريقِ ما أَلَّفا

---

23 (1–2) البداية والنهاية 10/204 .

[24]

قال الرشيد : [من البسيط]

1 ما الفَخْرُ أنِّي إمامُ الناسِ كُلِّهِمُ فَخْري بِنَفْسي وآبائي من اللَّفَفِ

2 والعَقْلُ والفَضْلُ في مَجْدي وفي نُطُقي وما تَكامَلَ في خُلْقي من الشَّرَفِ

* * *

24 (1–2) الزهرة ص 648 .

قافية الكاف

[25]

قال ابن الجراح : «أنشدني ابن أبي خيثمة ، عن محمد بن أبي أيوب ، للرشيد في جارية له اسمها صيْرف . (وأخبرني ابن أبي طاهر أنّهما لأبي الشبل)» :

[من مجزوء الخفيف]

1 قُــلْ لمــنْ يملِكُ الملو كَ ، وإن كان قد مُلِكْ :
2 قــد شربناكَ مُــدّةً ، وبعثْنــا إليــكَ بِكْ

[26]

قال الأصمعي : ما رأيت أَثَر النبيذ في وجه الرشيد قطّ إلاّ مرّة واحدة ، فإنّي دخلت إليه أنا وأبو حفص الشَّطْرنجيّ ، فرأيت التخثُّر في وجهه ، فقال لنا : استبقا إلى بيتٍ بل إلى أبيات ، فمن أصاب ما في نفسي فله عشرة آلاف درهم ؛ قال : فأشفقتُ ، ومنعتني هيبته ، قال : فقال أبو حفص :

كُلَّما دَارتِ الزُجاجَةُ زَادَتْــ ــهُ اشْتياقاً وَحُرْقَةً فَبَكاكِ

فقال : أحسنتَ ، فلك عشرة آلاف درهم .

قال : فزالت الهيبة عنّي ، فقلت :

لَم يَنَلْكِ الرّجاء أَنْ تحضريني وتجافَتْ أُمنيّتي عن سِواكِ

---

25 (1–2) الورقة ص 19 .

فقال : للهِ درّك ! لك عشرون ألفَ درهم ، قال : فأطرق مليّاً ، ثمّ رفع رأسه إليّ ، فقال : أنا والله أشعر منكما ، ثمّ قال : [من الخفيف]

1 فَتَمنَّيتُ أنْ يغشِّيني اللّـ ـهُ نُعاساً لَعَلَّ عَيْني تَراكِ

[27]

قال الرشيد : [من السريع]

1 يا ربّــة المَنْزِلِ بالفَرْكِ وربَّةَ السُلطانِ والمُلْكِ
2 تَرَفَّقــي باللهِ في قَتْلِنــا لَسْنا من الدَّيْلَمِ والتُرْكِ

* * *

---

26 (1) الأغـاني 98/23 ؛ والعقد الفريـد 58/6 (وفيه القافية مفتوحة (تراكا)) ؛ وتاريخ بغداد 10/14 .

27 (1) تاريخ الخلفاء ص 349 ؛ والتذكرة الفخرية ص 232 ؛ والأغاني 206/10 ؛ والملوك الشعراء ص 114 .

(2) تاريخ الخلفاء ص 349 ؛ والتذكرة الفخرية ص 232 (وفيه «تحرّجي» مكان «ترفّقي» و«من» مكان «في») ؛ والأغاني 206/10 (وفيه «تحرجي» مكان «ترفّقي» و«عن» مكان «في») ؛ والملوك الشعراء ص 114 .

قافية اللام

[28]

قيل : إنّ الفضل بن الربيع اشتكى شكاة ، فكتب إليه الرشيد : أطال الله مدّتك وأدام عافيتك ، ما منعني من المسير إلَيك إلاّ التطيّر من عيادتك . واعذرْ أخاك فوالله ما جفاك ولا قلاك ولا استبدل بك سواك ، وفيك أقول : [من الكامل]

1 أَعْزِزْ عَليَّ بأَنْ تبيتَ عَليلا ... أَوْ أَنْ يَحِلَّ بِكَ السَّقَامُ نَزِيلا

2 وَلئِن سُئِلْتُ أُجيبُ عنكَ بِلَوْعةٍ ... إذْ قِيْلَ أوْعَكَ أو أحَسَّ غليلا

3 فَودِدْتُ أنِّي مالكٌ لِسَلامتي ... فَـأُعيرُكاهـا بُكْـرةً وأَصيلا

4 هذا أخٌ لك يَشتكي إذ تشتكي ... وكذا الخليلُ إذا أَحَبَّ خَلِيلا

---

28 (1) الزهرة ص 564 ؛ وغرر الخصائص الواضحة ص 445 (وفيه «أن يكون بك السقام . . .») .

(2) الزهرة ص 564 (والرواية فيه :

ولقد سألتُ فأبتُ بِغُصَّةٍ ... إذ قيلَ أوعَكَ أو جُحِسَّ عَليلا

وغرر الخصائص الواضحة ص 445 .

(3) الزهرة ص 564 ؛ وغرر الخصائص الواضحة ص 445 (وفيه «فأعيرها لك . . .) .

(4) الزهرة ص 564 ؛ وغرر الخصائص الواضحة ص 445 (وفيه «يشتكي ما تشتكي . . . وكذا المحب . . .) .

[29]

اشترى الرشيد ماردةَ بنت شبيب – أُمّ أبي إسحق – فعشقها عشقاً مبرّحاً ، وقال فيها الشعر ؛ وكان ممّا قاله : [من الكامل]

1 وتنـالُ مِنْكَ بِحَـدّ مُقْلَتِها ... مـا لا يَنالُ بِحَـدِّهِ النَّصْلُ
2 شَغَلَتْكَ ، وهْيَ ، لِكُلِّ ذي بَصَرٍ ... لاقى مَحاسِنَ وَجْهِها ، شُغْلُ
3 فَلِقَلْبِهـا حِلْـمٌ يُباعِدُهـا ... عن ذي الهَوى وَلِطَرْفِها جَهْلُ
4 وإذا نَظَـرْتَ إلى مَحاسِنِها ... فَلِكُلِّ مَوْضِعِ نَظْرَةٍ قَتْلُ
5 ولِوَجْهِها مِنْ وَجْهِها قَمَرٌ ... ولِعَيْنِها مِـنْ عَيْنِها كُحْلُ

* * *

29 (1) الورقة ص 19 ؛ وحماسة الظرفاء 78/2 ؛ والزهرة 51/1 (بلا عزو ، ورواية الصدر فيه :

وتنالُ إنْ نظرَتْ إليكَ بِطَرْفِها

والديارات ص 226 ؛ والتذكرة الحمدونية 127/6 .

(2) الورقة ص 19 ؛ والديارات ص 226 .

(3) الورقة ص 19 ؛ والزهرة 51/1 (بلا عزو ، ورواية الصدر فيه :

وَلَقلْبِهـا حِلْـمٌ تَصُـدُّ بِـهِ

والديارات 226 ؛ والتذكرة الحمدونية 127/6 (وفيه «ولقلبها» مكان «فلقلبها») .

(4) الورقة ص 19 ؛ وحماسة الظرفاء 78/2 ؛ والزهرة 51/1 (بلا عزو ، ورواية الصدر فيها :

وإذا نظرْتَ إلى محاسنِ وجهها

والديارات 226 ؛ والتذكرة الحمدونية 127/6 (ورواية العجز فيه : «فبكلّ موقع نظرة نبل») .

(5) حماسة الظرفاء 78/2 ؛ والديارات 226 ؛ والتذكرة الحمدونية 127/6 .

قافية الميم

[30]

عقد الرشيد لابنه محمد من بعده ولاية العهد ، فَأَخَذَ له بيعة القوّاد والجند ببغداد ، وسمَّاه : الأمين ، وله يومئذٍ خمس سنين ، فقدّمه على المأمون ، والمأمون أكبر منه ، لأنّ أُمّه زبيدة .

وقد روى أبو بكر الصولي قال : حدّثنا سليمان بن داود المهلّبي قال : حدّثنا القاسم بن محمد بن عباد ، عن أبيه قال : كان الرشيد يقول : إنّي لأتعرّف في عبد الله حزم المنصور ، ونسك المهدي ، وعزّة نفس الهادي ، فلو أشاء أن أنسبه إلى الرابعة فيّ لنسبته ، وإنّي لأرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأستحسن سياسته ، وأرى قوّته وذهنه ، وآمن ضعفه ووهنه ، وإنّي لأقدّم محمّداً عليه ، وأعلم أنّه منقاد لهواه ، متصرّف في طريقه ، مبذّر لما حوته يده ، مشارك للنساء والإماء في رأيه ، ولولا أُمّ جعفر وميل بني هاشم إليه ، لقدّمت عبد الله عليه .

قال الصولي : ثمّ جعل يرى فضل المأمون ، وعقله فيندم على تقديمه محمّداً ، فقال : [من الطويل]

1 لَقَدْ بَانَ وَجْهُ الرأْيِ لي غيرَ أَنَّني ... غُلِبْتُ عَلى الأَمْرِ الذي كَانَ أَحْزَمَا
2 فَكَيْفَ يُرَدُّ الدَّرُّ في الضَرْعِ بَعْدَما ... تَوزَّعَ حَتَّى صَارَ نَهْباً مُقَسَّما
3 أَخَافُ التواءَ الأَمْرِ بَعْدَ انْصِداعِهِ ... وأَنْ يُنْقَضَ الأَمْرُ الذي كَانَ أُبْرِما

30 (1–2) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك 10/9 ؛ والملوك الشعراء ص 115 ؛ ومعجم الشعراء ص 462 .

(3) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك 10/9 ؛ والملوك الشعراء ص 115 . (وفيه «استوائه» مكان «انصداعه» و«الحبل» مكان «الأمر») ؛ ومعجم الشعراء ص 462 (وفيه «استوائه» مكان «انصداعه») ، و«الحبل» مكان «الأمر») .

[31]

وجه الرشيد إلى جاريته سِحْر لتصير إليه ؛ فاعتلّت عليه ذلك اليوم بعلّة ، ثمّ جاءته من الغد ، فقال الرشيد : [من الهزج]

1 أَيَا مَنْ رَدَّ وُدِّيَ أَمْـ ... سِ لا أُعْطِيكَهُ اليَوْمَا
2 وَلا واللهِ لا أُعْطِيـ ... ـكَ إلاَّ الصَدَّ واللَّوْمَا
3 وَإِنْ كَانَ بِقَلْبي مِنْـ ... ـكَ حُبٌّ يَمْنَعُ النَّوْما
4 أَيَا من سُمْتُهُ الوَصْلَ ... فأغلى المَهْرَ والسَّوْمَا

[32]

ذكر ابن الجراح : «أخبرنا أحمد بن أبي خيثمة قال : أخبرنا الزبير عن عمّه قال : أخرج الفضلُ بن الربيع ، من عند هارون الرشيد ، رقعة فيها أبيات فقال : إنّ أمير المؤمنين يقول هذه الأربعةَ الأبيات ، فأجيزوها : [من الكامل]

1 أهدى الحبيبُ ، مع الجنوب ، سلامَهُ ... فارْدُدْ عليهِ ، مِنَ الشِّمالِ ، سَلاما
2 واعْرِفْ ، بقلبِكَ ، ما تَضَمَّنَ قلبُهُ ... وتــداولا ، بهواكمــا ، الأياما
3 فإذا بكيتَ لـــه ، فأيقِــنْ أنَّه ... سيُفيضُ منهُ ، للدموعِ ، سِجاما

---

31 (1–2–4) الأغاني 373/16 ؛ والملوك الشعراء ص 114 .
(3) الأغاني 373/16 وفي رواية «ما يمنعني» بدل «حب يمنع» ؛ والملوك الشعراء ص 114 .

32 (1) الورقة ص 18 والديارات ص 226 (وفيه «مع الشَّمال) .
(2) الورقة ص 18 والديارات ص 226 .
(3) الورقة ص 18 والديارات ص 227 (وفيه «مهما بكيت . . . ستفيض عيناه الدموع . . .») .

4 فاحبسْ دموعَكَ ، رحمةً بدموعِهِ ، إن كنتَ تَحفظُ ، أو تَحوطُ ، ذِماما

[33]

يقول الشابشتي : «وللرشيد شعر صالح وأبيات مفردات كان يتمثل بها . وأكثر شعره في جوارِيه وعشقه لهن . فمن شعره : [من السريع]

1 ملكتُ من أصبحَ لي مالكاً لكنّهُ ، في ملكِهِ ، ظالمُ
2 لو شئتُ لاستاقَتْهُ لي قُدرةٌ لكنَّ حكمَ الحُبِّ لي لازمُ
3 أحببتُهُ من بينِ هذا الورى وَهْوَ ، بحبّي ، خَبِرٌ ، عالِمُ
4 قَبيحُ فِعلٍ ، حَسَنٌ وجهُهُ يُعذَر ، في أمثالِهِ ، اللائمُ
5 أحسنُ مَن أَبصَرَهُ مُبصرٌ ، لو أنّه ، في حُسنِهِ ، راحِمُ

[34]

قال الأصمعيّ : بينا أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ؛ فكان يقعد مرّة ويضطجع أُخرى ويتكي أُخرى ، ثم أنشأ يقول : [من البسيط]

1 قَلِّدْ أُمــورَ عبادِ اللهِ ذا ثِقَةٍ مُوحَّدَ الرأيِ لا نِكسٌ ولا بَرَمُ
2 واتركْ مقالَةَ أقوامٍ ذَوي خطَلٍ لا يفهمون إذا ما مَعشرٌ فهموا

---

32 (4) الورقة ص 18 ؛ والديارات ص 227 .
33 (1-2-3-4-5) الديارات ص 226 .
34 (1-2) مروج الذهب 213/4 .

[35]

عن الأصمعيّ أنّه قال : وجّه إليَّ الرشيد في تلك الليلة ؛ فلمّا أدخلت عليه قال لي : «يا أصمعيّ ، قد قلتُ شعراً أحببتُ عرضه عليك» . قال : فقلت : «قل يا أمير المؤمنين» . فأنشدني : [من الكامل]

1 لو أنَّ جعفرَ هابَ أسبابَ الرَّدى ... لَنَجا بِمُهْجَتِهِ طِمِرٌّ مُلجَمُ

2 ولكانَ مِنْ حَذَرِ المُنونِ بحيثُ لا ... يَسْمُو إليه به العُقابُ القَشْعَمُ

3 لكنَّـــهُ لمّا تَقـــارَبَ وقتُـــهْ ... لم يَدْفَعِ الحَدَثـــانَ عنه مُنَجِّمُ

4 فلْيُبْطلِ العُلماءُ عِلْمَ نُجومِهِمْ ... بَعْدَ ابنِ يَحْيَى البَرْمكيِّ ليَعْلَمُوا

قال الأصمعيّ : فرجعت إلى منزلي ، فلم أصل إليه حتّى تحدّث الناس بقتل جعفر .

* * *

35 (1) مروج الذهب 252/4 ؛ ومعجم الشعراء ص 462 ؛ والوزراء والكتّاب ص 238 .

(2) مروج الذهب 252/4 ؛ ومعجم الشعراء ص 462 (ورواية العجز فيه «يرجو اللحاق به العُقابُ القَسْعَمُ») . والوزراء والكتّاب ص 238 .

(3) مروج الذهب 252/4 ؛ ومعجم الشعراء ص 462 ؛ والوزراء والكتّاب (وفيه «تقارب يومُه») .

(4) معجم الشعراء ص 462 .

قافية النون

[36]

أُخْرج عن عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع قال : حلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أيّاماً ، وكان يُحبّها ، فمضت الأيّام ولم تَسْتَرْضِه ، فقال : [من الرمل]

1 صَدَّ عَنِّـي إذْ رآني مُفْتَتَنْ ... وأطالَ الصَّبْرَ لَمّا أنْ فَطَنْ
2 كانَ مَمْلوكي فأَضْحَى مَالِكِي ... إنّ هذا مِنْ أعاجِيبِ الزَّمَنْ

[37]

من شعر الرشيد يرثي جاريته هيلانة ، أورده الصُولي : [من السريع]

1 قاسيتُ أوجاعــاً وأحزانــا ... لَمَّا استَخَصَّ الموتُ هَيْلانا
2 فارقتُ عَيْشي حينَ فارقتُها ... فما أُبــالي كَيْفَ مــا كَانا
3 كانَتْ هي الدُّنيا فَلَمَّا ثَوَتْ ... في قَبْرِهــا فَارَقْــتُ دنيانا
4 قــد كَثُر النــاسُ ولكنّني ... لَسْتُ أرى بعــدكِ إنْسانا
5 واللهِ لا أنساكِ ما حَرَّكَتْ ... رِيحٌ بأعــلى نَجْدِ أَغْصَانا

---

36 (1–2) تاريخ الخلفاء ص 345 ؛ والأغاني 4/78 .

37 (1–2–3–4–5) تاريخ الخلفاء ص 349 ؛ والملوك الشعراء ص 113 .

[38]

قال ثمامة بن أشرس : حين قتل الرشيد جعفراً البرمكي ، نظرت إلى جعفر وقلت : أَمَا لَئِن أصبحتَ اليوم آيةً ، فلقد كُنْت في الكرم والجود غاية ، قال : فنظر إليّ الرشيد كأنّه جَمَلٌ صؤول ، ثمَّ أنشأ يقول : [من السريع]

1 ما يَعْجَبُ العَالَمُ من جَعْفرٍ ... مـا عاينـوهُ فَبِنـا كانا
2 مَنْ جَعْفَرٌ أو من أبوهُ ومَنْ ... كانَتْ بنو بَرْمَكٍ لولانا ؟

[39]

قال الرشيد في قينة له : [من البسيط]

1 تُبْدي صُدوداً وتُخْفي تَحْتَه مِقَةً ... فالنَّفْسُ راضِيةٌ والطَّرْفُ غَضْبانُ
2 يا من وَضَعْتُ لَهُ خَدِّي فَذَلَّلهُ ... وَلَيْس فَوْقي سِوى الرَّحمنِ سُلْطانُ

---

38 (1-2) البداية والنهاية 205/10 .

39 (1) العقد الفريد 63/6 ، 411 (وفي ص 411 «صلة» مكان «مقة») ؛ والبداية والنهاية 229/10 (ورواية الصدر فيه :

تُبْدي الصُدودَ وتخفي الحُبّ عاشِقةً)

(2) العقد الفريد 63/6 ، 411 .

[40]

قال الرشيد في جوارِيه الثلاث المحبّبات إليه ، وقيل إنّ العبّاس ابن الأحنف قالها على لسانه : [من الكامل]

1 مَلكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنَاني وحَلَلْنَ من قَلْبي بِكُلِّ مَكَانِ
2 ما لي تطاوِعُني البَرِيّةُ كُلُّها وأُطِيعُهُنّ ، وهُنَّ في عِصْياني
3 ما ذَاكَ إلاَّ أَنَّ سُلْطان الهَوى ، وَبِهِ عَزَزْنَ . أعَزُّ من سُلْطاني

---

40 (1) الأغاني 373/16 (وفيه «ملكن الثلاثُ . . .») ؛ وفوات الوفيات 226/4 وفيه : (أعَزّ) مكان «بكلّ») ؛ والبداية والنهاية 229/10 وفيه : (الناشئات) مكان «الآنسات») ؛ والزهرة ص 564 (وفيه «في قلبي» مكان «من قلبي») ؛ وتاريخ بغداد 12/14 (وفيه «الغانيات» مكان «الآنسات») ؛ والآداب العربية ص 86 (وفيه «لسان» مكان «الآنسات») ؛ وديوان الصبابة ص 52 ؛ والملوك الشعراء ص 8 ، 114 ؛ والورقة ص 18 . والعقد الفريد 46/6 ؛ وحدائق الأزاهر ص 419 .

(2) الأغاني 373/16 ؛ وفوات الوفيات 226/4 ؛ والبداية والنهاية 229/10 ؛ والزهرة ص 564 ؛ وتاريخ بغداد 12/14 ؛ والآداب العربية ص 86 ؛ وديوان الصبابة ص 52 ؛ والملوك الشعراء ص 8 ؛ والورقة ص 18 ؛ والعقد الفريد 46/6 ؛ وحدائق الأزاهر ص 419 .

(3) الأغاني 373/16 ؛ وفوات الوفيات 226/4 وفيه : (غَلَبْن) مكان «عَزَزْنَ») ؛ والبداية والنهاية 229/10 (وفيه : «قَوِينَ» مكان «عَزَزْنَ») ؛ والزهرة ص 564 وفيه : («قوين» مكان «عَزَزْنَ») ؛ وتاريخ بغداد 12/14 (وفيه «قوين» مكان «عززن») ؛ الآداب العربية ص 86 ؛ وديوان الصبابة ص 52 (وفيه «قوين» مكان «عززن») ؛ والملوك الشعراء ص 8 ؛ والورقة ص 18 (وفيه «غلبن» مكان «عززن») . والعقد الفريد 46/6 (وفيه «قوين» مكان «عززْن») ؛ وحدائق الأزاهر ص 419 (وفيه «قوين» مكان «عززن») .

[41]

كان الرشيد يتبادل الرسائل الشعريّة مع وزرائه ، ومنها هذه الزسالة التي أرسلها إلى جعفر بن يحيى : [من الخفيف]

1 سَلْ عن الصَّارمِ ، ابن يَحْيى راحلاً نَحْوَنا من النَّهْرَوانِ
2 ليَصُونَ المُدام سُهْداً ويَغْشى الهَجْرَ بين الأَصْواتِ والعيدانِ
3 فَأْتِنا نَصْطبحْ ونلتذَّ جميعاً لثلاثٍ بقينَ من شَعْبانِ

[42]

صَعِد الرشيد يوماً على بعض سطوح قصره ، فرأى جاريةً عريانة ، فلم يزل يديم النظر إليها ، وهي تغتسل ، حتى التفتت فنظرت إليه ، فلمّا رأته سترت فرجها بيدها ، ونزلت عن السطح الذي كانت عليه ، ونزل الرشيد ، فقال : عليّ بأبي نواس ، فجيء به ، فلمّا دخل قال له : قُلْ على بَيْتٍ قلته ، قال : قل يا أمير المؤمنين ، كيف قلت ؟ فقال الرشيد : [من مجزوء الرمل]

1 نَظَرَتْ عَيْني لِحَيْني نَظَراً وافَقَ شَيْنِي

فقال أبو نواس :

سَتَرَتْهُ إذْ رَأَتْني بَيْن طيِّ العُكْنَتَيْن
فَبَدَتْ مِنْهُ فُضُولٌ ما تَوارَى باليَدَيْن

* * *

41 (1) غرر الخصائص الواضحة ص 441 .
42 (1) الأغاني 155/25 .

قافية الواو

[43]

يذكر الشابشتي للرشيد : [من السريع]

1 صيَّرني الحُبُّ إلى ما تَرى   أَنحلَ جسمي ولقلبي كوى

2 قد كتبَ الحُبُّ على جَبهتي   هذا قتيلٌ في سبيل الهوى

* * *

....

43 (1–2) الديارات ص 226 .

قافية الياء

[44]

جاء في العقد الفريد 6/409[1] :

قعد الرشيدُ يوماً عند زبيدة ، وعندها جواريها ، فنظر إلى جارية واقفة عند رأسها ، فأشار إليها أن تقبِّله ، فاعتلَّتْ بشَفَتَيها ، فدعا بدواة وقرطاس ، فوقَّع فيه : [من مجزوء المنسرح]

1 قَبَّلْتُهُ مِنْ بعيدٍ فاعْتَلَّ مِنْ شَفَتَيْهِ

ثم ناولها القرطاس ، فوقَّعتْ فيه :

فما بَرِحتُ مكاني حتَّى وثبتُ عَليهِ

فلمّا قرأ ما كتَبَتْ استوهَبَها من زُبيدة ، فوهبتها له . فمضى بها ، وأقام معها أسبوعاً لا يُدرى مكانهما ، فكتبتْ إليه زبيدة :

وعاشِقٍ صَبٍّ بمَعْشُوقِهِ كأنَّما قَلباهُما قَلْبُ

1 في الأمالي ج1 ص 225 وتاريخ بغداد ج10 ص 185 نجد المأمون بطل الحادثة يغمز الجارية من خلف أبيه فتعتلّ بشفتيها فيتنبّه الرشيد ويستنطق المأمون فيعترف خائفاً . فيهبه الجارية ويطلب منه الدخول بها . ثم يطلب منه شعراً في الحادثة فيقول :

ظبيٌ كتبتُ بطَرفي من الضميرِ إليهِ
قبّلتُهُ من بعيدٍ فاعتلَّ من شفتَيهِ
وردّ أخبث ردٍّ بالكسرِ من حاجبيهِ
فما برِحتُ مكاني حتى وثبتُ عليهِ

روحاهما روحٌ ونَفْساهما نَفْسٌ ، كذا فَلْيَكُنِ الحُبُّ

[45]

يقول الكتبي : «كان الرشيد يعرف ، بالفراسة ، ما يجري بين الأمين والمأمون .
فكان ينشد : [من الطويل]

1 مُحَمَّدُ ، لا تُبْغِضْ أخـاكَ فإنّه يَعودُ عليك البَغْيُ ، إن كنتَ باغيا
2 فلا تعجلا ، فالدّهرُ فيهِ كفايةٌ ، إذا مالَ بالأقوامِ ، لم يُبقِ باقيا

45 (1-2) فوات الوفيات ج2 ص 269 .

شخصيته الأدبية

الفصل الأوّل

المظاهر الأدبيّة عند الرشيد

1 ـ تمهيد : الرشيد الأديب

إن الحديث عن المظاهر الأدبيّة حول الرشيد يحتّم علينا إبراز الجوانب الواضحة والخفيّة في شخصيّة الرشيد التي تحلّق حولها جميع ما أُنتج من أدب في بلاطه . ولكي نستطيع الإحاطة بهذا الموضوع الواسع المتشعّب ، اتّساع حياة الرشيد وتشعّبها ، لا بدّ من تجزئةٍ له ، تسهيلاً للدّراسة . فنبدأ ، قبل أيّ شيء آخر ، بالإشارة إلى أمرين مُهمّين : أوّلهما أنّ الرشيد كان مثقّفاً ثقافة أدبية واسعة . فقد حفظ القرآن وتمعّن في آياته ، وروى الأحاديث ، واختزن في ذهنه الأبيات والقصائد من الشعر ، والروايات لها والتعليقات عليها ، لا يفرّق في ذلك بين قديم الشعر وحديثه .

وثاني الأمرين أنّ الرشيد كان أديباً أكثر منه متأدّباً . فلقد مارسَ العمل الأدبيّ في جميع مظاهره المعروفة في أيّامه : أحيا مجالسَ الفقه واللغة ، نظم الشعر الرقيق وألقى الخطب وأنشأ الكتب والرسائل ، كما صدرت عنه الإجاباتُ البليغة والأقوال المأثورة . وأبرزُ ملامح هذه الشخصيّة الأدبيّة تجلّت ، فضلاً عن المجالس الأدبيّة التي يأتي الحديث عنها ، في التمثّل الشعريّ ، سواء منه الفرديّ ، أو المتبادل مع الجلساء ، وفي استنشاد الأبيات والقصائد طلباً للمتعة الأدبية ، وفي الاستجابة للأدب كمُثيرٍ للكثير من الأحاسيس والانفعالات ، وفي تشجيعٍ لا حدود له للأدب والعلم .

2 ـ رواية الشعر والتمثّل به

كان الرشيد يجد ، في كلّ مناسبة ، بيتاً شعريّاً أو أبياتاً يتمثّل بها فتعبِّرُ عن واقعه النفسيّ أو تحملُ أغراضه . وهذا ما تبارى المؤلّفون في روايته عنه . فإذا ما انتابه الحزنُ الهائل لِموتِ والدته يجد ، بعد أنْ وسّدها الثرى ، مُتنفَّساً له في أبيـات مُتمِّم بن نُوَيرة ، فيتمثّل بها طالباً العزاء[1] . وإذا أعجبه شعر النَّمريّ في زوال الشّباب ولمس في نفسه حسرة شبيهة بحسرة الشاعر ، تمثّل بيتين يحفظهما في المعنى نفسه[2] . وإذا أُعجب بفطنة المأمون وشعَر بنشوةِ الفخر بالولد ، وجد بيتاً من الشعر يعبّر عن الخير الكبير الذي كان يتوسّمه فيه[3] . وحين اعتزم قتل جعفر البرمكي تمثّل ببيت اللعين المنقري[4] ، ثم قتله ، متمثلاً على عقوقه[5] وإذا رأى مظاهر الأسى العام على التنكيل بالبرامكة تمثّل مؤكّداً حتمية ما جرى لهم[6] . ثم يحسّ ببعض الندم وبالفراغ الكبير الذي خلّفوه فيتمثّل ببيت للحطيئة[7] . وفي مناسبات كثيرة أُخرى ، سياسيّة أو عائليّة ، يجد الرشيد أبياتاً في متناوله يستشهد بها ، كما فعل إذ لام سليمان بن أبي جعفر الهاشمي على هروبه من أهل الشام حين كان والياً عليهم ، وأظهر لـه استياءه وخيبة أمله بينما مروان خرج ، في ظروف مماثلة ، مصلّتاً السيف متمثّلاً ببيت للجحاف بن حكيم[8] . وكما فعل حين استشعر الغدر

1 النجوم الزاهرة ج2 ص 73 (والقصيدة كاملة في جمهرة أشعار العرب ص 292) .

2 أتأمل رحبة الدنيا سفاها . . (زهر الآداب ج3 ص 668) .

3 وأنت امرؤ يُرجى لخير وإنما . . . (ياقوت المستعصمي ، أسرار الحكماء ص 107) .

4 وما بُقياً عليّ تركتماني . . . (البغدادي ، خزانة الأدب ج2 ص 344) .

5 من لم يؤدّبْهُ الجميلُ . . . (الإمامة والسياسة ج2 ص 167) .

6 إذا بدتْ للنملِ أجنحةٌ . . . (مروج الذهب ج3 ص 297) .

7 الجهشياري ، الوزراء والكتّاب ص 258 . (أقِلّوا علينا ، لا أباً لأبيكُم ، من اللومِ أو سُدُّوا المكان الذي سَدّوا) .

8 العقد الفريد ج4 ص 214 .

متقلديـن صفائحـاً هنديّـةً ـــــ يترُكْنَ من ضَربوا كمنْ لم يولد

من بعض بني العباس فأنشد أبيات عبد الله بن جعفر العلوي[1] وكذلك فعل حين صمّم على عقد ولايات العهد[2] . ومن جميل استشهاداته ، حين عرض له أعرابيان ومدحاه فأبدع أحدهما بينما قصّر الآخر ، إنشادُه بيت ربيعة الرقي :

لَشتّانَ ما بينَ اليزيدينِ في الندى ، يزيـدِ سُليمٍ والأغـرِّ ابنِ حاتمِ[3]

وحين مدحه أعرابي فلم يعجبه مدحه ، لامه ألاّ يقول فيه كما قال مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة[4] . وظلّت هذه الرغبة في التمثّل والإنشاد تلازمه ملازمة ثقافته وذاكرته الشعريّة حتى لحظة مماته ، كما يزعمون . فيذهب ابن الأثير إلى أنّه ، حين أحسّ بدنوّ أجله ، راح يتمثّل منشداً :

أَحينَ دنا ما كُنتُ أرجـو دُنُـوَّهُ رَمتني عيونُ الناسِ من كل جانبِ ![5]

(الأبيات)

وأنّه حين كان يجود بنفسه ، راح يتشدّد متمثّلاً :

وإنّيَ مـن قـومٍ كِـرامٍ يَزيدُهمْ شِماساً وصبراً شِدّةُ الحَـدَثانِ[6]

ولا شكّ في أنّ ثقافة الرشيد الشعريّة ، التي تستطيع أن تمدّه بهذا الفيض من الاستشهادات في اللحظة المناسبة ، هي ثقافة لا يستهان بها . وقريب من مظهر التمثّل هذا ، تبادل التمثّل بالشعر ، وإن كان التبادل أبعد مرمًى وأوسع ميداناً لأنّه يفترض مبادرة يحفزها بعض التحدّي ، كما يفترض ثقافةً مماثلةً عند من يحيطون بالرشيد وعند

---

1 العقد الفريد ج2 ص 182 .

2 المسعودي – مروج الذهب – (دار الأندلس) ج3 ص 352 .
قَلَّد أمورَ عبادِ اللهِ ذا ثقـةٍ موحَّدَ الرأيِ ، لا نِكْسٌ ولا بَرِمِ

3 الأغاني ج16 ص 195 .

4 العقد الفريد ج5 ص 290 . والعمدة ج2 ص 113 .

5 ابن الأثير الكامل في التاريخ ج5 ص 130 .

6 المرجع السابق وسواء صحّت هذه الروايات ، أم لا ، فإنّ ورودها على لسان ثقة كابن الأثير يدلّ على ما بلغه حب الأدب عند الرشيد ، حتى يصدّق عنه خبر كهذا أو يُروى

من يتعامل إيّاهم ، وهذا يحملنا إلى وجه من وجوه أدب البلاط يقوم على اعتماد الشعر حجّةً على خصم ، أو تمهيداً أمام رغبة .

ومن أشهر هذه المبادلات ما قام بين الرشيد وزوجته زبيدة حول كاتبه أبي صالح وكاتبها سعدان[1] . ومنها ما دار بين الرشيد وظِئرِهِ أمّ جعفر بن يحيى بعد قتل ابنها وحبس زوجها . فقد جاءت إلى البلاط تشفع ليحيى وتُرقّ له قلب أمير المؤمنين في حديث طويل نورد منه فقط ما دار بينهما من استشهادات ، كما يرويها لنا ابن عبد ربّه . فالرشيد أراد أن يشير إلى حتميّة ما حصل وكونه أمراً مقدّراً لا مناص منه ولا رجوع عنه فقال :

وإذا المَنيَّةُ أَنشبتْ أظفارَها   ألفيتَ كُلَّ تَميمةٍ لا تَنفَعُ

فردّت عليه ، متنصّلةً من كونها تميمة ليحيى ، فالذي يشفع بزوجها أعمالُه ، واستشهدت بالبيت :

وإذا افتَقرتَ إلى الذّخائرِ لم تَجِدْ   ذُخراً يكونُ كَصالحِ الأعمالِ

هذا بعد قول الله عزّ وجلّ : ﴿والكاظمينَ الغيظَ ، والعافينَ عنِ النّاسِ ، واللهُ يحب المحسنين﴾ فأطرق هارون مليّاً ثم قال : «يا أُمّ الرشيد ، أقول :

إذا انصرفَتْ نفسي عنِ الشّيءِ لم تَكدْ   إليهِ ، بِوجهٍ ، آخِرَ الدهرِ ، تُقبِلُ

فردّت عليه مستشهدة :

سَتَقطعُ ، في الدنيا ، إذا ما قَطَعتَني ،   يَمينَكَ فانظرْ أيَّ كَفٍّ تَبدَّلُ . .[2]

---

1 الوزراء والكتّاب ص 256 .

2 العقد الفريد ج5 ص 63 وقد أوردنا الأبيات كما رصفها صاحب العقد . وإذا بدا فيها بعضُ الافتعال فالذي يفاجئنا فيه ليس بديهة الرشيد بل بديهة أم جعفر كما تصوّرها الحادثة . وقد تكون هذه المرأة على مستوى جيد من الثقافة ، فهي زوجة ليحيى وأُمٌّ لجعفر ، وكلاهما أديب مثقّف . وإذا كانت قد شاركت في إرضاع الرشيد وتأديبه ، فلا بد من أن تكون مميزة . ومع ذلك فمن الصعب الإقتناع بجميع التفاصيل التي وردت في الخبر .

ويروي لنا المرصفي موقف تبادل شعري بين الرشيد ورافع بن الليث الخارج عليه والهازم لجنده ، والذي اضطره للسير بنفسه في رحلة الموت إلى طوس . فقد دفع رافع كتاباً إلى الرشيد وكتب في أسفله :

إذا جِئتُ عاراً ، أو رَضيتُ بِذِلَّةٍ ، فنَفسي ، على نفسي ، مِنَ الكَلبِ ، أهْوَنُ

فكتب إليه الرشيد كتاباً وكتب في أسفله :

ورفعُكَ نَفْساً ، طالباً فوقَ قَدْرِها ، يَسوقُ لكَ الحَتْفَ المُعَجَّلَ والذُلاّ[1]

ويُظهر هذا التبادل ، إلى جانب الثقافة الشعريّة ، صفةً مميزةً للرشيد : إنّه يَثبُتُ للتحدّي ويكيل الصاع صاعين وأكثر .

3 ـ الاستنشاد

وهذا المظهر الأدبي بعيد عن الجدل والتحدّي ، يحفز إليه ميل واضح إلى المتعة الأدبيّة ، تأكيداً للواقع ، واقع أنّ الأدب ، من رواية ونظم ، كان بالنسبة إلى الرشيد غذاءً يُشبع الروح . وكأنّنا بالرشيد ، في حبّه للشعر ، يُشبه هواة الاستماع إلى الموسيقى : يطربون لها ويحنّون إلى سماعها ، لا يملّون إعادة ذلك وتكراره ، وينصتون إليها ، مع أنّ ألحانها متردّدة في أذهانهم ونفوسهم . فالرشيد في كلّ مناسبة ، وبلا مناسبة ، يطلب سماع الشعر ويحدّد الأبيات أو القصائد التي يريد أن تُلقى أمامه ، والتي يفرضها مزاجه في لحظته ، مع أنّه قد يكون أدرى بها . ولعلّه يترقّب ، دائماً ، من الراوي ، فائدة جديدة ممّا قد يكون دار حول الشعر المطلوب . أو كأنّه ينتظر من

---

1 الشيخ حسين المرصفي – الوسيلة الأدبيّة – ج2 ص 587 . إذا صحّ الخبر يكون تجشّم الرشيد الردَّ على عدوّه يحفزه الثباتُ في ميدان التحدّي ، ومحاولة لإثبات التفوّق . فكأنَّ رافعاً تحدّاه أدبيّاً ، في كتابه ، كما تحدّاه عسكريّاً بجيوشه . والرشيد قَبِل التحدي الأدبي ، كما قَبِل التحدّي العسكري ، فأرسل كتابه جواباً وذيّله باستشهاد اعتدَّه حجّة تلتهم حجّة عدوّه ، كما كان يتوقّع من جيوشه أن تبيد جيوش هذا العدوّ .

المنشد أن يعمّق في نفسه الاستجابة الشعوريّة لمعاني القصيدة بجودة إلقائه . لذا كان يطرب للإلقاء طَرَبَهُ للغناء الجيّد[1] ، ويعيّن منشداً خاصّاً[2] يلازم البلاط يلقي على مسامعه ما شاء من قصائد مرويّة ، أو يأخذ عن روّاد البلاط الجدد إلقاء قصائدهم ، ضمانة لحسن وقعها . . .

وكم من مرّة أحرج الرشيدُ جلساءه بطلبه سماع شعر لا يرويه أيٌّ منهم . وقد كان دوماً ، على الجلساء ، أن يظلّوا مستعدّين لقول شعر أو روايته أو ارتجاله حين تكون نفس الرشيد متعطّشة إليه . ونحن نعرض لبعض نماذج الاستنشاد . فمنها ما رواه القالي عن كثرة استنشاده ، الزبيرَ بنَ بكّار شعرَ عبدِ الله بنِ مُصعب :

وإنّي ، وإن قَصَّرتُ مِن غَيرِ بُغْضَةٍ ، لَراعٍ لأسبابِ المَوَدَّةِ ، حافظُ[3]

ومنها ما رواه الأصفهاني على لسان محمد البيدق (الراوية) : إنّ الرشيد قال له يوماً : «أنشِدْني مرثية مروان ابن أبي حفصة في معن بن زائدة التي يقول فيها :

كأنَّ الشمسَ ، يومَ أُصيبَ معنٌ ، مِنَ الإجْلالِ ، مُلْبَسةٌ جَلالا . . .

قال . فأنشدته إيّاها . ثم قال لي . أنشدني قصيدة أبي موسى التميمي في مرثية يزيد بن مزيد ، فهي والله أحبُّ إليَّ من هذه . فأنشدته .

أَحــقٌّ أَنَّــه أَودى يَزيــدُ ؟ تَبَيَّنْ ، أيُّهــا الناعــي ، المُشيدُ . . .

قال : فبكى هارون الرشيد . . .»[4] ويقول ابن الأثير[5] : «كان الرشيد إذا سمع

---

1 الأغاني ج18 ص 146 .

2 هو محمد البيدق . «كان رجلاً حسن الصوت ينشد الشعر فيُطرب بحسن صوته أشدّ من إطراب الغناء» الأغاني ج 18 ص 146) .

3 الأمالي ج1 ص 254 .

4 الأغاني ج19 ص 323 .

5 الكامل في التاريخ ج5 ص 111 .

هذه المرثية بكى . وكان يستجيدها ويستحسنها» .

وكان في نفسه ميل إلى الوليد بن يزيد ، على رغم عداوته التقليديّة للأمويين ؛ ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ الوليد مرّ بمحنة شبيهة بمحنته أثناء ولاية العهد ، كما أنّ الوليد شاعر مطبوع ظريف ، والرشيد يحبّ الظرفاء . لذا فقد سأل مروانَ بنَ أبي حفصة ، عند دخوله إليه ، أن ينشده شيئاً ممّا سمعه من شعر الوليد ، وطلب إليه أن يحدِّثه عنه دون حرج أو خوف . فأنشده شعراً «ذكر فيه هشاماً وتحامله عليه وما كان يريد من نقض أمر ولايته»[1] . وحين دخل إليه مسلمُ بن الوليد وراح ينشده أفضل أشعاره ، كان «كلّما فرغ من قصيدة ، قال له : التي تقول فيها : الوحل فإني رويتُها وأنا صغير . فأنشده شعره الذي أوّله :

أَدِيرا عَلَيَّ الكأسَ ، لا تَشْربا قَبْلي   ولاتطلُبا ، مِنْ عندِ قاتِلتي ، ذَحْلي . .[2]

«وركب الرشيد يوماً قبَّةً ، وسعيدُ بن سلمٍ معه في القبّة . فقال : أين محمد البَيذَق ؟ . . . فحضر . فقال : أنشدني قصيدة الجرجانيّ . فأنشده . فقال : الشعرُ في ربيعةَ ، سائرَ اليوم»[3] . ويتبادر إلى الذهن سؤال : ماذا يكون موقفُ الرشيد إذا طلب سماع شعر لا يرويه أيٌّ من جلسائه ؟ والجواب أنّه ، حينذاك ، يتوجّه إلى المنتظرين ببابه[4] . ويبدو لنا هنا أثر الرشيد الواضح في ترسيخ عادة رواية الشعر التي كانت دائماً معروفة في الأدب العربي .

4 ـ الاستجابة للمثير الأدبي

لعلّ الرشيد يساوي ، في حُبِّهِ للأدب والتشجيعِ عليه ، كثيرين من الخلفاء الأمويين والعبّاسيين . لكنّ هذا الحب ، عند الرشيد ، له نكهة خاصة : إنّ المتتبّع

---

1 الأغاني ج10 ص 84 .
2 العقد الفريد ج2 ص 181 .
3 الأغاني ج11 ص 146 .
4 الأغاني ج13 ص 16 .

لأخباره يحسّ أنّهُ مَلَكَ شِغافَ قلبه وملأ عليه حياته . ولو أنّنا استعرنا أسلوب علماء النفس والاجتماع في النظر إلى الأمور وتعليلها ، وإعادة المظاهر العديدة من السلوك إلى حافز رئيسٍ مولِّد ، لأمكننا الحديث عن ظاهرةٍ عند الرشيد يلعب فيها الأدب دورَ المثير ، وتكون الاستجابةُ له مختلفَ أنواع الأحاسيس المعروفة من عزاءٍ وسلوى ، إلى غيرةٍ ونقمةٍ ، إلى الشعور بالاسترخاء بعد التعب ، وبزوال الألم في حالة المرض . حتى الأحاسيس الجنسيّة كان الأدب مثيراً قويّاً لها عند الرشيد . ولا بدّ لنا من عرض بعض المواقف للدلالة على ما نذهب إليه .

أ ـ الإحساس بالقوة والنشاط

فكم من مرّةٍ لعِب الأدب في حياة الرشيد دور المرفّه في حالة التعب والمهدِّىء في حالة الغضب ، ومخفِّفٍ للألم حين يكون ألم . من ذلك ما رواه الأصمعيّ قال : «دخلتُ واسحقُ بن إبراهيم الموصليّ يوماً على الرشيد ، فرأيناه لَقِسَ النّفس . فأنشده إسحق :

وآمرةٍ بالبُخْلِ قلتُ لَهَا : اقصِري فذلكَ شيءٌ ما إليهِ سَبيلُ . . .[1]

(الأبيات)

فإذا تَعَبُ الرشيد ينقلب نشاطاً وحيويّة ، وتنشرح نفسه فيشرع في تقريظ أبيات إسحق حتى قال له هذا : وصفُك ، واللهِ يا أمير المؤمنين ، لِشِعري أحسنُ منه»[2] . وحين غضب الرشيد على عيسى بن جعفر أنشده الأصمعيّ بيتين من الشعر أعدّهما لمناسبة شبيهة «فتجلّى عنه»[3] . وحين قال للأصمعيّ : «يا عبد الملك أنا ضَجِر ، وقد جلستُ ، أُحبُّ أن أسمع حديثاً أتفرَّج به ، فحدِّثني بشيء» ، حدّثه الأصمعيّ بقصّة العاشق وهو

1 الأبيات موجودة في نهاية الأرب ج5 ص 7 وزهر الآداب ج4 ص 1041 ووفيات الأعيان ج1 ص 115 وتاريخ الخلفاء ص 348 والأغاني ج5 ص 292 .

2 الأغاني ج5 ص 292 .

3 تاريخ بغداد ج14 ص 9 وانظر ذيل الأمالي والنوادر للقالي ج1 ص 183 .

ابنُ ستٍّ وتسعين سنة وأنشده بعضَ الأشعار «فضحك الرشيد حتى استلقى»[1] . وحين سارّه مسرور شيئاً بحضور إبراهيم الموصليّ ، «فاستشاط غضباً واحمرّت عيناه وانتفخت أوداجه . .» وراح يهدد آل علي ، توسّل الموصليّ بشعرٍ غنّاه به وأعاده ، حتى استكان[2] . وحين كان الرشيد محموماً ، دخل عليه الأصمعيّ ، فقال له : «أنشِدني يا أصمعيّ ، شعراً مليحاً أرتضيه . . .»[3] وقد بلغ الأمر ، بتأثر الرشيد الأدبي ، أن يعزل والياً لأنّ شكوى قُدِّمت بِحقِّه قِيلت بأسلوبٍ بليغ . فقد انبرى له العمريُّ أثناء الحجّ ، يطلب منه عزل اسماعيل بن القاسم والي مكّة لأنّه «يقبل الرشوة ويُطيل النّشوة ويَضرب بالعَشْوة»[4] . وقد اعتدّ الرشيدُ عزلَ ابن القاسم مكافأةً للعمريّ على بلاغته .

ب ـ الإحساس بالغيرة

ذلك إذا صدَر الأدبُ عن منافس أو قريب له ، خطير . فهو ، كما يغار على حرمه أن تنظر إليها عيونُ الغرباء ، وكما يغار مِن إبراهيم الموصلّي أن تقصده جواري أخته عُلَيَّة بلحنٍ من ألحانها[5] ، فإنّه يغار من عبد الملك بن صالح في أقواله البليغة وأدبه الرفيع حين يسأله عن بلده منبج ، فيقول ، بعد وصفها بالحسن : «فكيف لا تكونُ كذلك وهي تربة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء . فَيافٍ فِيحٌ ، وجبال وضيح ، بين قيصوم وشِيحٍ» . ويروي المسعوديّ أنّ الرشيد ، حين سمع هذا الكلام ، التفت إلى الفضل بن الرّبيع فقال : «ضربُ السّياط أهون عليّ من هذا الكلام»[6] . ولا غرو في ذلك إذا كان عبد الملك مُتَّهماً ، في نظر الرّشيد ، بأنّه ينوي الخروج عليه والدّعوة لنفسه ، وقد حبسه وأبقاه في الحبس بقيّة أيّام حكمه .

---

1 تاريخ بغداد ج10 ص 413 .
2 الأغاني ج5 ص 204 .
3 الأغاني ج22 ص 377 .
4 زهر الآداب ج4 ص 1016 .
5 الأغاني ج5 ص 199 .
6 المسعودي – مروج الذهب – ج3 ص 309 .

ج ـ الأدب مثير للأحاسيس الجنسيّة

ومهما يبدُ هذا غريباً فإنّنا نعتدّه مظهراً متولِّداً عن التّرف الفكريّ الذي كان في أوجه أيّام الرشيد ، والذي نجم ، هو الآخر ، عن التّرف الماديّ . ولمزيد من الإيضاح نُذكّر بأنّ الامبراطوريّة العربية ، أيّام الرشيد ، كانت واسعة ، يتاخم حدودَها دولٌ وشعوبٌ كثيرة قامت بينها وبينهم علاقات من الغزو والصلح والحروب والردّات الانتقامية ، وكان يقع في الأسر ، من جرائها ، أعداد هائلة من سكّان هذه الدول يُساقون إلى بغداد وغيرها ، يباعون عبيداً وجواري . ولسنا بصدد تعداد أنواع هؤلاء الأسرى وما تميّز به كل عِرقٍ منهم ، فقد كثر الحديث في هذا المضمار منذ الجاحظ ، ولكننا نريد أن نلفت النظر إلى أنّ تجربة هذه الأنواع واكتشاف هذه الميزات ، هي بالذات بعض مظاهر الترف الناجمة عن التخمة .

فالمرء العاديّ جُلُّ همّه أن يشتري جارية تخدمه وتُشبع حاجاته المادية . فإذا غدا أكثر مالاً تعدّدت جواريه فجرّب الأجناس والألوان منها وخَبِر ميزاتها ؛ أمّا إذا تكاثرت عليه النعمة وعَمَر بيتَه آلافُ الجواري[1] ، فهو حينذاك لا يعود يبحث عن جمال مادي أو ميزة عرقيّة ، بل يبحث عن ميزة إنسانيّة مجرّدة ، عن ذكاء وظرف ، عن مرح ، عن صوت جميل يكون محور ليالي السمر والطرب . حتى هذه الميزات تنتهي بأن تورث الضجر والملل وتحدو إلى البحث عن النادر ، وأحياناً عن الشاذ . ومن هذا الشاذ قلب المقاييس العرفيّة وابتكار فنون من المتعة الحسيّة لدى غلمان مخنّثين ، وبالمقابل ، استكناه متعة أدبيّة لدى جوار ما كنّ يُستخدمْن إلاّ لمتعة الحسّ والنظر والسمع .

فالجواري الأديبات قد يكنّ وجدنَ في العصور السابقة ، إنّما متفرّقات . أمّا تطلّب

---

1 ذُكر أنّ محمد بن سليمان الهاشمي ، على سبيل المثال ، ملك خمسين ألف عبد منهم عشرون ألفاً عتقا (النجوم الزاهرة) ج2 ص 74) وكان يزيد بن مزيد قائد جيوش الرشيد «صاحب وصائف» . قيل له ما السرور ؟ قال قبلة على غفلة «العقد الفريد ج6 ص 220 .

الرواية والأدب وقرض الشعر من الجارية التي تبتاع[1] – وأحياناً الحديث والفقه – فقد كان طابع عصر الرشيد بالذات[2] ، ومنه كان منطلقه إلى حقب التاريخ . ولكن العصر ، لكي يحقّق ذلك ، كان عليه أن ينجب عباقرة من آل الموصلّي وغيرهم ألّموا بكل لون من ألوان المعرفة ، إلى جانب إتقانهم فن الغناء ، ورأوا بثاقب بصيرتهم ما يمكن أن يجنوه ، لا من تجارة الرقيق ، إنّما من الرقي بالجواري ، من حثالة رخيصة ، إلى فئة إنسانيّة مرفهة ، حتى كثرت الجواري الأديبات الفنانات ، وانفردت بعض منهنّ في دُورٍ لهنّ فتحنها لألاّفهنّ الذين جاؤوا يطلبون عندهنّ ترفيهاً أو سلوى وعزاء . ونستطيع أن نؤكّد أنّ بعض هذه الدور كانت «صالونات» أدبيّة فعليّة سبقت «صالونات» النساء النبيلات التي عرفتها أوروبا في القرن السادس عشر ، وكانت مرتعاً للأدباء ومُرتاداً لهم يدخلون إليها ، بلا قيود ، ويطلقون فيها أدبهم على سجيّته : لا شروط مدرسيّة ولا شروط اجتماعيّة أو طبقيّة ، بل ظروف إنسانيّة حقيقيّة يكون فيها الشاعر الرجل أمام المرأة الشاعرة ، وتقوم مناظرات بين طاقاتها الأدبيّة وطاقاته ، يحلّقان تارة حتى يلامسا الأدب العذري ، ويسفّان أُخرى حتى يتمرّغا في الأدب المكشوف . وهذا كلّه مظهر إنساني تطوّريّ طبيعيّ ، عرفه العصر .

أما ما تميّز به الرشيد ، وما جعله يتربّع على قمّة التّرف الفكري ، فهو أنّه اتّخذ المقياس الأدبي قولاً فصلاً في اختيار الجارية التي عليها إشباع حاجاته الجسديّة . من هنا ما نشير إليه من أنّ الأدب يشكّل مثيراً لأحاسيس الرشيد الجنسيّة . ويلجأ الرشيد أحياناً إلى «لجنة فاحصة» تجري امتحاناً أدبيّاً للجارية التي تنام معه لليلته[3] ، أمّا إذا

---

1 انظر جبور عبد النور في كتاب «الجواري» ص 61 وما بعدها .

2 يقول الدكتور عبد النور . «وهارون الرشيد هو أوّل من غالى من العبّاسيين في تفضيل الجواري ، فإنّ معظم أولاده كانوا من أبناء إماء» (الجواري ص 84) .

3 يروي البغدادي عن الأصمعي أنّ الرشيد الموجود في الرقّة استدعاه من بغداد بأمر صادر عن الفضل بين الربيع نفّذه الأمين . وقد تلقّاه الفضل في الرّقّة وأبقاه ثلاثة أيّام لا يتركه يتّصل بأحد ، وبعد ذلك يقول الأصمعيّ : «فأدخلني على الرشيد وهو جالس متفرّد . فسلّمت =

كان الرشيد هو الذي يفاضل فإنّ الامتحان يتحوّل إلى مناظرة أدبيّة فقهيّة يحمى فيها وطيس التنافس لأنّ الجائزة هي نصف سرير الرشيد . وقد نعجب ، لأوّل وهلة ، من هذه المنافسة ، ولكن عجبنا يزول إذا عرفنا أنّ هذه الطريق سلكتها غير جارية لتصبح أمّ ولد من أولاد أمير المؤمنين ، بل أُمّ خليفة للمسلمين .

ولا بأس بعرض مناظرة فرضها الرشيد وحَكَمها حين وجد نفسه بين جاريتين وقد اقترب موعد انسحابه إلى فراشه فسألهما : «من يبيت عندي هذه الليلة منكما» ؟ وهنا كان سباق في الجواب : «أنا» «لا بل أنا» . ولعلّ سؤال الرشيد لهما كان نافلاً ، لأنّه يعرف في صميمه أنّ أيّاً منهما لن تتنازل عن فرصتها إلاّ مرغمة . وتفتّق ذهن الرشيد عن مناظرة : لتُدْلِ كلٌّ واحدة منهما بحجّة . فتوجَّه إلى الأولى : ما حجّتك فيما ادّعيت ؟ قالت : قول الله ، يا أمير المؤمنين / والسابقون السابقون أولئك المقرَّبون / ثم قال للثانية : وما حجّتك أنت ؟ قالت : قول الله / وللآخرة خيرٌ لك من الأولى /» . فطرب الرشيد وانتشى . لكن التوسّل بكلام الله لم يضع حدّاً فاصلاً للمناقشة . فكلتاهما كانتا على حقّ .

= فاستدناني . . . وقال لي : يا عبد الملك ، وجّهتُ إليك بسبب جاريتين أُهدِيتا إليّ وقد أخذَتا طرفاً من الأدب ، أحببتُ أن تُبوّر ما عندهما وتشير عليّ فيهما بما هو الصواب عندك . ثم قال : ليُمضَ إلى عاتِكة فيقال لها : أحضري الجاريتين . فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط . فقلت لأجلِّهما : ما اسمك ؟ قالت : فلانة . قلت : ما عندك من العلم ؟ قالت . ما أمر الله به في كتابه ثم ما ينظر الناس فيه من الأشعار والآداب والأخبار . فسألتها عن حروف من القرآن فأجابتني كأنها تقرأ الجواب من كتاب . وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصّرت . فقلت : بارك الله فيك فما قصّرتِ في جوابي في كل فن أخذتِ فيه ؛ فإن كنتِ تقرضين الشعر فأنشدينا شيئاً . فاندفعت في هذا الشعر :

يا غياثَ البلادِ في كلِّ مَحْلٍ ما يُريدُ العبادُ إلاّ رضاكَ
لا ، ومن شَرَّفَ الإمامَ وأعلى ، ما أطاعَ الإلهَ عبدٌ عَصاكا

ومرّت في الشعر إلى آخره . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيتُ امرأة في مسك رجل مثلها . وقالت الأُخرى ، فوجدتها دونها . . . فقال : يا عبّاسيّ . ليُرَدّا إلى عاتكة ويقال لها : تصنعُ هذه التي وصفها بالكمال لتُحمل إليّ الليلة (تاريخ بغداد ج10 ص 411) .

بقي الأدب إذن : «لتقل كل واحدة منكما شعراً في الغزل . فمن كانت أرقّ شعراً باتت عندي . فقالت الأولى :

أنا التي أمشي كما يَمشي الوَجِي يكـادُ أن يَصرَعَني تَغَنُّجي
مِن جَنّةِ الفردوسِ كان مَخرجي

وقالت الأُخرى :

أنا التي لم يرَ مثلي بشرُ كلاميَ اللؤلؤُ حينَ يُنثَرُ
أَسْحرُ من شئتُ ولستُ أُسحَرُ لو سَمِعُ الناسُ كلامي كَفَّروا[1]

ولم يكن الأدب أوفر حظّاً في الامتحان . واستمرّت حَيرةُ الرشيد ، لكنّه ما لبث أن وجد الحلّ المثالي لمناظرة يتعادل فيها الفريقان فقال : «قد أحسنتُما وأجدتُما وما لِواحدةٍ منكما فضيلةٌ على صاحبتها . ولكنّي أبيتُ بينكما»[2] .

وإن كانت هاتان الجاريتان قد تنافستا وتعادلتا فإنّهما لم تلامسا ، فيما قالتاه ، غرائزَ الرشيد مباشرةً ، كما فعلت جارية أُخرى ماجنة[3] إذ عارضت بيت شعر لإسحق في وصف طبق ورد وتعرضت للرشيد مشيرة إلى الفعل الجنسي الذي تتوقّعه منه . فلم يتمالك الخليفة نفسه ، بل صرف إسحق ليخلو بها قائلاً : «قم يا إسحق فقد حرّكتني هذه الفاسقة»[4] . و«فاسقة» أُخرى حرّكت الرشيد بحضور زبيدة . فقد «قعد الرشيد يوماً عند زبيدة ، ومعها جواريها . فنظر إلى جارية واقفة عند رأسها . فأشار إليها أن تقبّله ، فاعتلت بشفتيها . فدعا بدواة وقرطاس فوقّع فيه :

قبّلتُه مِنْ بعيدٍ فاعتلّ مِنْ شَفَتيهِ

1 كفّروا : أظهروا التعظيم والإجلال .
2 العقد الفريد ج6 ص 403 .
3 المرجع السابق .
4 المرجع السابق .

ثم ناولها القرطاس فوقّعت فيه :

فَمَا برحتُ مَكاني حتى وثبتُ عليهِ

فلمّا قرأ ما كتبت استوهبها زبيدة فوهبتها له فمضى وأقام معها اسبوعاً لا يُدرى مكانهُما»[1] .

وقد عرفت جواري الرشيد ميله إلى الأدب[2] فرُحن يخترعن للإثارة الأدبيّة فنوناً وفنوناً . فبعضهنّ جعلن من القول البليغ أو الشعر الغزل حِليةً كسائر الحليّ تُزيَّن بها العصائبُ والثيابُ مثلما تُزيَّن بالوشي والقصب والجوهر[3] . وبعضهن جعلنَ من

---

1 العقد الفريد ج6 ص 409 ويروي القالي البيتين مع بيتين آخرين عن المأمون إذ طلب الرشيد منه شعراً في جارية وهبه إيّاها بعد أن غمزها . الأمالي ج1 ص 225 .

2 يروي ابن الجوزي عن الأصمعي خبر جارية عُرضت على الرشيد . فتأمّلها ثم قال لصاحبها : «خذ جاريتك ، فلولا كَلَفٌ في وجهها وخَنَس في أنفها لاشتريتُها» إلاّ أنّ الجارية ابتدرت الرشيد منشدة :

ما سَلِمَ الظبيُ على حُسنِهِ كلا ولا البدرُ الذي يُوصفُ
الظبيُ فيه خَنَسٌ بَيِّنٌ والبدرُ فيه كَلَفٌ يُعرَفُ

«فأعجبته بلاغتها فاشتراها وقرَّب منزلتها ، وكانت أحظى الجواري عنده» الأذكياء ص 217 . (والتكلّف واضح في هذا الخبر) .

3 ذكر ابن عبد ربّه بالسند عن الأصمعي : «رأيت على باب الرشيد وصائف على عصابة كل واحدة منهن مكتوب :

نحنُ حُورٌ نَواعِمٌ مِن أراضٍ مُقَدَّسَةْ
أحسنَ اللهُ رزقَنا ليسَ فينا مُنَخَّسةْ
فاتّقِ اللهَ يا فتى لا تَدَعْني مُوَسْوَسَةْ

العقد الفريد ج6 ص 429 .

ويروي ابن عبد ربه عن أبي الحسن قوله : «دخلتُ على هارون الرشيد وعلى رأسه جوارٍ كالتماثيل . فرأيت عصابة منظّمة بالدرّ والياقوت ، مكتوباً عليها في صفائح الذهب :

ظَلمتَني في الحُبّ يا ظالمُ واللهُ فيما بيننا الحاكمُ

الشِّعر هديّةً تُهدى تعبيراً عن إعجاب ولفتاً للنظر ، تحملها تفاحة سرقت حمرة الخدود وخُطّت عليها الكلمات بغالية فعبقت بالطيب[1] ، أو يحملها رسول يخبّ الأرض إلى الرشيد البعيد . كما فعلت ماردة التي أرسل إليها الرشيد في دير زكّا شعراً يذكر حبّه وكتمانه فأجابته بشعر صنعه الشطرنجي بإرشادها . فما أن قرأ الرشيد كتابها حتى أنفذ من وقته خادماً على البريد حَدَرها إلى بغداد في الفرات[2] ، تعبيراً عن استجابته الفورية لإثارتها الأدبيّة .

وهنا لا بدّ من سؤال يتبادر إلى الذهن : تُرى ، أَوَعى رواة أخبار الرشيد هذه الناحية من مشاعره فلوّنوا أخبارهم بها وركّزوا على الفقرات المبرزة لاستجابته إلى هذا النوع من الإثارة ؟ أم أنّ هذا المظهر كان من الوضوح لديه بدرجة لم يمكنهم معها تجاهله ؟ والجواب في الحالين سواء إذ أنّه يتضمّن دائماً هذه الحقيقة : إنّ الرشيد ، الذي عاش في ترف ماديّ ونفسيّ وفكريّ ، كان مشهوراً بكثرة معاشرته للنساء ، نسائه وجواريه . وأنّ ترفه الفكريّ كان يرقى بالحاجة الجنسيّة أحياناً ليؤجّجها بالفكر قبل أن يطفىء سعيرها بلقاء الجسد . ونحن رأينا ذلك مع الجواري فما هو الموقف من زبيدة ؟

الواقع إنّ زبيدة ، الزوجة الشرعية التي يحبّها ويكرمها ، أدركت أيضاً ما للشعر من سلطان عليه فراحت تستخدم هذه الإثارة في كلّ مرّة تحس أنّه ابتعد كثيراً عنها

= قال : ورأيت في عصابة أُخرى :

ما لي رَميت فلم تُصِبْكَ سِهامي   ورَمَيْتَنـي فأَصَبْتَني يا رامـي ؟

قال : ورأيت في عصابةٍ أُخرى : «وَضْعُ الخدّ للهوى عِزّ» قال : ورأيت في صدر أُخرى هلالاً مكتوباً عليه :

أَفْلَـتُ مـن حُـورِ الجِنـانِ   وخُلِقْـتُ فِتنـةَ مَـن يَرانـي

(العقد الفريد ج6 ص 406) .

1 مروج الذهب ج3 ص 285 .

2 الأغاني ج22 ص 52 والديارات ص 225 . وراجع ص 219 .

وأن الأوان قد آن لتبرز في مجال الرؤيا وتجتذبه إلى عشّ الزوجيّة ، متذرّعة بالأدب ، عوضاً عن الدّلال ، وهو أسلوب ابتذلته الجواري وسيلة للجلب والإغراء . هكذا ، حين ابتعد عنها وأطال المقام في الرَّقّة التي كان يستطيبها ، وصممت على إقناعه بالعودة إلى بغداد ، انتضت سلاح الأدب ليقوم مقام اللحاظ يذكّر بها ويثير الشوق إليها ، فقالت للشعراء : «مَنْ وَصَفَ مدينة السلام وطيبها في أبيات يشوّق أمير المؤمنين إليها ، أغنيته» . فقال في ذلك جماعة منهم منصور النمري . فوقعت أبياته ، من جميع ما قالوا ، وانحدر الرشيد إلى بغداد[1] . وهي ، إذ ينصرف عنها إلى جارية جديدة في البلاط يمنحها كل ما يطلبه الجديد من اهتمام منشغلاً عن قديمه كلّه ، تلجأ إلى أخته عُليّة تنظم شعراً وتلحّنه ثم تلقّنه إلى ألفي جارية من جواريها تُسيّرهنّ إليه فيقوم الرشيد على رجليه سروراً ، يستقبل زبيدة وعُليّة ويتوجّه إلى مسرور : «لا تُبقِيَنَّ في بيت المال درهماً إلاّ نثرته»[2] ، ويؤوب إلى حليلته .

أمّا حين يتخاصم الرشيد وزبيدة ، ويقف العُند بينهما سدّاً منيعاً فإنّ شعراً يسمعه عفواً يدفعه إليها نَشِطاً معتذراً . ففي حالة كهذه سمع الرشيد غناءً للزبير بن دحمان في شعر للعبّاس بن الأحنف . فأحضرهما وأبقاهما عنده إلى الفجر يغنّيه الزبير ويُنشده العبّاس .

جَرَى السَّيلُ فاستبكانيَ السَّيلُ إذ جرى … وفاضتْ لـهُ مِـنْ مُقلتيَّ غُروبُ
ومـا ذاك إلاّ حـينَ خبِّرتُ أنّهُ … يَمُـرُّ بـوادٍ أنـت منـهُ قَريبُ
يَكونُ أُجاجاً دونكُمْ ، فإذا انتهى … إليكُـم تَلَقّـى طِيبَكـم فَيطيبُ

1 ابن المعتز – طبقات الشعراء ص 246 ويروي البغدادي الخبر نفسه تاريخ بغداد ج1 ص51 . ومن أبيات النمري :

مـاذا بِبغدادَ مـن طيبِ أفانـينِ … ومن عجائـبَ للدنيا وللدّيـنِ
إذا الصَّبا نَفَحتْ ، والليلُ معتكِرٌ … تحرَّشتْ بين أغصان الرَّياحـينِ

2 الأغاني ج10 ص 180 ونهاية الأرب ج4 ص 209 .

فيا ساكِنِي شرقيٍّ دِجلةَ كلُّكُمْ إلى القلبِ ، من أجلِ الحبيبِ ، حَبيبُ

حتى أصبح وقام ، فدخل إلى أُمّ جعفر[1] .

5 ـ استخدام الرشيد للمثير الأدبي

وفي هذا الاتّجاه تهمّنا الأخبار التي تصوّر الرشيد متزوِّداً ببيتٍ أو أبيات من الشِّعر وداخلاً إلى قصر الحرم . وأكثر الأحيان يكون موضوعُ الشعر عتابَ المحبوب لمحبوبه أو تألُّم المحبِّ العاتب ، أو تجاوزَ المظلوم عن ظُلم المحبوب . ويستوقفنا ما رواه إسحق بن إبراهيم الموصلّي إذ قال : «دخلت على الرشيد يوماً فقال لي : يا إسحق ، أنشِدْني أحسن ما تعرف من عِتاب محبٍّ وهو ظالمٌ مُتَعَتِّب . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قولُ جميل :

رِدِ الماءَ ما جاءَتْ بصفوٍ ذَنائِبُهْ ودَعْهُ ، إذا خِيضَتْ بِطَرْقٍ مَشارِبُهْ

ومِنْ لَذَّةِ الدُّنيا ، وإنْ كنتَ ظالماً ، عِناقُكَ مَظلوماً وأنْتَ تُعاتِبُهْ

فقال : أحسن والله ، أعِدْها عليّ . فأعدتها حتى حفظها ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم . وتركني وقام **فدخل إلى دار الحرم**[2] . ونحن لا نعرف نتيجة هذه القصة لأنّها تنتهي في مكان محظور على الفضوليين . ولكن الإشارة إلى حفظ الرشيد للأبيات ، ثم قيامه إلى الحرم قبل أن ينساها ، دليل على قصة عتب وغنج مع إحدى المحظيّات ، قصة أدركها الصّباح فتوقّفت ، وأراد الرشيد لها أن تُستأنف واختار مثيراً ، فكان أبيات الشعر . ونستطيع أن نفهم ، أكثر ، فعلَ هذا النوع من الشعر إذا تابعنا القصة التالية ، بين الرشيد وماردة . فقد استدعى يحيى بن خالد العبّاسَ بن الأحنف وقال له : «إنّي أخبرك أنّ ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين ، وأنّه جرى بينهما عتب . فهي ، بدالّة المعشوق تأبى أن تعتذر ، وهو ، بعزّ الخلافة وشرف الملك ، يأبى ذلك . وقد رُمت الأمر من قِبَلها فأعياني ، وهو أحرى أن تستفزّه الصّبابة . فقل شعراً يسهّل عليه هذه السبيل» . وقد أدرك يحيى بحنكته أنّ الشعر هو أفضل رسول بين العشّاق . فأقام

---

1 الأغاني ج8 ص 229 .

2 الأغاني ج8 ص 147 .

العبّاسَ في القصر وتركه يقلّب القوافي والمعاني ، وهو يستحثّه بين الفينة والفينة ، حتى أتى بهذه الأبيات .

العاشقانِ كِلاهُما مُتغضِّبُ　　وكلاهما مُتَوحِّدٌ مُتَعتِّبُ
راجعْ أحِبَّتَك الذينَ هَجَرتَهمْ　　إن المُتَيَّمَ قَلَّما يَتجَنَّبُ
إنّ التَجَنُّبَ ، إنْ تَطاولَ منكُما ،　　دَبَّ السُّلُوُّ فَعَزَّ منهُ المَطْلَبُ[1]

فأخذ يحيى الأبيات ودفعها إلى الرشيد فعملت فيه عمل السحر . فهرون الذي امتلأ بعنجهية الملك وجافى مجافاة الكرامة ، ورفض كلّ تدخّل وأيّة مراجعة لموقفه ، نسي كل ذلك أمام إغراء هذه الأبيات ، «استغرب ضحكاً» . ثم قال : «أي والله أراجع على رغم . يا غلام ، هات نعليّ» . إلى هنا كانت الأبيات مثيراً للرشيد . بقي أن نتتبّع القصة لنرى كيف كان وقعها على المحظية . وفي هذه المرّة يأتينا بالخبر العبّاسُ نفسه ، الذي أحسّ بالظُّلم والقهر . فقد انتُزع من منزله وقال ما قاله بانتظار ثواب لم ينلْه لأنّ الرشيد ، حين نهض ، أذْهله السرور « عن أنْ يأمر له بشيء» ، فبقي في مكانه مترقّباً هذا «الشيء» . ولم يطل به الأمر ، إذ جاء رسولٌ يُسارُّ يحيى . فالتفت هذا إلى العبّاس : «أتدري ما سارّني به هذا الرسول ؟ قال : لا . فقال : ذكر لي أنّ ماردة تلقّت أمير المؤمنين ، لما علمت بمجيئه ، ثم قالت له : يا أمير المؤمنين ، كيف كان هذا ؟ فأعطاها الشعر وقال : هذا الذي أتى بي إليك . قالت : فمن يقوله ؟ قال : العبّاس بن الأحنف . قالت : فبم كوفىء ؟ قال : ما فعلت شيئاً بعد . قالت : «إذاً والله ، لا أجلس حتى يكافأ» . قال : فأمير المؤمنين قائم لقيامها ، وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين ، وهما يتناظران في صِلَتك»[2] . هكذا غدا شعر العبّاس تذكرة الرشيد للدخول إلى قلب ماردة من جديد . وما جرى مع ماردة ، جرى

1 وتضيف الرواية أنّه كتب تحت ذلك :

لا بُدَّ للعاشِقِ مِن وَقفةٍ　　تكونُ بينَ الهَجْرِ والصَّرْمِ
حتى إذا الهَجْرُ تمادى بهِ　　راجَعَ مَنْ يَهوَى على رُغْمِ

2 العقد الفريد ج6 ص 385 والنجوم الزاهرة ج2 ص 126 .

مثله مع ذات الخال[1] ، وقد يكون جرى مع أُخريات .

6 ـ تطلُّب الرشيد الأدب لدى كل مَن حوله

لقد بات دأبُه أن يحيط نفسه بجوّ من الأدب أنّى كان وأينما ذهب . لذا فقد تطلّبه عند جواريه ، كما رأينا ، ولدى نسائه[2] وجلسائه[3] ، وقوّاد جنده[4] . وكان وزراؤه أدباء قامت بينه وبينهم مساجلات ومناظرات أدبية[5] . أمّا أولاده ، فقد عني بهم عناية خاصة . أحضر لهم المؤدبين الذين زوّدوه بثقافته ، أو من رضوه لهم ممن تتلمذ عليهم . وتتبّع تقدّمهم خطوة خطوة[6] . ثم أجزل العطايا والهبات للمؤدّب لكي

---

1 الأغاني ، ج16 ص 267 .

2 سبق لنا الحديث عن استخدام زبيدة للمثير الأدبي مع الرشيد . ونضيف هنا أنّها كانت محبّة للأدب ، روي عنها بعض الأبيات الشعريّة (الوزراء والكتّاب ص 256) وكان لها مجلس أدبي خاص بها ذكره الأصفهاني على لسان عمرو بن بانة في قوله : «كنا في دار أمّ جعفر ، جماعة من الشعراء والمغنين ، فخرجت جارية لها ، كمُّها مملوء دراهم» (الأغاني ج18 ص372) . وهذا المجلس يمثّل الوجه الآخر «للصالونات الأدبيّة» في هذا العصر ، نعني «صالونات» نساء الطبقة الراقية بمقابل دُور القيان والجواري الأديبات .

3 انظر مفاجأة الرشيد جلساءه بأسئلته عن الشعر تحت عنوان «الاستنشاد» وعنوان «الإجازة الشعريّة» .

4 لقد كان للقائد يزيد بن مزيد مجلسه الأدبي ، يؤمّه الشعراء يمدحونه وينشدونه ، شأنه ، في ذلك ، شأن معظم كبار أهل العصر . وكان الرشيد يشجّعه على هذا . ونورد هنا حديثاً دار بين الرشيد ويزيد يمثّل نموذجاً من النفحة الأدبيّة التي كانت لهذا القائد الكبير . يروي ابن خلكان أنّ الرشيد قال له يوماً : «يا يزيد ، إنّي أعددتك لأمر كبير . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله عزّ وجلّ ، أعدَّ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة لطاعتك ، وسيفاً مشحوذاً على عدوّك ، فإن شئت فقلْ . .» وفيات الأعيان ج3 ص 304 .

5 انظر مجالس المناظرات .

6 الكسائي علّم الرشيد وظلّ يعلّم ولده إلى أن أصيب بالوضَح ، فاختار مكانه تلميذَه الأحمر النحوي . وكان الكسائي يأتيهم في الشهر مرّة أو مرّتين ، فيَعرضون عليه ، بحضرة الرشيد ، ما علّمهم الأحمر» . (بغية الوعاة ص 334) .

يبذل علمه بسخاء[1] . وخلق مجالس أدبيّة نموذجية بحضورهم ، تنميةً لذوقهم الأدبي[2] . وقد قام في هذه المجالس ممتحناً أو موجّهاً ، ضارباً المثل لهم على الخليفة الأديب . ولم يكتف بذلك بل حاول أن يخلق بينهم منافسة تزيد التحصيل[3] ، حتى توصل إلى جعل الأداء الأدبي ثمناً يدفعه الولد ، مقابل حاجة ساعده والده على إشباعها[4] . ولا بدّ أخيراً من الإشارة إلى أنّ الرشيد الأديب الذي كان يجود على الأدباء ويسخو ، كان يأخذ مكافأته ، بالمقابل ، ما يجده لديهم من أدب . وبقدر ما كان الإبداع يكبر كان عطاؤه يزداد ، وبقدر ما يكون الأدب من مصدر غير متوقّع ،

---

1 انظر المرجع السابق في ما ناله الأحمر النحوي بعد أوّل درس أعطاه لأولاد الرشيد وراجع (الفرج بعد الشدّة ص 222) حول ما ناله الأصمعي .

2 انظر مناظرة الرشيد للضبي (الطبري ج8 ص 361) ومناطرته للكسائي (المحاسن والمساوىء ج2 ص 84) .

3 المحاسن والمساوىء – ج2 ص 84 .

4 يروي القالي والبغدادي حادثة عن جارية كانت تصب الماء على يدي الرشيد فغمزها المأمون ، وكان فتى أمرد ، فانتبه الرشيد وعرف حقيقة الأمر وأشفق على المأمون من الجزع والخجل اللذين أصاباه فوهبه الجارية وقال له : «هي لك ، قم فادخل في تلك القبّة» ففعل . ثم قال : هل قلت في هذا الأمر شعراً ؟ قال : نعم يا سيدي ، ثم أنشد :

ظَبْيٌ كتبتُ بطرفي   من الضَّميرِ إليهِ
قَبّلتُهُ مِنْ بعيدٍ   فاعتلَّ مِن شَفتيهِ
وَرَدَّ أُخبثَ رَدٍّ   بالكَسْرِ مِن حاجِبَيهِ
فما بَرِحتُ مكاني   حتى وثَبتُ عليهِ

الأمالي ج1 ص 225 وتاريخ بغداد ج10 ص 185 .

فإذا صحّ الخبر يكون المأمون قد ارتجل الشعر لإرضاء والده . ولكن متى وأين ؟ هل هيّأه أثناء وجوده تحت القبّة ؟ أم قاله فوراً حين سأله والده ؟ ومع أننا نتحفّظ فن قبول هذه الحادثة تحت السياق الذي وردت فيه فإننا لا نجد في الشعر معنى معجزاً ولا مبنى متميزاً يجعلانه بعيداً عن تسلية شاب مرفّه . إنّما الذي لا نشكُّ فيه أنّ الرشيد سأل ابنه الارتجال الشعريّ وحثّه عليه .

تكون فرحته به أعظم ؛ فإلى المتعة الأدبيّة تضاف هنا حلاوة الاكتشاف . ولا يلذّ الاكتشاف للمرء إلاّ إذا أظهره للآخرين ، وزها عليهم بسبقه إليه . وقد تطرّف الرشيد في ذلك حتى جعله اكتشاف أدب لدى من لا يتوقّعه منه يحرك البلاط ويقتلع الجلساء من بيوتهم ويعقد لهم المجلس ، على عادته ، في أيّة لحظة من الليل أو النهار ، ليشاركوه متعة ما وجد وكأنّه شيء نادر وقع له بعد طول بحث وعناء . ولا بأس بذكر مجلس الأعرابيّة كدليل على ما قدّمناه . فقد ساقت الظروف ، إلى البلاط ، أعرابيّة لها ابنة برزت عندها شاعريّة مبكّرة وقدرة فذّة على الارتجال دُهش لهما الرشيد . وكأنّه ذكر حينها ندماءه الذين كانوا دائماً يكتشفون المواهب ويدلّونه عليها ، فقام بردّة لهم وطفق يدعوهم الواحد تلو الآخر ، فجاؤوا وفي مقدّمتهم الموصلّيان : إبراهيم وإسحق . ويروي لنا إبراهيم جزءاً من الخبر : «والله إنّي لفي منزلي ذات يوم ، وأنا مفكّر في الركوب مرّة في القعود مرّة ، إذ غلامي قد دخل ومعه خادم الرشيد يأمرني بالحضور من وقتي . فركبت وصرت إليه ، فقال لي : إجلس يا إبراهيم حتى أُريك عجبا . فجلست ، فقال عليّ بالأعرابيّة وابنتها ، فأُخرجت إليّ أعرابيّة ومعها بنية لها عشر أو أرجح . فقال : يا إبراهيم ، إن هذه الصبية تقول الشعر» . ثم راح يسألها عن شعرها فتنشده :

تَقـولُ لأتـرابٍ لهـا وهي تمترَي دموعاً على الخدّين من شدّة الوجْدِ ...

(الأبيات)

وطفق الملحّنون يتنافسون في تلحين أبياتها ، ثم عرضت عليها الألحان فإذا بها تفضل لحن إبراهيم وتقول من جديد شعراً في تقريظه .

ما لإبراهيم في العلم بهذا الشأنِ ثاني ...

(الأبيات)

ولا يتمالك الرشيد أن يسني لها الجائزة مكافأة على الأدب الذي لم يكن يتوقّعه[1] .

---

1 الأغاني ج5 ص 225 .

الفصل الثاني

أجواء الأدب ومجالس المناظرة

1 ـ تمهيد

لقد كانت فرص الوقائع الأدبيّة ومناسباتها لا تحصى في بلاط الرشيد . بعضها يأتي بشكل محضّر ومرتّب وفق مراسم وعادات ، وتلك مجالس المناسبات العامة ، ومنها ما يأتي تلقائيّاً في حوار طبيعي وعادي ، أو انطلاقاً من حدث طارىء ومناسبة مفاجئة ، أو من رأي عفوي ليتحوّل إلى مناظرة كاملة العناصر . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ أيّ مجلس أدبي يلزمه طرفان على الأقلّ ، سواء اتفقا في آرائهما أو اختلفا ، ينجم عن لقائهما مبادلة تُصاغ بأسلوب أدبي أو بشعر مرويّ مرة ومرتَجَل مرة . وغالباً ما يسود المجالس الأدبيّة جوّ من الصراع يعود في أعماقه إلى تيّارات عدّة تلاقت أو تصادمت في البلاط بشكل ظاهر حيناً وخفيّ حيناً آخر .

2 ـ بين الرشيد وأمّ جعفر

تيّاران تلاقيا لقاء المحبة والاحترام : لقد كانت زبيدة ابنة عمّ الرشيد ورفيقة طفولته ، وحبّه الأوّل والدائم . بلغت من النفوذ عليه مبلغاً كبيراً . لكن المحبَّين ، مهما كانا متفاهمين ، قد يختلفان وتأخذ كلاًّ منهما عزّة المحبوب ، فإذا هما بالمرصاد أحدهما للآخر : اتّهامٌ وردّ ، عُندٌ وكِبَر ؛ ولعلّ ثبات الموقف وقوّة الحجّة ، ومقارعة الأداء الأدبي بأداء مشابه ، عناصر تشدّد من احتدام المعركة الكلاميّة ، آنياً ، وتفرض الاحترام والتقدير مستقبليّاً . هكذا كانت زبيدة تقطف إعجابه تارة ، وتماشي تيّار

عواطفه حيناً لتنعطف به وتميل ، وتواجهه طوراً مواجهة الندّ للندّ[1] . ولنا مثل على ذلك مجلس نقاش حاد كان الأدب ، والشعر بالذات ، حجّة فيه . وهذا المجلس يرويه الجهشياري فيقول : «دخل الرشيد على أمّ جعفر فقال لها : قد تهتّكَ كاتبك سَعدان ، فاعزليه . قالت : وبأيّ شيء تهتّك ؟ قال : بالمرافق والرّشا ، حتى قال فيه الشاعر :

صُبَّ في قنديلِ سَعْدا نَ مَعَ التَّسليمِ زيتا
وقناديلِ بنيه قبل أن تخفي الكُميتا

فقالت له : وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن ، أشنع من هذا :

قِنديلُ سعدانَ ، على ضوئِهِ ، فَرجٌ لِقنديلِ أبي صالحِ
تَراهُ في مجلِسِهِ أَخوصاً من لمحِهِ للدِّرهمِ اللائحِ

فقال لها : كُذب على كاتبي وكاتبك . قال هارون بن مسلم : بلغني أنّها قالت هذا الشعر في تلك الساعة[2] . ولئن لم يصحّ عنها الارتجال ، فلا بدّ من أن تكون حفظت الشعر وروته واستخدمته حجّة لها ، وهذا مظهر من مظاهر أدبها . والرواة يصرّون على أن يجعلوها تقرض الشعر ، شأن الرشيد وسائر أفراد عائلته ، فينسب إليها ابن عبد ربّه بيتين قالتهما ودسّتهما للرشيد ، حين غاب أيّاماً مع جاريتها التي وهبتها له . وكان هدفها أن تخرجه من عزلته ، بعتابها اللطيف الخفيّ :

وعاشقٍ صَبٍّ بمعشوقِهِ كأنّما قلباهُما قَلبُ

---

1 اتهمته زبيدة بأنّه من أهل النار ، فردّ عليها بالطلاق إذا صحّ ذلك ، وتدخّل أبو يوسف بإحدى فتاويه . (القزويني – آثار البلاد وأخبار العباد ص 317) .

2 الجهشياري – الوزراء والكتّاب ص 256 .

روحاهُمــا رُوْحٌ ونفساهُما نَفْسٌ ، كذا فَلْيَكُنِ الحُبُّ[1]

ونحن نستبعد على زبيدة ، وإن استطاعت النظم ، أن تقول بيتين يباركان علاقة الرشيد بجارية من جواريها ، أيّاً كان الهدف . فالمشهور عنها من الكبر والتيه وعنفوان الكرامة يمنعها من ذلك . وقد يكون البيتان من عمل عُليّة ، أخت الرشيد أرسلتهما باسم زبيدة لتردّه إليها ، والمعروف أنّ بينهما تفاهماً على ذلك تجلّى صراحة في وضع مشابه[2] .

3 ـ بين الرشيد وجواريه

علاقة ينتظمها تيّاران من عسل وخمر تلاقيا ، كما رأينا ، على إثارة أدبيّة واستجابة . ولقد تحدّثت الأخبار كثيراً عن هذه العلاقة ، ورووت العديد من المساجلات الشعريّة بين الخليفة وجواريه . وسواء أصحّت الروايات جميعها ، أم صحّ بعضها ، فإنّ من المؤكّد أنّ هذا المظهر طبيعي جدّاً في عصر الرشيد ، وأنّه لم يكن وقفاً على بلاطه ، إنّما شاركه فيه كلّ قصر آخر ، بل كل دار عمرتها النعمة فوسعت الأعداد الكبيرة من الجواري . والأخبار لا تحدّثنا عن العلاقة الإنسانيّة بين ربّ القصر وجواريه ، فالذي يهمّها هو اللُّمح الأدبيّة ، قولاً أو مناظرة أو مساجلة . ومن أبرز ما يتجلّى فيه الرشيد ، في هذه الأخبار ، هو مظهر شاعر الغزل ،غزلِ الملوك ، الذي يُبدع الشعر الرقيق وأبيات الشكوى والعتاب[3] . ممّا نعود إليه في فصل لاحق ، مكتفين هنا بالحديث عن مجالس المناظرة .

ومن ذلك ، المجلس الذي ذكره المسعودي ، وحضره البرامكة وإسحق الموصلّي ، واستدعي إليه خالد بن يزيد الكاتب . وبينما الجميع يتذاكرون أبياتاً لخالد غنّت بها جارية من البلاط ، أقبلت وصيفة معها تفاحة عليها مكتوب بغالية :

1 العقد الفريد ج6 ص 409 .

2 الأغاني ج10 ص 180 .

3 انظر شعر العشق عند الرشيد .

سُرورُك ألهاكَ عن موعدي　　فَصَيَّرتُ تفّاحتي تَذْكِرَةْ

فأخذَ الرشيدُ تفّاحةً أُخرى كتب عليها :

تَقاضيتُ وعدي ، ولم أَنْسَهُ ،　　فتُفّاحتي هذِهِ مَعذِرَةْ

ثم قال : يا خالد ، قل في هذا شيئاً . فقال :

تُفّاحةٌ ، خَرَجَتْ بالدُرِّ مِن فِيها ،　　أشهى إليَّ مِنَ الدُّنيا وما فيها
بَيضاءُ في حُمْرةٍ ، خُطّتْ بِغاليَةٍ　　كأنّما قُطِفت مِن خَدِّ مُهديها[1]

ومع إنّ سياق القصّة فيه شيء من الصنعة ، فإنّ بيتيْ خالد بن يزيد يسبغان عليها ظلاًّ من الواقعيّة في مجملها ، إن لم يكن في تفاصيلها .

4 ـ بين الرشيد ووزرائه

قامت مساجلات أدبيّة ومناظرات ، ونخصّ بالذكر البرامكة ؛ فالبرامكة ساهموا في صنع شخصيّة الرشيد ، وفي إعطائها صورتها المشرقة ، والرشيد استكان إليهم في بدء خلافته وترك الحبل على الغارب لعواطفه ، تسرح وتمرح في سهول محبّتهم والثقة فيهم . وخير دليل على ذلك ما جرى من تبادل بين هارون وجعفر في رسائل شعريّة

1　المسعودي – مروج الذهب ج3 ص 285 . وقد أُولع الرواة برسائل التفّاح هذه فأُثِرَتْ عن غير خليفة . وأوّل من رويت عنه : المهدي . يذكر ابن عبد ربّه أنّ جارية أهدتْه تفّاحة وطيّبتها وكتبت فيها :

هَدِيَّةٌ مِنّي إلى المَهْديْ　　تفّاحةٌ تُقْطَفُ مِنْ خَدّي
مُحمَرَّةٌ ، مُصْفَرَّةٌ ، طُيِّبتْ　　كأنّها مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ

فردّ المهديّ بتفّاحة أُخرى عليها :

تُفّاحَةٌ مِن عِندِ تُفّاحةٍ　　جاءتْ ، فماذا صَنَعَتْ بالفؤادْ ؟
واللهِ مَا أدرى ، أأبصرتُها　　يقظانَ ، أمْ أبصرتُها في الرُّقادْ ؟

العقد الفريد ج6 ص 406 .

مكتوبة ، هي من نمط الإخوانيات ، وفيها فيض من محبّة للصاحب ورؤية ورديّة للكون . والرشيد كان البادىء بالمراسلة وهذا له مغزاه إذ يبرهن عن عفويّة عنده ورفعٍ للكلفة دون خلفيّات نفسيّة أو سياسيّة . فقال :

سلْ عــن الصّارِمِ ابنِ يحيى   راحلاً نحونــا مــن النَّهْرَوانِ
ليصونَ المُدامَ سُهداً ويَغشى   الهجرَ بين الأصواتِ والعِيدانِ
فَـأْتِنا نَصْطَبِحْ ونَلْتَذَّ جميعاً   لِثلاثٍ بقِـينَ مـن شَعبانِ

ولا شكّ في أنّ جعفراً كان متأثّراً جدّاً بهذه الرسالة ، لأنّها تشرّفه بدعوة الخليفة وترفعه إلى مستوى صداقته له ممّا لم يُروَ عن أيّ إنسانٍ آخر ؛ وهي ، بالتالي ، ترضي غروره وما عُرف عنه من إعجاب بنفسه . لكنّه لا يستطيع إظهارَ ذلك . ولعلّ صداقة الرشيد لـه لا تدوم إلاّ بإحساسه أنّه يتفضل عليه بهذه الصداقة ، فإذا ما استشعر لديه إحساساً بالمساواة انقلب عليه وحقد . لذلك فقد ردّ على الفور برقعة جاء فيها :

إنّ يومــاً كتبتَ فيه إلى عَبـ   ـدِكَ يَـومٌ يَسودُ كُلَّ زمانِ
يــومُ لَهْــوٍ كأنّهُ طلعــةُ الكأ   سِ إذا قابلتْ خـدودَ القِيانِ
فاصطبحْ واغتبقْ ، فِداؤك نفْسي   مــن جميــعِ الآلامِ والحِدثانِ[1]

ويبدو واضحاً أنّ هذه الأشعار صادقة العاطفة إذا ثبتت صحّتها . لأنّه ما من أحد أو شيء يجبر الرشيد العظيم على إظهار عاطفة لا يحسّها نحو من يسمّي نفسه «عبده» مهما علت مكانته ؛ وشعور النشوة الذي أصاب جعفراً وما أبداه من امتنان أمر طبيعي . ومع هذا ، فالنظم بادي الكلفة ، يظهر عليه بوضوح أنّه ليس من عمل محترف (وذلك ما يجعلنا نميل إلى صحّة روايته) فهو تعبير عن لعبة الملوك بالأدب ، أكثر منه تعبيراً عن حاجة فنيّة . ولو أراد الرشيد الاستمرار في هذه اللعبة

1 غرر الخصائص الواضحة ص 441 .

الأدبيّة مع البرامكة فرداً فرداً لوجد لديهم مرتعاً خصباً لأدب وذوق وثقافة . ولكن هذه البادرة بقيت فريدة فيما وصلنا من أخبار ، وظلّت مرتبطة بجعفر وحده ، الذي اقترب من الرّشيد حتى سمّاه «أخي» وصار يُدخله معه في ثوبه[1] .

ولعلّ مرور الأيّام جعل الأمور تسير شيئاً فشيئاً في اتّجاه آخر . فممّا لا شكّ فيه أنّ تزايد نفوذ البرامكة جعل الرشيد يخرج تدريجاً من ظلمات الثقة والعرفان إلى ضحى الحذر والتبصّر . وراح ذلك يتجلّى ، فيما رُوي من مواقف أدبيّة بينه وبينهم ، في تعليق من هنا ولوم من هناك ، وعبارات ينقلها الرواة عنه تدلّ على رغبته في جرحهم أو القسوة عليهم ، أو في تكريس تبعيّتهم له وأفضليّته عليهم ؛ ونحن لا نعني أنّ الرشيد كان يخاطب البرامكة دائماً بلهجة التعالي ، وأنّ موقفه منهم كان دائماً موقف الشكّ والاتّهام ، كلا ، بل كان الرشيد عادة يعاملهم نَدّاً لندّ ، ويروى عنه أنّه كان يعتدّ نفسه وجعفراً من طينة متميّزة من طينة عامّة الناس[2] ؛ وما نشير إليه من تلميحات إنْ هو إلاّ علامات ومؤشّرات على تغيّر الرشيد عليهم ، التغيّر الذي حاول كتمه في نفسه ، والذي كان لا بدّ له من أن يتحرّر من الكبت ، بين حين وآخر ، في حالات مزاج معيّنة للرشيد ، وردّاً على مواقف للبرامكة . وقد تكون قناعة الرّواة بوجود هذا التغيّر هي التي جرّأتهم على إيراد هذه اللمحات ، في القول أو التصرّف ، أو يكون صدور هذه الأقوال والتصرّفات عنه هي التي جعلت الرواة يؤمنون بتغيّره .

هذه التناقضات تظهر في المجالس الأدبيّة ونبدأ بمجلس لَعِب فيه الأدوارَ كلٌّ من الرشيد وجعفر وسَلْم الخاسر . فسَلْم هذا كان مختصّاً بالبرامكة قبل أن يوصلوه إلى الرشيد . وهو ، أصلاً ، قد تتلمذ على بشّار فأخذ عنه وروى شعره . وكان سلم أيضاً من المجوّدين الذين يستبِقون الأحداث ويقدّرون المواقف التي قد

1 الجهشياري – الوزراء والكتّاب ص 204 .
2 لطائف المعارف ص 169 وخاص الخاص ص 50 .

تستجدّ ، فيهيّئون لها ما يلائمها من كلام وشعر[1] . لذلك كان يمكن لكلامه أن يحمل غيرَ معنىً ، ويمكن للسامع أن يبحث ، من خلال ظاهره ، عن ما خفي منه . وفي المجلس الذي نشير إليه أخذ الرشيدُ على عاتقه هذه المهمّة : فحين اندفع سلم ينشده قصيدته على الجيم التي يمدحه فيها ويتطرّق إلى مدح العبّاسيين والأبطال الذين خدموهم بإخلاص ، لم يكن يسمّيهم ، بل يشير إليهم بالتلميح وبالصّفات . والرشيد كان يُصغي بسمعه وبقلبه وكلِّ جوارحه ، محلّقاً مع الشاعر في أجواءِ إلهامه ، متعرّفاً ، دون تردّد ، على ما يقصد ومن يقصد ، ذاكراً للحاضرين ما قد يكون خفي عليهم . فحين أنشد سلم :

إنّ المنايا في السيوفِ كَوَامِنٌ حتى يُهيِّجَها فتىً هَيَّاجُ

قال الرشيد : كان ذلك معن بن زائدة . فقال : صدق أمير المؤمنين . ثم أنشد حتى انتهى إلى قوله :

ومُدَجَّجٍ يغشى المضيقَ بسيفِهِ حتّى يكونَ بسيفِهِ الإفراجُ

فقال الرشيد : كان ذلك يزيد بن مزيد . فقال : صدق أمير المؤمنين . وعلى ذكر يزيد بن مزيد الشيبانيّ العربيّ ، المُصافي للفضل بن الربيع عدوّ البرامكة الأكبر ، ضاقت الدنيا في عيني جعفر البرمكيّ الأعجميِ الميول ، وبات لِسَلْم بالمرصاد ينتظر منه هفوةً لم تلبث أن أتتْه منقادة . فهو ، حين انتهى إلى قوله :

نزلتْ نجومُ اللّيلِ فوق رؤوسهمْ ولكلِّ قَومٍ كَوكَبٌ وَهّاجُ

---

1 يذكر الأصفهاني بالسند إلى عليّ بن الحسن الشيباني عن ابن المستهلّ : «دخلت يوماً على سلم الخاسر ، وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي ببعضها أمّ جعفر ، وببعضها جاريةً غير مسمّاة ، وببعضها أقواماً لم يموتوا ، وأمُّ جعفر يومئذٍ باقية . فقلت له . ويحك ، ما هذا ؟ فقال : تَحدُث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ولا يُقبل بتّاً أن نقول غيرَ الجيّد فنُعدّ لهم هذا قبل كونه» . الأغاني ج19 ص 230 .

قال جعفر : مِن قلَّةِ الشِّعرِ حتى تمدَحَ أميرَ المؤمنينَ بشعرٍ قيل في غيره ؟ هذا لبشّار في فلان التميمي . فقال الرشيد : ما تقول يا سلم ؟ وما عسى سلم أن يقول ؟ لقد أظهر جعفر أنّه مطّلع على الأدب العربي أكثر من أبنائه ، حافظ لقديم الشعر وحديثه ، قويّ الذاكرة . ولم يكن ما قاله تعسّفاً ، بل نقداً محكماً . والرشيد ، هو الآخر ، عالم ضليع بتمييز الحقيقة الأدبيّة ، عدوّ للكذب لدود ، صديق للصراحة معجب بها . فكان على سلم الاعتراف . «صدق ، يا سيدي ، وهل أنا إلاّ جزءٌ من محاسن بشّار ؟ وهل أنطِق إلاّ بفضل منطقه ؟ وحياتِكَ يا سيّدي إنّي لأروي له تسعة آلاف بيتٍ . ما يعرف أحدٌ منها غيري شيئاً . فضحك الرشيد وقال : ما أحسن الصدق ! إمض في شعرك ، وأمر له بمئة ألف درهم»[1] . وفي هذا الخبر ، يحاول راويه أن يضع النقاط تحت تناقضٍ بين موقف الرشيد المعجَب بأبطال الدولة العرب من معن ويزيد ، موقفِ جعفر الذي يستاء لذلك ، ويحاول النيل من سلم[2] وإظهاره مفلساً أمام الرشيد ، ساطياً على معانٍ قديمة .

إنّما ليس في الخبر تحدٍّ ولا جدل أو إقذاع ممّا نجده في المجلس الذي يرويه الأصمعي عن اتّصاله بالرشيد واجتيازه الاختبار الأدبي الذي خضع له ، بحضور البرامكة . ويهمّنا منه المقطع الذي جرى فيه الحوار بين الرشيد والفضل البرمكي . فهنا نستشفّ ملامح موقفين ، أرادهما الراوي متعارضين : موقف الرشيد العربي وموقف الفضل الأعجمي الأصل الذي يزلّ لسانُه فيفصح عمّا في نفسه من ميل عن العرب ، وحضارتهم ، إلى العجم .

يقول الأصمعي : «صرتُ إلى صفة الجمل فأطلتُ» . فقال الفضل : ما لك تضيّع علينا ما اتّسع لنا من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جملٍ أجرب ؟ صر إلى

---

1 الأغاني ج19 ص 242 .

2 كان سلم منقطعاً إلى الفضل بن يحيى ، ويظهر أنّه بين الفضل وجعفر كان نوع من المنافسة على استقطاب الشعر ، وبعض المحاولات من كلّ منهما للتقليل من قيمة جلساء الآخر (انظر الوزراء والكتّاب ص 189) .

امتداح المنصور حتى تأتي على آخره . فقال الرشيد : «أُسْكت ، هي التي أخرجتك من دارك ، وأزعجتكَ من قرارك وسلبتكَ تاج ملكك ، ثم ماتت فعُملت جلودها سياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد[1] . ثم قهقه . ثم قال : لا تَدَعُ نفسك والتعرّضَ لما تكره . فقال الفضل : لقد عوقبتُ على غير ذنب ، والحمد لله . قال الرشيد : أخطأت في كلامك ، يرحمك الله ، لو قلت : واستغفر الله ، قلت صواباً ، وإنّما يُحمد الله على النعم[2] .

ويستمرّ المجلس ، بين صمتٍ على مضض يظهره الفضل وتنقّلِ الأصمعيّ من إبداعٍ شعريّ إلى آخر ، إلى أن طلب الرشيد سماع مديح عديّ بن الرقاع للوليد بن يزيد ، فعاد الفضل إلى الاعتراض : «يا أمير المؤمنين ، ألبستَنا ثوب السهر ليلتَنا هذه لاستماع الكذب ؟ لِمَ لا تأمرُه أن يُسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك ؟» . فامتعض الرشيد لهذا التدخّل مجيباً جواب ناقد أريب متجرّد : وهل للأدب نسب ينتمى إليه ؟ كلا ثم كلا ، فالأدب لا يُرفض لأنّه ابن بيئة معيّنة ، أنّى كانت البيئة ،

---

1 لقد روى هذا الخبر أقطاب كبار كالمرتضى والبغدادي والتنوخي وابن عبد ربّه . ومع ثقتنا برواياتهم فإنّنا نشكّ في أن يكون الخبر الذي يروونه قد حصل بالفعل كما وصل إليهم لأنّ الرشيد ما كان ليخاطب البرامكة بهذه اللغة إبان سلطانهم : فهم كانوا حينذاك أحبّ الناس إلى قلبه وأغلاهم عنده ؛ وما كان ليفعل ذلك حين تغيّر عليهم ، خوفاً من أن يحسّوا هذا التغيّر وهو الذي كان يكتمه في صدره ويغالي في ذلك ؛ مع العلم أنّ الخبر الذي يرتبط بدخول الأصمعيّ إلى البلاط يمكن تحديد تاريخه بأوّل حكم الرشيد ، إذ قد يكون اتّصال الأصمعي تمّ عام 173هـ أو قبله ، لأنّ التنوخي يروي في خبر الاتّصال أنّه جاء عن طريق محمد بن سليمان الهاشمي ، والي البصرة (الفرج بعد الشدّة 163/3) ومحمد بن سليمان توفي عام 173هـ . (الطبري ج8 ص 237) .

2 في هذا الاتّهام بالخطأ نوع من التجنّي على الفضل ، لأنه لو قال : أستغفر الله ، لكان ذلك اعترافاً منه بخطأ ارتكبه وهو ينفي أن يكون قد أخطأ . فهو يحمد الله على وضعه في موضع المتّهم لأنّ الله يحمد على الخير والشر وجاء في الدعاء . «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه» .

وجماله أن تنظر إليه ضمن إطاره ولن يفيدك أن تغمض عينيك عن الإطار ، لأنّ الحقيقة تبقى الحقيقة سواء أرايتها أم عميت عنها ، وتبقى الرسوم والآثار محدِّثةً بها ناطقة عنها . ولأَن أسمع الشعر ممّن يَخبره وشُغلتُه العناية به ، أحبُّ إليّ من أن تشافهَني به الرسوم ؛ ولِلممتدَح بهذا الشعر حركات ترد عليك . .»[1] .

ومع توالي أحداث الخبر ، تتهيّأ فرصة أُخرى للراوي ليُظهر معارضة بين الرشيد والفضل حول نعل الخليفة العربية وتقصيرها عن أن تضاهي نعل الأعاجم . وذلك تلميح من جعفر إلى رقيّ الأعاجم وتطوّر إنتاجهم ، يقابله من الخليفة ردّة عنيفة تدفعه إلى التمسّك بنعله على رغم أنّها تعقر رجله[2] ، وهكذا تحول المجلس الأدبي ، في كثير من جوانبه ، إلى مظاهر الصراع المستحكم بين العرب والأعاجم . ولسنا ندري هل كان المجلس الأدبي خادماً لفكرة الصراع في ذهن راويهِ ، أم أنّ الصراع كان دخيلاً عليه . ولكن ، ممّا لا شكّ فيه ، أنّه (أي الصراع) موجود بين الرشيد والبرامكة ، وأنّ معارضته لهم قامت على غير صعيد ، لا صعيد الكلام وحده : فهم أقاموا قصورهم معارِضةً لقصوره ، وهو عاش نمط حياة مستمدّاً من حياتهم في ترفها ؛ هم عارضوه في استقطاب الأدب والفن ، وهو لحقهم ، بل جاوزهم في حجم العطاء ؛ هم كادوا يتفرّدون بالنفوذ السياسي ومراكزه ، وهو استطاع الانقلاب عليهم ونكبهم .

كل ذلك لم يتمّ عفويّاً ، ولا كانت ملامحه لتولد بين يوم وليلة ، وليس من صميم بحثنا تتبّعه ؛ لكن النتيجة الحتميّة له أن ينقسم الناس انقسام قادتهم ؛ حتى العاملون في ميدان الأدب والنقد ، بل هؤلاء العاملون بشكل خاص ، انضمّوا إلى التيارين وطبعوا بانتمائهم كل ما رووه وكلّ أدب كتبوه . على ضوء ذلك يمكننا تصور الخبر السابق ، ككلّ ما رُوي عن البرامكة ، قد ركبته الأهواء وحمّلته ما في نفوس الرواة من حسد لما بلغوه في عزّهم ، أو من حقد عليهم لما حاولوا تحقيقه للأعاجم ، أو من شماتة بهم وبما

1 العقد الفريد ج5 ص 313 .

2 المرجع السابق ص 309 وانظر الفرج بعد الشدة ج3 ص 305 وأمالي المرتضى ج3 ص 96.

آلت إليه أحوالهم ، وذلك كلّه بعدد زوال دولتهم . ويجب ألاّ نغفل هنا دور الأصمعي الذي نقم عليهم وهجاهم بعد تحوّل الرشيد عنهم ؛ ومعظم الأخبار عن تجريح الرشيد لهم تعود في سندها إلى الأصمعي .

ففضلاً عن المجلس السابق ، يُنسب إلى الأصمعيّ خبر مجلس آخر قامت فيه مناظرة بين الرشيد والبرامكة جميعاً حول أفضل ما قيل في الوصف . فقد خلا الرشيد ذات ليلة لوزرائه يسمرون ويتناقشون ، فكان الأدب محور حديثهم وكان التقويم الأدبي شاغلهم . وهذا الشاغل هو أحد الأنماط الكثيرة التي كان الرشيد يختارها لمتعة ليله . ومن المعروف أنّ الجدل في هذا النوع من الموضوعات التقويميّة قد ينتهي بلحظة ، إذا تهيّأ اتّفاقٌ في الأمزجة والاتّجاهات الثقافيّة والخلفيّات النفسيّة والاجتماعيّة ، وهذا نادراً ما يحصل لصعوبة تجمع هذه المعطيات . فإذا وقع الخلاف ، فإن الجلسة تطول بقدر عمق الروافد الثقافيّة للمتناظرين ، وبقدر توافر الحسّ الدقيق والنظرة الصائبة ، وهذا ما تهيّأ للمجلس ؛ فالرشيد ووزراؤه على مستوى عال من الثقافة ، وهم جميعاً يتمتّعون بالذوق والحسّ وصواب الرؤية ، وفي الوقت نفسه هناك بُعد بين الرشيد وبينهم على صعيد الخلفيّات النفسيّة والاجتماعيّة . لذلك لم تنته المناظرة بلحظة ، بل كانت كلّ لحظة تمرّ توسع رقعة الخلاف ، وأصبح وجود الحكم ضروريّاً .

ويظهر أنّ الرشيد اقترح الأصمعي ، وهو سيّد في هذا الميدان ، فلم يستطع البرامكة رفضه . وقبل أن نبدأ بعرض المجلس ننبّه إلى إننّا لم نتمكّن من تحديد تاريخ له ، ولم يذكره أحد من الرواة سوى الشريشي ، ولكنّنا وقعنا ، على صدى لما جاء فيه من ملامح نقدية ، في مراجع أُخرى نشير إليها في حينها . ولو أنّنا استطعنا تحديد زمن المجلس لأمكننا فهم الخلفيّة النفسيّة للرشيد فيه وللأصمعي أيضاً الذي عُيّن حكماً له . وفي غياب ذلك لا يمكننا إلاّ أن نلاحظ أنّ الرواية تُظهر الرشيد مترفّعاً عن وزرائه ، متعالياً عليهم ، وهم ، أمام سورة غضبه وانفعاله ، يضعون من جانبهم ليداروا تلك السورة . وقد بدأ الرشيد بتحديد موضوع المناظرة قائلاً : «إنّي نازعت هؤلاء القوم في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه» ولم يقع إجماعُنا على بيت . .

«ويمسك الأصمعي زمام المبادرة ليعلن أنّ أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس في وصفه لقلوب الطير عند وكر العنقاء ، ولعيون الوحش حول الخباء ، ولتسلّله إلى خباء محبوبته . ويظهر أنّ الرشيد كان قد راهن على امرىء القيس فانتشى لما سمع وأنشد أحسن ما يراه من وصف لامرىء القيس :

فرُحنا بِكابْنِ الماءِ يُجْنَبُ وسْطَنا   تَصوَّبُ فيه العينُ طوراً وتَرتقي[1]

وإذ يحسّ البرامكة أن الأصمعي يستأثر بالحديث في المجلس ، يعترضون . ثم يتمّ الاتّفاق على أن يبدأ يحيى بإعطاء رأيه ثم يتبعه الفضل وبعده جعفر ؛ ويتولّى الأصمعي تفنيد آرائهم ؛ ولقد حصل ذلك بالفعل وراح الأصمعيّ يصدر أحكامه النقديّة التي نتناولها ببعض التفصيل في مجالس النقد . ويهمّنا أن نعود إلى موضع الصراع وكيفيّة ظهوره في هذا المجلس . فهو يظهر ، أدبيّاً ، في أسلوب المتجادلين الذي يرويه لنا الأصمعيّ بتفاصيله مع الكثير من فن الرواية والتشويق[2] . فالرشيد يحاول استخدام لغة راقية لأداء أفكاره تتميّز بجزالة الألفاظ وقوّة السبك ، ولا تخلو من نفس صحراويّ ينافس الشواهد التي دارت حولها المناظرة . من ذلك قوله : «لَفَصل هذه القضيّة واجتناء ثمرة الخطار فيها . . . هذا من التشبيهات العقم التي لا تنتج . . . أتعرف تشبيهاً أفخر وأعظم في أحقر مشبّه وأصغره ، في أحسن معرض ، من قول عنترة الذي لم يسبقه إليه سابق ، ولا نازعه منازع ولا طمع في مجاراته طامع . . . .» ويحاول وزراؤه مجاراته في أسلوبه والتناوب معه على الردود المفحمة . فجعفر يستمهل الرشيد إذ «استخفّته الأريحيّة» قائلاً : «لَبْثاً قليلاً يدرك الهيجا جملْ» . فيأتي جواب

---

1 ابن الماء : طائر . وسطنا : بيننا . يقول : رحنا كفرس كأنه ابن الماء في خفّته وسرعة عدوه تنظر العين إلى أعلاه وأسفله من إعجابها به .

2 قد نستغرب هذه التفاصيل في الرواية ونستبعد أن تكون نقلاً أميناً لما حصل بالفعل . ولكن ، إذا صحّت رواية المجلس بمجملها ، فلا غرابة حينها في ما يذكره الأصمعي من جزئيّات لأنّه مشهور بذاكرته القويّة ، بل العجيبة .

الرشيد : «فاتتكَ واللهِ السوابقُ وجئتَ سكيتاً ذا زوائد أربع» .

والصراع يظهر نفسيّاً في الانفعالات التي تبدو على المتناظرين والتي يتفنن الأصمعي في ذكرها وتنسيقها في خط رغبة الرشيد الملحّة في الانتصار على مناظريه . ونحن نفهم هذه الرغبة عند الرشيد : فهو لم يتوقع هزيمة في حياته ، لا محارباً ولا مناظراً ، ولا في أيٍّ من علاقاته . وإنّما الأصمعيّ يبالغ في إظهار ذلك حتى نجد الرشيد متشفّياً بما يصيب البرامكة من اندحار ، على يد الأصمعي ، كان هو الآخر صدى لما في نفسه عليهم . فتنتشر في الرواية تعابير الانفعال والانشداه والخيبة ، بمقابل الانشراح والسرور : «فكأني والله ألقمتُ جعفراً حجراً . . . . فانتقع يحيى فكأنّ الرماد ذُرَّ على وجهه . . . فاستبشر الرشيد وبرقت أسارير وجهه . . .» أمّا نتيجة المناظرة فهي حكمٌ من الأصمعيّ للرشيد . وهذا شيء متوقّع أيّاً كان الحكم الحقيقي . وماذا يمكن للأصمعيّ أن يقول للرشيد تعليقاً على اختياره الذي مهّد له بقوله : «عيّنت على ثلاثة أشعار أقسم بالله أنّي أملك السبق بأحدها» . فهل يخيب أمله ويكذّب قسمه ؟ ما كان الأصمعي ليفعل ذلك ، وخصوصاً أنّ الاختيار ، الذي نُسب إلى الرشيد ، كان اختياراً ينمّ عن ذوق وثقافة ، لم يجد الأصمعي ما يوجهه إليه كنقد ، وإن كان الرشيد نفسه يشكّ في ممالأة الأصمعيّ له فيسأله : «أتُراك تُعينُني في انحطاطك في هواي ؟» فينفي الأصمعي ويقسم . وعلى ذلك ينتهي المجلس[1] .

ولا بد من كلمتي تعليق بعد عرضنا لهذا المجلس . الكلمة الأولى حول واقعية المجلس ككل : هل حصل هذا المجلس بالفعل ؟ إنّ الرواية تتّسم بالترتيب والتنسيق والتسلسل ممّا يعطيها طابع التصنّع والافتعال . لكن هل يكفي هذا لإنكارها جملة وتفصيلاً ؟ ألا يجعلها مقبولة من جهة أُخرى ، ما عرف عن أبطالها من مزاجٍ ومواقف وآراء ؟ إذ هل يعقل أن يوجد في البلاط أشخاص

1 انظر ، في تفاصيل المجلس ، الشريشي – شرح مقامات الحريري – ج2 ص 279 وما بعد .

كالرشيد والبرامكة والأصمعي ولا يدور بينهم نقاش على هذا المستوى ومن هذا النوع ؟ ولقد وجدنا في «العمدة»[1] أحد الآراء الواردة في هذا المجلس مذكورة على أنّها قيلت في أحد مجالس الرشيد ، فما الذي يمنع أن تكون بقيّة العناصر صحيحة إنّما ضاعت الروايات الأُخرى لها مع الكثير الذي ضاع ؟ فإذا سلمنا بهذا الافتراض لا بدّ من التحفّظ الشديد في كلمتنا الثانية على تفاصيل المواقف والحوار ، لأنّ رواية المجالس الأدبيّة تختلف عن رواية مجالس اللغة والفقه . فهذه المجالس الأخيرة تنتهي عادة بإيضاح لغوي أو فقهي ينتقل فوراً من لسان إلى آخر بين مؤيّدين وأنصار للمدارس الفقهيّة واللغويّة المتنافسة ، فيدوّن في المؤلّفات التي تصدر عن أقطابها . أمّا مجالس الأدب فلها وضع آخر . إنّها مجالس ترفيه ، كثيراً ما تُعقد بهدف التسلية ، وما يبرز فيها من فوائد ليس شيئاً نادراً أو حاسماً ، بل غالباً ما يعتمد على آراء معروفة ومتداولة . ومن غير المستبعد أن تبقى الحادثة فترة في نفس مشاهدها قبل روايتها ، وحينها تتدخّل عوامل كثيرة في تعديلها . وهذا مهم جدّاً بشكل خاص في موضوع الرشيد والبرامكة . فالحادثة تُروى إبّان سلطانهم تختلف ، في حلّتها وتعابيرها الانفعالية ، عنها هي ذاتها ، لو رويت لأوّل مرّة بعد النكبة . وكثير من الرواة أُولعوا بإعطاء أنفسهم أهميّة خاصّة عن طريق إظهار نوع من التنبؤ حصل لديهم لما جرى من أحداث فيما بعد ، مبرزين اطّلاعهم بشكل خاص ، وبحكم قربهم من ثقة الخليفة ، على ملامح تنبىء بتغيّر الرشيد ، وهم إنّما أخفوها في حينها محافظة على سرّ هارون ، وأظهروها فيما بعد حينما لم يعد السرّ سرّاً . بهذه الخلفية يُصوَّر لنا البرامكة ، أهلُ العزّ ، مجرّدين من العزّ والعزّة أمام الرشيد . وفي هذا الاتّجاه يمكن أن نشكّ في كثير من التفاصيل اللفظيّة والتعبيريّة للروايات التي وصلتنا ومنها التي لا شكّ في صحّتها .

---

1 تفضيل الأصمعي قول عدي بن الرقاع العاملي : «وكأنّها بين النساء أعارها . . . . انظر ج1 ص 255 . على قول النابغة : نظرت إليك بحاجة . . . .

5 ـ بين الرشيد وجلسائه

لن نحاول هنا البحث عن خيوط صراع ، ولكنّنا نذكّر بما أسلفناه عن رغبة الرشيد الدائمة في الاستفادة ، من وجود أقطاب الأدب في بلاطه ، زيادةً في الثقافة والأدب ، ورغبتِه في الظهور بمظهر العارف الأديب المثقّف عن طريق مناظرتهم ومساجلتهم . وفي هذا المضمار قد يتطرّف الرشيد حتى يضع نفسه في مواقف محرجة لا ينقذه منها إلاّ لباقة مجالسيه . من ذلك دخوله باب الإلغاز الأدبي : فهذا النوع من التعامل مع الأدب لا يكون إلاّ بعد الوصول إلى درجة عالية من الممارسة الأدبيّة والتلذّذ باجتناء متعتها . ذاك أنّ هذه المتعة ، التي تتولّد بادىء ذي بدء ، من ترديد المتداوَل ، معانيَ وصوراً وأشعاراً ، لا تلبث أن تضعف تدريجاً مع التكرار والسهولة ، شأنها شأن كل ما هو حضاري إنساني . وكلّما غزرت الثقافة وعمقت المعرفة تزايد البحث عن الصعب فالأصعب ، حتى يصبح الغريب ، البعيد التناول ، وأحياناً الشاذّ ، هو وحده المثير . هنا تُطلب الأحجية . فإمّا أن يطرحها الأديب على نظرائه يمتحن بها عمق روافد الأدب لديهم ، وإمّا أن يطلبها منهم فيقدح زناد فكره بحثاً عن حلّ لها .

والرشيد اختار المفضّل الضبّيّ مُناظراً له في الحفظ الأدبي وأراد المناظرة على مستوى الأحجية فقال له : «أُذكرْ لي بيتاً جيّد المعنى يحتاج إلى مقارعة الفكر في استخراج خبيئه ، ثم دعني وإيّاه» . ويلبّي المفضّل الطلب لكنه يُغرق في تعقيد الأحجية ، وإن لم يعْدُ فيها واقعَها ، وهذه مهارة المُلغِز . هكذا يجيب الضبي : «أتعرف بيتاً أوّلُه أعرابيٌّ في شملة ، هابٌّ من نومه ، كأنّما صَدَرَ عن ركبٍ جرى في أجفانهم الوسن ، فقد بدّهم واستفزّهم بعنجهيّة البدو وتعجرف الشدو ، وآخرُه مدنيٌّ رقيق قد غُذّي بماء العقيق» ؟ ويحار الرشيد . لعلّ القسم الأول من البيت ينطبق عليه الكثير من اجزاء أبيات لقصائد جاهليّة . أمّا أن ينتهي بالشكل الذي عبّر عنه الضبي ؟ فمن العبث البحث عنه في حنايا الذاكرة ، والأفضل الاعتراف الفوري بالعجز . وقد قبل الرشيد ذلك وطلب معرفة الحلّ . فقال الضبي : هو بيت جميل :

ألا أيُّها الرَّكْبُ النِّيامُ ، ألا هُبُّوا . . .

ثم أدركه الشوق فقال :

أُسائِلُكُمْ ، هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ ؟

فقال الرشيد : «صدقت» .

وكان من الطبيعي أن يحاول الرشيد ردّةً ، مُلغِزاً في بيتٍ ، معبّراً عن ذلك اللغز بشكلٍ مُعجز لتتعادل الكفّتان . فقال : «فهل تعرف أنت بيتاً أوّلُه أكثمُ بن صيفي في أصالة الرّأي ونبل العظة ، وآخره بقراط في معرفة الداء والدواء ؟ . ولقد أصاب الرشيد خصمه في الصميم فما حار جواباً ، بل لقد استبدّ به الفضول لمعرفة الحلّ . فاعترف هو الآخر بعجزه : «هوّلتَ عليَّ يا أمير المؤمنين ؛ فليت شعري ، بأيّ مَهرٍ تُفتضُّ عروسُ هذا الخِدر ؟» قال : بمَهر إصغائك وإنصاتك . ثم أنشده بيت أبي نواس :

دَعْ عنكَ لومي فإنّ اللّومَ إغراءُ   وداوني بالّتي كانتْ هيّ الدّاءُ[1]

ولا يسَعُنا ، بعد رواية هذه المناظرة ، إلاّ أن نتوقّف قليلاً أمام لُغةِ الحديث فيها التي ، إذا صحّت بتفاصيلها ، كانت دليلاً آخر على أنّ الإلغاز وليد تعاملٍ طويلٍ مع الأدب . فهي ليست لغة الحديث العاديّ ، ولا أسلوبَ حِوارِ السمّار ، إنّما هي لغة المتأدّب ينتقي ألفاظَهُ ويُحمّلُها الصورةَ المستمدَّة من ثقافته الغزيرة لجَعلها بعيدةً عن حوار العامة والسطحيين من مدّعي الأدب . إنّها أناقةٌ خاصّة تقوم على اللفظ المختار وعلى المعنى الخفيّ اللطيف وعلى موسيقى التوازن ، داخل أجزاء الجملة وبين هذه الأجزاء ، فضلاً عن بعض السجع . وهذا كلّه يذكّرنا ، إلى حدّ ما ، باللغة المختارة التي انتقتها طبقة الخاصة لتجعل بها حديثها في صالونات الأدب الفرنسيّة في القرن السابع عشر ، ترفّعاً عن لغة العامة وتميّزاً عنهم .

ولم يكن الضبيّ الشيخَ الوحيد الذي ناظره الرشيد ، فهناك الشيخ الذي كان

---

1 سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ج2 ص 946 .

لأمير المؤمنين معلّماً ورفيقاً وصديقاً ونعني به الكسائيّ . وكان الكسائيّ في البلاط حاضراً دائماً لإفادة تلميذه علماً أو لغة ، ولإفادة أبنائه أيضاً . كان الرشيد يقصد أحياناً أن يعقد المجالس بحضور وليّي عهده ، يحاول أمامهما أن يُثبت أدبه ، ويثيرُ أمامهما مواضيع الأدب المعروفة أو غير المعروفة ليكتسبا كل جديد عليهما ، كما رأينا . والمجلس الذي نتحدّث عنه ليس في الواقع مناظرة بمعنى الكلمة لأنّه لا يتميّز بتبادل أو بتنافس للآراء ، بل هو بالأحرى حلقة شبيهة بحلقات المساجد حيث يجلس الشيخ إلى أسطوانة ويلتفّ حوله تلامذته ، يملي عليهم ويجيب عن أسئلتهم . فالرشيد هنا وضع نفسه موضع طالب المعرفة والشيخ كان طبعاً الكسائيّ ، وأمّا السامعون فهم خاصة الرشيد ومن بقي في المجلس بعد انصراف عامّة أهله . وبدأت الجلسة بشكل عادي : سؤال من الرشيد للكسائي «يا علي ، ألا تحبّ أن ترى محمداً وعبد الله ؟» وجواب من الكسائيّ : «ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرّني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما» ! فلمّا أُحضرا ، جلس محمد عن يمينه وعبد الله عن يساره ، فاكتمل النصاب وبدأ الرشيد يدير الجلسة سائلاً تارةً ومعلّقاً أُخرى . لقد مرّت به أبيات خفيَ معناها عليه ، كما قال للكسائيّ ، أو هو عرف معناها وتجاهله تجاهل العارف ليستفيد من وجود الكسائيّ ويفيد وليّيِ العهد معرفة أدبيّة واتّجاهاً نفسيّاً دافعاً إلى العلم والحفظ ، والتواضع في طلبهما . والكسائيّ مستعدّ ليجيب فيشفي غليل خليفته السّاهر ليله مفكّراً في المعاني التي فاتته[1] ومن ذلك :

قد قلتُ قولاً لِلْغُرابِ إذْ حَجَلْ عليكَ بالقُودِ المَسَانِيفِ الأُوَلْ
تَغدَّ ما شئتَ على غيرِ عَجَلْ

وجاء جوابُ الكسائي نبذةً تاريخيّةً تنقل صورة من حياة الصحراء في الجاهليّة : «إنّ العير[2] ، إذا نَصَلَت من خيبر وعليها التمر ، يقع الغراب على آخر العير فيطرده

1 قال الرشيد : «يا علي ، ما زلتُ ساهراً مفكّراً في معاني أبيات قد خفيت عليّ» .
2 العير : الإبل التي تحمل الميرة . القود : الطوال الأعناق . المسانيف : المتقدّمة .

السوّاق» . والشاعر يدعو الغراب دعوة مُضيف ، بما أنّه حلّ عنده ، فهو ضيفه وأهلاً به ، ليس عليه أن ينقر خائفاً نقراً قليلاً من أواخر الإبل ، بل له أن يتقدّم إلى أوائلها غيرَ هيّاب ، إلى الطويلات الأعناق يحطّ عليها ويأكل شبعه بكلّ رويّة وتمهّل .

وممّا يطرحه الرشيد للشرح بيت عروة بن الورد :

وإنّي ، وإن عَشَّرتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى نُهاقَ حِمارٍ ، إنّني لَجَزوعُ

فيروي الكسائيّ نبذة أُخرى تنقل صورة ثانية من حياة الجاهليّين مُلخّصُها أنّ الرجل من العرب كان ، «إذا دخل خيبر ، أكَبَّ على أربع ، وعَشَّرَ تعشير الحمار ، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمّى خيبر» . . وتتتابع أسئلة الرشيد حول ما أسهره من معانٍ خفيت عليه ، وهي معانٍ ، في معظمها ، لا تتعلّق بكلمةٍ غاب عنه تفسيرها بل تتعلّق بنقطة حضاريّة ، بإحدى العادات البدويّة خفيت عليه لأنّه بَعُد جدّاً ما بين نمط حياته ونمط حياة الأعراب .

من ذلك أيضاً بيت الورك الطائي .

أجاعلٌ أنتَ بيقوراً مُضرَّمةً ذريعةً لكَ بينَ اللهِ والمطرِ ؟[1]

وأنّى للرشيد أن يدرك المعنى والبيت مرتبط بعادةٍ من أغرب العادات البدائيّة ؟ قال الكسائيّ في الجواب : «كان العرب ، إذا أبطأ المطر ، شدّوا العُشرَ[2] والسَلَعَ ، وهما ضربان من النبات ، في أذناب البقر ، وألهبوا فيه النار وشرّدوا البقر تفاؤلاً بالبرق والمطر» . وكأنّ إحداث البرق المصطنع يجلب المطر الحقيقي . ويظهر أنّ البقر الذي ارتبط بوجه من حياة الجاهليّين ارتبط أيضاً بكثير من عاداتهم الساذجة ، وتحمّل وزر هذه السذاجة . فكما تُربط النار بذيل البقر لإحداث البرق ، فإنّ القطيع منه ، إذا ورد الماء فشربت الثيران الذكور وأبت البقر الإناث ، ضُربت الثيران حتى تشرب

1 بيقور : اسم جمع للبقرة .
2 العشر : شجر لم يُقتدح في أجودَ منه .

البقر[1] . وهذا ما قدّمه الكسائيّ من شرح جواباً عن سؤال الرشيد حول البيت التالي :

فإنّي إذن كالثّـورِ يُضْرَبَ جنبُـهُ ... إذا لم تقفْ شَرباً ، وعافَتْ ، صَواحِبُهْ

وتتوالى الصور الحضاريّة البدائيّة مع أبيات ينشدها الرشيد وشرح يقدّمه الكسائيّ فالرشيد حيَّرهُ معنى البيتين :

لَعَمرُكَ ما لامَ الفتى مثلُ نفسِهِ ... إذا كانت الأحياءُ تُعدى ثيابُها
وآذنَ بالتصفيقِ مَن ساء ظَنُّهُ ... فلَمْ يدرِ مِنْ أيِّ اليَدينِ جَوابُها

فأزال الكسائيّ حيرته بقوله : «نعم ، يا أميرَ المؤمنين ، كان الرجل ، إذا ضلّ في مفازة قلَبَ ثيابه وصاح ، كأنّه يومىء إلى إنسان ، ويشتدّ شِدَّةً ويُصفِّقُ بيديه ، فيهتدي إلى الطريق» . فكأنَّ الناس عرفوا ببديهتهم أنّ نفْس الإنسان هي عدوُّه الأكبر ، منها يأتي خوفه لا مِن سواها ، فإذا خلا بها في مفازة حدّثته الأحاديث وهيّأت له التصوّرات التي تجعله يضطرب ، فيفقد التبصّر والطريق ، ولا يجد خلاصاً إلاّ في تعطيل تلك الخلوة ، فيقوم بما ذُكر من قلب ملابس وصراخ وتصفيق وإحداث ضجيج .

وفي مرّات قليلة كان خفاء المعنى الذي سأل عنه الرشيد عائداً إلى استعمال لفظ على غير ما عُهد به . كاليتيم الذي يعني الواحد من كلّ شيء والأرانب التي تعني الآكام في البيت التالي :

قَـوداءُ تملِـكُ رَحْلَهـا ... مثـلُ اليتيـمِ مِـنَ الأرانِبْ

وكالإناث والذكور كناية عن الأسنان والأضراس في قول الشاعر :

وسربِ مِلاحٍ قد رأيتُ وجوهَهُمْ ... إناثٌ أدَانيـهِ ، ذكـورٌ أواخِرُهْ

---

1 شبيه بذلك قول طرفة عن الجمل يذهن بالقطران لكي يشفى جمل آخر أجْرب : «كذي العرِّ يُكوى غيرُه وهو راتعُ» .

وكالبرقاء استعارةً للعين التي فيها السواد والبياض ، والمنحدِر للدمع الذي ينحدر منها لدى ذكر فراقٍ أو حبيب بعيد :

ومنحـدِرٍ مـن رأس برقاءَ حَطَّهُ   تَذَكُّـرُ بَـيْنٍ أو حبيبٌ مُزايِلُ

وانتهى المجلس . فوثب الرشيد ، فجذب الكسائيّ إلى صدره وقال : لله دَرُّ أهلِ الأدب ! ثم دعا بجاريةٍ فقال لها : احملي إلى منزل الكسائيّ خمسَ بِدَرٍ على أعناقِ خمسةِ أعبُدٍ يلزمون خدمته[1] . وانتقل ، بعد ذلك ، إلى امتحان وليِّي العهد ، إنشاداً وشرحاً .

والمتابع لهذه الجلسة يجد فيها حتماً عمل الرواة ، في ترتيب عناصرها وجمعها وتسلسلها . فنحن نعجب كيف جمع الرشيد هذه الأبيات الممثّلة للعادات والتقاليد والمعتقدات البدويّة ، لأنّنا نقدّر ما تحتاجه مجموعة هذه التساؤلات من ثقافة شعريّة أدبيّة ، ومن عملٍ دائب مستمرّ ، بحثاً وتنقيباً ودراسةً ، إذ يستحيل أن تكون وليدةَ ساعتِها ، وهي أقرب إلى عمل المحترف منها إلى عمل الهاوي . ومن المعقول جدّاً أن يكونَ الرشيد قد طرح بعض هذه الأسئلة ثم نمت حولها الأسئلة الباقية ، بحكم المجاورة في النّوع ، وذلك ما بين القرن الثاني الهجري الذي عاش فيه الرشيد والقرن الخامس الذي ينتمي إليه البيهقي . وفي أحسن الحالات من حسن الظنّ تكون الأسئلة ، التي أوردت في مجلس واحد ، شذراتٍ وردت في مجالس متفرّقة . فالرشيد ، كما نعرفه ، لا يُستبعَد عنه خلق مجلس أدبي مشابه ، إنّما نستبعد أن يكون لديه الوقت والأناة لجمع هذه التساؤلات دفعة واحدة . . .

والرشيد ، مع عنايته بالشعر القديم ، كان يميل إلى تعاطي الشعر الرقيق في مجالسه . من هنا العلاقة الصافية التي ربطته بالعبّاس بن الأحنف ، شاعر الحبّ المتفرّغ له . كان الرشيد يحسّ أنّه ، هو أيضاً ، صنو حُبٍّ ومدمن غزل ، لذلك احترم التزام العبّاس فلم يخرجه عنه ، بل ثبّته فيه واستدعاه ، حين مرّ بحالات من الوجد والهيام ، فسأله واستشاره واستنشده . في حالة كهذه الحالات ، دخل العبّاس على

---

1 المحاسن والمساوىء ص 411 .

هارون ، فقال هذا : «أنشدني أرقّ بيت قالته العرب ؛ فقال : أكثر الناس في بيت جميل :

ألا ليتني أعمى أصمٌّ تقودني بثينةُ ، لا يخفى عليّ كلامُها

فقال له هارون : أنتَ ، والله ، أرقُّ منه حيث تقول :

طاف الهوى في عباد اللهِ كُلّهِمِ حتى إذا مرَّ بي ، من بينهم ، وقفا

قال العبّاس : أنت والله ، يا أمير المؤمنين ، أرقّ قولاً منّي ومنه حيث تقول :

أما يكفيكِ أنّكِ تملكيني وأنَّ الناس كلَّهُمُ عبيدي
وأنّكِ ، لو قَطعتِ يدي ورجلي ، لقلتُ مِنَ الهوى ، أحسنتِ ، زيدي[1]

ولئن لم يكن الرشيد ، فعلاً أرقّ من العبّاس وجميل ، فإنّ العبّاس أحسن ، بلا شكّ ، اختيار بيتَي الرشيد المشابهين لما جاء من معنى في بيت جميل ، لأنّ جميلاً يتحدّث عن الهوى الذي بلغ به مبلغاً اشتهى معه العاهة إذا قرّبته من محبوبته . وأبيات الرشيد تتحدّث عن الحبّ الذي يملك ويجعل العاشق يتقبّل العاهة إذا جاءته من معشوقه ، طالما أنّ ذلك يثبّت وجوده في ذاكرة المحبوبة . لكن السؤال هو : أيروي الرشيد شعر القدماء والمحدثين ، بمن فيهم العبّاس بن الأحنف ؟ أم أنّه ، وهذا أقرب إلى المعقول ، سمع ببيت العبّاس ، حديثاً ، فأعجبه وعدّه أرقّ بيت شعر عربي . ثم أراد امتحان العبّاس في مدى تقديره لشاعريته وتوقع منه أن يجيبه عن سؤاله بإنشاده بيته المذكور . إلاّ أنّ العبّاس كان أبعد نظراً وأكثر رقّة من أن يفعل ذلك . وهو ، حتماً ، قد فاجأ الرشيد بذكره لبيتيه الغزليين ، وأنهى هذه المبادلة بأفضل خاتمة : إعجاب الرشيد وضحكة منه .

وهذا التساهل الذي بدا من الرشيد قد يكون سببه مبادرة العبّاس إلى إطرائه وشعره ، لأنّه نادراً ما كان يقبل ألاّ تكون له الكلمة الأخيرة . كما جرى بينه وبين

---

1 تاريخ بغداد ج14 ص 11 .

إسحق الموصلّي : فالمعروف عن إسحق أنّه مغنّ مبدع وشاعر رقيق وراوية خطيب فقيه في آن واحد . وقد أدخل إلى الرشيد وهو في حالة أخرى من حالات الوجد كان يحتاج فيها إلى شعر يأسو جرح بُعد الأحبّة . فسأله عن أحسن ما قيل في رياضة النفس على الفراق فأجاب : قول الأعرابي :

وإنّي لأَسْتَحْيِي عُيوناً ، وأتّقي كثيراً وأستبقي المودّةَ بالهَجرِ
فأُنذرُ بالهجرانِ نفسي أرُوضُها لأعلمَ ، عند الهجرِ ، هل ليَ من صَبْرِ ؟

فقال الرشيد . هذا مليح ، ولكنني استملح قول أعرابي آخر :

خشيتُ عليها العينَ من طولِ وصلِها فهاجرتُها يومينِ ، خوفاً من الهجرِ
ومـا كان هجراني لهـا عن مَلالةٍ ولكننـي جرّبـت نَفْسيَ بالصَّبرِ[1]

وتكاد الأبيات التي أنشدها إسحق تساوي الأبيات التي رواها الرشيد في دلالتها وتفاصيل معناها . ولكن الرشيد أبى إلاّ أن يكون مناظراً لا مجرّد مستمع إلى جواب . بل قد يكون طرح سؤاله ليدلي بدلوه مظهراً سعة اطّلاعه ومعرفته ، وإلاّ ، ما معنى سؤاله إسحق في موضوع عنده جواب له ، وجواب مُرْضٍ لا يقبل عنه بديلا ؟

6 ـ بين شعراء البلاط

لا يمكن الحديث عنهم مِن دون الإشارة إلى تنافسهم الدائم . ونحن نجد للتنافس الذي ينشأ بين الشعراء بشكل عام ، مسوّغاً طبيعيّاً لرغبة التفوّق عند كلّ منهم ، الرغبة التي تدفعهم إلى إحراز الإعجاب واستقطاب التقدير . ولقد كان هذا شأنهم دائماً ، كما كان مولّداً لمساجلاتٍ ومناظرات ، منها ما كان خارج البلاط ، ومنها ما كان داخله . إلاّ أنّ المنافسة ، إذا وصلت إلى بلاط الرشيد ، كان معها ، إلى جانب الرغبة في التفوّق ، حبّ الكسب المادي ، المحرّك الطبيعي لكل مبادرة ، بما فيها المبادرة الفنيّة ، وذلك نظراً لما عرفناه عن سخاء الرشيد وسرعته في العطاء تعبيراً عن إعجابه . لهذا كانت بعض المناظرات تبدأ خارج البلاط ، ولكنّها تُحمل إليه وتعرض

1 الحصري – زهر الآداب ج4 ص 1008 .

على الرشيد ليتمتّع بها أو يكون حكَماً فيها فتتوّج نهايتها برفد منه أو بنفوذ معنوي ينجم عن إرضائه . من ذلك ما جرى بين أبي العتاهية ومحمد بن مناذر من تنافس . فإنّه من النوع الذي أشرنا إليه : بدأ خارج البلاط إذ لقي أبو العتاهية «محمد بن مناذر بمكّة ، فمازحه وضاحكه[1] ، ثم إنّه دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في سنة ، وأنا أقول في سنة مئتي قصيدة . . . فأدخلَه إليه وقال : ما هذا الذي يحكيه عنك أبو العتاهية ؟ . . . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عُتْبَةَ السّاعةْ ... أموتُ الساعةَ الساعةْ

لقلت منه كثيراً . ولكني الذي أقول :

إنّ عبدَ المجيدِ ، يومَ تَولّى ، ... هَدَّ رُكناً ما كان بالمَهدودِ

ما دَرَى نَعشُه ولا حامِلوهُ ... ما على النعش من عفافٍ وجودِ

فقال له الرشيد : هاتها فأنشدنيها . فأنشده . فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلاّ في خليفة أو ولي عهد . ما لها عيب إلاّ أنّك قلتها في سوقة . وأمر له بعشرة آلاف درهم «فكاد أبو العتاهية يموت غمّاً وأسفاً»[2] .

---

1 لعلّ المقصود بذلك أنّ التنافس بينهما بدأ بشكل مزاح وتطوّر إلى جدّ وإلاّ فليس هناك مسوّغ لذكر مزاح الشاعرين في مكّة وربطه بمناظرتهما أمام الرشيد .

2 الأغاني ج18 ص 140 والمستطرف ص 61 .

ولعلّ أبا العتاهية لم ينس هذا الموقف لابن مناذر وظلّ يصمّم للانتقام منه وإحراجه . وإذ لم تسنح له الفرصة ثانية في البلاط فقد اغتنمها أوّل ما عرضت له خارجه فقال له : «شعرك مهجّن لا يلحق بالفحول ، وأنت خارج عن طبقة المحدثين . فإن كنت تشبّهت بالعجاج ورؤبة ، فما لحقتهما ولا أنت في طريقهما ، وإن كنت تذهب مذهب المحدثين ، فما صنعت شيئاً . أخبرني عن قولك : (ومن عاداك لاقى المرمريسا) . أخبرني عن المرمريس ما هو ؟ فخجل ابن مناذر وما راجعه حرفاً» . ويشير راوي الخبر إلى منافستهما قائلاً : «وكان بينهما تناغر» (الأغاني ج4 ص 92) .

وممّا تجدر ملاحظته سرعة تحوّل المنافسة من شخصيّة إلى بيئيّة . فلقد سبق أن أشرنا إلى التنافس الأدبيّ القائم بين بيئات المملكة المختلفة ، وأبرز وجوهه بين البصرة والكوفة ؛ والانتماء المدرسيّ نادراً ما يكون إراديّاً ، بل يأتي حُكماً بحسب المنشأ . فأبو العتاهية نشأ في الكوفة وهو محسوب على مدرستها ، وإن قضى معظم حياته في بغداد . وهو ، بطبيعة هذا الانتماء ، يتعرّض لابن مُناذر ، الذي يصنّفه منشوؤه بجانب أهل البصرة . وكأنّ أبا العتاهية ، بذكره لندرة إنتاج ابن مناذر ، كان يريد أن يسجّل نصراً جديداً للكوفيين ممّا جعل ابن مناذر يرد بقوّة وعنف وثقة ، فهو يردّ عن نفسه وعن البصرة التي يمثّلها[1] . وهذا ما يطالعنا أيضاً في المناظرة التي قامت بين منصور النمري ومروان ابن أبي حفصة :

فمناظرتهما ، هي الأخرى ، أحد مظاهر الصراع الأدبي بين أمصار المملكة ، لأنّ مروان بن أبي حفصة حجازي الأصل بينما منصور النمري من سكّان الشام . وهي تمثّل تنافساً بين شاعر بلاط له مكانه وقيمته فيه ، وله كذلك خطّه الأدبي ونهجه الشعري ، وبين الشاعر الحديث الورود إلى البلاط يشقّ طريقه إلى مجالسه . وهي تمثّل أيضاً ميل الرشيد مع شعراء بلاطه لأنّه يفخر بهم وبشاعريّتهم ، فهم كنزه ودعاته . وأخيراً ، هي تمثّل خلفيّات التحدّي الأدبي وما يولده هذا النوع من التنافس من غصّة في حلق المنافس عندما يتجلّى منافسه أمامه ويجيد[2] .

---

1 من غير المستبعد كذلك أن يعمد رواة الأخبار إلى إقحام الانتماء البيئي للشاعر في أخبارهم ليعطوها أبعاداً أوسع وأهمية أكبر .

2 يورد الأصفهاني الخبر كما يلي : «كان منصور النمري مصافياً للبرامكة وكان مسكنه بالشام . فكتب يسألهم أن يذكروه للرشيد ، فذكروه ووصفوه ، فأحبّ أن يسمع كلامه . فأمرهم بإقدامه ، فقدم ونزل عليهم ، فأخبروا الرشيد بموضعه فأمرهم بإحضاره . وصادف دخوله إليه يوم نوبة مروان . . . وكان مروان يقول قبل قدومه : هذا شاميّ وأنا حجازيّ . أفَتُراه يكون أشعرَ منّي ؟ ودخله من ذلك ما يدخل مثلَه من الغمّ والحسد . (الأغاني ج13 ص 141) .

وتبدأ المناظرة بإنشاد النمري قصيدته الرائية :

أميرَ المؤمنينَ ، إليكَ خُضنا غِمارَ الهَولِ من بَلَدٍ شَطيرِ[1]

فإذا هو أفصح الناس ؛ فداخل مروانَ الحسدُ له وقال : «وددتُ واللّٰه أنّه أخذ جائزتي وسكت» . وذكر النمري في شعره يحيى بن عبد الله بن حسن مشيراً إلى الأمان الذي أعطاه إيّاه الرشيد بعد أن تمكّن منه ، وإلى مِنَنه الكثيرة على آل عليّ جميعاً . فأصاب ما في نفس الرشيد وأحسن التخلّص إلى هذا الموضوع الحسّاس ، وأقام معادلة دقيقة بين رغبة الرشيد في الحكم المطلق ورغبته في أن يحفظ أهل بيته وأولاد عمّه . ويظهر أنّ هارون ، الذي بلغ منه الإعجاب مبلغاً كبيراً كان يطمع في متعة أكبر تولّدها منافسة بين شاعرين عظيمين ، وخصوصاً أنّهما خاضا موضوعاً واحداً هو وجهة نظر العبّاسيين في الخلافة . وكأنّه توقّع ردّة فعل النمري حين يسمع إنشاد مروان شاعر البلاط ؛ وهو ، بتتبّعه لهذا التصوّر ، ولِما ينتظر من تسلية ، انفرجت أسارير وجهه وراحت تتراءى على شفتيه ابتسامة استقرّت طيلة إنشاد النمري[2] ، وما لبث أن أومأ إلى مروان أنْ أنشِدْ ، فاندفع يقول :

موسى وهارونُ هما اللذانِ في كُتُبِ الأخبارِ يوجدانِ
من وَلَـدِ المهديِّ مهديّانِ مَـدّا عِنانَـين علَى عِنانِ
قد أطلق المهديُّ لي لساني وشدّ إزري ما بــه حَبَاني
مِنَ اللُّجَــينِ ومن العِقْيانِ عيديّــةٌ شاحِطـةُ الأثمانِ
لو خايَلَتْ دِجلَـةَ بالألبانِ إذن لَقِيلَ : اشتبَهَ النَّهرانِ

---

1 الأغاني ج13 ص 141 .

2 يصف الأصفهاني مظهر الرشيد على لسان مروان : «وكان يبتسم في وقت ما كان ينشده النمري ، ويأخذ على بطنه وينظر إلى ما قال» . (المرجع السابق ص 142) أمّا المرتضى فيقول : «وكان هارون يبتسم ويكاد يضحك للطف ما سمع» . (الأمالي ج4 ص 185) .

ولم يكن هذا الشعر يصلح لمنافسة قصيدة النمري ، ولا معانيه تداني ما قاله لِبَني عليّ منددّاً ومفنّداً على الطريقة التي عُرفت ، أصلاً ، لمروان . وكان من الطبيعيّ ألاّ يهتزّ النمريّ لهذا الإنشاد وأن يطمئن إلى سبقه وتفوّقه ، وخصوصاً أنّ مروان يعترف له بذلك في روايته للخبر . ولّما لم «يَعِج النمري بذلك ولا احتفل به» عاد الرشيد إلى التدخّل ، وأومأ إلى مروان : «أنْ زدْه» . فعدل مروان إلى شعره المعهود الذي اعتاد أن يؤكّد فيه وجهة نظر العبّاسيين بمقابل ما يدّعيه العلويّون ، وكأنّه أدرك أنّ النمريّ هاجمه في عقر داره بسلاحه فلا معنى لأن يجابهه وهو أعزل . فأنشد ميميته المشهورة :

خَلّوا الطريقَ لمعشرٍ عاداتُهمْ　　حَطْمُ المناكِبِ كلَّ يومِ زِحامِ[1]

ومع ذلك فلم يتأثّر النمري ولم يتزحزح عن ثقته بنفسه وبالفوز . وجاء دوره في الإنشاد فقال :

إنّ لهــارونَ إمــامِ الهُــدى　　كَنزيــنِ مِــنْ أجرٍ ومِنْ برٍّ[2]

كما أنشده أيضاً :

ولِئن أضاعَ ، لقد عهدتُك حافظاً　　لوصيّةِ العبّــاسِ بالأخــوالِ[3]

---

1 ومنها :

وارضَوا بما قسَمَ الإلهُ لكمْ بــهِ　　ودَعُوا وراثةَ كلِّ أصْيَــد حــامِ
أنّى يكونُ ، وليس ذاك بكائنٍ ،　　لبني البناتِ وراثــةُ الأعمــامِ ؟

(الأغاني ج13 ص 142 وأمالي المرتضى ج4 ص 185) (وحام : تعني من يحمي الذمار) .

2 ومنها :

يَــريشُ ما تبرى الليــالي ولا　　تَريشُ أيديهــنَّ مــا يبــري
كأنّمــا البــدرُ على رَحلِــهِ　　ترميــكَ منــهُ مُقلتــا صَخــرِ

(أمالي المرتضى ج4 ص 186) .

3 المرجع السابق .

لكن الرشيد لم يتخلّ بسهولة عن موقفه في التحزّب لمروان ، فأعطى مروان مئة ألف ، وأعطى النمري سبعين ألفاً[1] .

والآن ، بعد هذه الجولة مع أدب البلاط ، نستطيع تأكيد أثر الرشيد الكبير في تحريك المظاهر الأدبيّة في بلاطه ، بل في طبع أدب العصر ، لا بما أعطاه من جوائز سنية وما أجراه على العاملين في ميدانه فحسب ، وإنّما بما مارسه هو نفسه من تعامل أدبي وبما خلقه من تنافس ، كان ، أحياناً كثيرة ، طرفاً فيه . وهذا ما نستكمله في فصول لاحقة حين نتناول ببحثنا مجالس السؤال والامتحان والإجازة ، ومجالس النقد الأدبي . إنّما لا بدّ لنا من تعليق أخير على نوع الروايات التي طافت بمجالس الرشيد وصوّرتها لنا . فإذا كان فيها تصنّع وافتعال ، وإذا أصابها ، أحياناً ، إضافة وتكثيف ، فممّا لا شكّ فيه أنّ فيها مبلغاً وافراً من الحقيقة ، إذ ما كانت لتنشأ من العدم ، وما كان الرواة والمؤلّفون لينسبوا ما جاء فيها إلى الرشيد لولا قناعة منهم بأنّ شخصيّة الرشيد ، بما هو معروف عنه ، قادرة على استيعاب المنسوب وهضمه . ونحن لا نعني بهذا تلك الأساطير التي حيكت حوله ولا الأخبار التي وردت في «ألف ليلة وليلة» ، وإنّما روايات نقلها إلينا أقطاب ، في معظمهم ، ثقات ، يحسنون التقدير ويخلصون الأداء ، وكثيراً ما يتقصّون الأخبار .

---

1 يعلّق راوي الخبر قائلاً : «فكان مروان يتأسّف على هذا المعنى أن يكون قد سبقه إليه وإلى قوله :

وما لِبَني بنــاتٍ مــنْ تُـراثٍ   مع الأعمـامِ ، في وَرَقِ الزّبورِ

(الأغاني ج13 ص 143) .

الفصل الثالث

مجالس الاختبار

«دخل أبو الغول على الرشيد ، فأنشده مديحاً له ، فقال الرشيد : أبا الغول ، قال : لبّيك ، يا مولانا ، أمير المؤمنين . قال : إنّ في أنفسنا من شعرك شيئاً ، فلو كشفته بشيء تقوله على البديهة . قال : والله ما أنصفتني ، يا أمير المؤمنين . قال : ولِمَ ؟ وإنّما هذا امتحان ! قال : لأنّك جمعت هيبة الخلافة وجلالة الملك وحيرة الاقتضاب . على أنّي أرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد . . .»[1] .

1 ـ الرشيد والمحك الأدبي

كنا ، من قبل ، نتحدّث عن البلاط وعن دور الرشيد فيه كصاحب له وكمشارك في مجالسه ، إلى جانب أقطابه ، وكهدف لكثيرٍ ممّا قيل فيه . ونحن ، الآن ، نواجه صورة جديدة للرشيد الأديب وهي صورة الحاكم السياسي الذي ينصّب نفسه حكماً أدبيّاً ، مستمدّاً نفوذه من موقعه السياسي بالذات ، ومن إمكاناته الكبيرة في التحكّم بظروف الناس ، وَأَوضاعهم وثرواتهم ، وحتى بأَعْمارِهم . وكان أقربُ الناس إليه هم أكثرهم تعرّضاً لأحكامه ولامتحانه ، يضعهم على المحكّ ، يسبر أغوار معرفتهم ، ويمتحن صدقَ إحساسهم الفنّي بسلسلة لا تنتهي من الإثارة وردود الفعل ، بقدر أهواء نفسه التي لم تعرف الحدود ، عدّاً ونوعاً . ذاك أنّ نفسه ، التي وصفناها بالتعطّش إلى المعرفة ، كانت تحفزه دائماً إلى الاستزادة من هذا المنهل . فإذا هو يسأل ويسأل ليطفىء سُعار فضوله الأدبي .

---

1 طبقات الشعراء ص 149 .

وهو ، إذ يختار جليسه أو يستقبل شاعراً للمرّة الأولى ، يترفّع عن الحكم عليه بالشعور الفوريّ الآنيّ والتأثّر اللا واعي ، بل يصمّم على أن يكون حكمه قائماً على قناعة عقلانيّة بجدارة الجليس ، أو بصدق موهبة الشاعر ، فتكون عملية امتحان دقيق شامل ، حيناً ، أو حَكّ للقدرة على الارتجال حيناً آخر ، أو استشفاف لصفاء ذهن الأديب وتمكّنه من إدراك الخفيّ الذي يجول بذهن الخليفة ليصوغه أدباً وفنّاً ، أو إجازة لشعرٍ يطرحه عليه بشعر آخر يتمّم معناه وأغراضه . وهذا الخفيّ الذي يجول بذهن الخليفة متفاوت الأهميّة الموضوعيّة ، إلاّ أنّه ، بالنسبة إلى الرشيد ، مهمّ دائماً مهما بلغ من التفاهة في نظرنا . وهو ، نظراً لطبع الخليفة المتوفّز ، مُلِحٌّ دائماً ، يتطلّب السريع من الإجابة والفوريَّ من الإشباع ، أيّاً كان القلق والاضطراب اللذان يسبّبهما للأديب المطلوب ؛ بل إنّ هذا الاضطراب ، الذي تعقبه جوائز الرشيد السخيّة ، يصبح متعة للأديب وقبلة أنظار روّاد البلاط ، لأنّ في حسن الإجابة عن السؤال المطروح منجاة للمذنب وإطلاق للأسير وغنًى للمعدَم ، وزيادة فوق زيادة للميسور المنعَّم .

فالرشيد يعطي كثيراً مقابل قليل يأخذه . إذ ما قيمة نصف بيت يخطر ببال الرشيد ، ليدفع المبالغ ويرسل الرسل مقابل معرفة نصفه الآخر ؟[1] وما قيمة أبيات من الشعر يقولها شاعر ليُرفع بسببها الحيفُ وسيف النقمة عن قبيلة ربيعة ؟[2] . وما قيمة بيت من الشعر يجول بخاطره ليخرج أبا نواس[3] أو أبا العتاهية[4] من الحبس فيجيزه ويحظى بالعفو الذي جهد سابقاً في الحصول عليه ، دون جدوى ؟ والرشيد ، بمفاجآته التي تطلع بأسئلته وتحرك امتحانه ، يجعل جلساءه وشعراءه وقاصديه ، وحتى مجمل أدباء عصره ، في حالة توفّز وترقّب . فلا منهجيّة توحي بسياق يتبع ، ولا مؤشّرات واضحة ترسم خطّاً يقود إلى هدف محدّد ، ولا قاعدة ثابتة ، إذا طُبّقت

1 راجع المزهر ج1 ص 101 سؤال الرشيد عن صدر . «ومَن يسالُ الصعلوكَ أين مَذاهبُهْ ؟» .
2 راجع الأغاني ج13 ص 153 وأمالي المرتضى ج4 ص 187 .
3 انظر أخبار أبي نواس لأبي هفان ص 72 سؤال الرشيد عن شعر في / وحْي مَقْمورٍ بِدَرْد / .
4 الأغاني ج4 ص 76 .

مرّة كانت سُنّة لمرّة أُخرى . الجميع عرضة للسؤال ، بل يرغبون في أن يقع عليهم السؤال . والكلّ يخافون من السؤال المجهول الذي قد لا يعرفون له جواباً ، فتذوب حينها ، من بين أناملهم ، فرصة السعادة ، أو تختفي من أمام عيونهم إشراقة الحظ .

والرشيد ، كما يبدو ، قد أُغرم غراماً شديداً بعمليات الاختبار هذه . ومن يدري ؟ لعلّها كانت تُرضي ميله البارز إلى التفوّق . لأنّه ، حين يكون هو السائل الممتحن لشيوخ اللغة وأساتذة الأدب ونوابغ الشعر ، وحين يتسابق هؤلاء جميعاً إلى إرضائه وإجابة سؤله ، فهذا دليل على أنّه ضليع في الميدان ، وترصيعٌ لصفة الخليفة الأديب التي طالما حاول الاتّصاف بها[1] . بل أكثر من ذلك . فالرشيد ، حين يرهن الأقطاب المشار إليهم لأهوائه ونزعات نفسه ، يُرضي في نفسه شعوراً من الأنانية لازمه طيلة حياته وجعله يظهر ، بين الحين والحين ، بمظهر طفلٍ كبيرٍ مدلّل ، وهذه طبيعة لدى بعض الشعراء والفنّانين .

ولكي نستطيع تصوّر حالة الأمل والترقّب التي يعيشها كبار الناس ومنهم فحول الشعراء ، بانتظار إشارة من الرشيد وسؤال ، ثم عمق الحسرة التي تنتابهم في حال العجز عن إرضائه ، نذكّر بالخبر الذي رواه الأصفهاني عن موسى السلولي حين كان بباب الرشيد والناس وقوفٌ وفيهم وجوه العرب من مختلف أرجاء المملكة ، إذ خرج وصيف يقول : «يا معشر الصحابة ، إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : من كان يروي قصيدة الأسود بن يعفر :

نامَ الخليُّ ، وما أُحسُّ رُقادي والهَمُّ مُحتَضِرٌ ، لَدَيَّ ، وِسادِي

فليدخلْ ، فلينشدْها أميرَ المؤمنين وله عشرةُ آلاف درهم»[2] . ولا شيء في الخبر يدلّ على أنّ الرشيد كان لا يعرف القصيدة . وفي رأينا أنّ طلبه الإنشاد ليس طلب التعرّف على شيء يجهله ، بقدر ما هو امتحان لمعرفة الطائفين ببابه . ولو أنّ هدفه كان مجرّد

1 راجع «شعر الغزل عند الرشيد» .

2 الأغاني ج13 ص 16 .

الاطّلاع أو مجرّد الإنشاد للجأ إلى البيدق ينشد ويجوّد ، أو للأصمعيّ يعرض ويعلّق ويشرح . ولكنّه الامتحانَ أراد وضرباً من التكريس لأهميّة الشعر التقليدي وتوجيهاً إلى تداوله وحفظه عن طريق إشهار اهتمامه به وميله إليه . ولقد راح الحاضرون المترقّبون ينظر بعضهم إلى بعض . فلم يكن فيهم أحد يعرف القصيدة . وكانت خيبة أمل للرشيد ، وخيبة أكبر للروّاد . فكم ممّن وقفوا بالباب تلك الليلة ، ولم يرووا شعر الأسود بن يعفر ، رجعوا إلى بيوتهم متحسّرين يلومون أنفسهم ! وكم منهم من نتصوّرهم أكبّوا على كتبهم ودفاترهم يبحثون فيها ، أو انكفأوا إلى أشياخهم يسألونهم ، أو قصدوا الأعراب شعراء القبائل يستنشدونهم شعر الأسود بن يعفر أو شعر أي أسود آخر أو أبيض من الجاهليّين قد يخطر ببال أمير المؤمنين أن يسأل عنه في ليلة فريدة من ليالي العمر ؟[1] . . . وهذه الحادثة تبرز لنا نمطاً من أنماط اختبارات الرشيد التي ، لكي نستطيع دراستها بشكل واف ، لا بدّ من تصنيفها وتجزئتها .

2 ـ مجالس السؤال

وهي مجالس محورها وأسلوبها أدبي وخلاصتها معرفة أدبيّة ، إنّما فصلناها عن المجالس الأدبيّة لأنّها عادة تكون من جانب واحد . فليس فيها مساجلة أو مناظرة ؛ ليست إلاّ جواباً ، من أحد الموجودين أو بعضهم ، عن سؤال يكون الرشيد صاحبه . أمّا موضوع هذه الأسئلة فمتشعّب متفرّع . هو تارة أفضليّة شعريّة ، كسؤال الرشيد «لجماعة من أهله وجلسائه : أي بيت مُدح به الخلفاء ، منّا ومن بني أميّة ، أفخر ؟ فقالوا وأكثروا» . ولمّا لم يتّفقوا على رأي ولم يستطع أحد إقناع الرشيد برأيه ، حسم هارون الخلاف بقوله : «أمدح بيت وأفخره قول ابن النصرانيّة (يعني الأخطل) في عبد الملك :

---

1 يقول الحكم السلولي راوي الخبر : «فأمرني أبي فرويت شعرَ الأسود بن يعفر من أجل هذا الحديث . . .» .

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهمْ وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قدِروا[1]

والرشيد هنا ، كعادته في اختبار جلسائه ، لم يكن يسأل للمعرفة ، بل يسأل للامتحان ، ولمقارنة رأي جلسائه برأيه والتعرّف على الذين يشاركونه وجهة نظره ، إذا وُجدوا ، أو تطبيع الموجودين بميوله . وهذا الاختبار حسّاس جدّاً ومن الصعب اجتيازه بنجاح . فأنّى للجليس أن يعرف الشعرَ الذي يضمره الرشيد ؟ الشعراء لا يحصون عدداً ، وقصائدهم في الملوك كلّها مدح يورث فخراً ، وأي بيت اختير لأي شاعر من أيّ قصيدة مدحيّة قد يفي بالمطلوب ، دون أن يطابق ما أخفاه الخليفة في ذهنه . وبالمقابل لهذا النوع من الأسئلة ، حين يطرح الرشيد سؤالاً ليس في ذهنه إجابة عنه ، لا يَقبل أوّلَ ردّ يتلقّاه . لأنّه ، إذا لم يكن في خزانة معارفه نموذج لما يطلبه ، فإن في نفسه وأحاسيسه تصوّراً واضحاً لما يمكن أن تكون عليه الإجابة المثالية . وكلّ إجابة لا تشبع هذه الأحاسيس تبقى هامشية التأثير ، مرفوضة . ونأخذ على ذلك مثل مجلس حضره عبد الله بن مصعب مع جلساء آخرين فقال الرشيد : «أنشدوني شعراً حسناً في امرأة خفرة كريمة ؛ فأنشدوا فأكثروا» وعبد الله ساكت . فقال له الرشيد : «إيهٍ يا ابن مصعب ! أما إنّك لو شئتَ ، لكفيتنا سائرَ اليوم» . فقال : «نعم يا أمير المؤمنين ، لقد أحسن محمد بن بشير الخارجي حيث يقول :

بيضاءُ ، خالصةُ البياضِ ، كأنَّها قَمَرٌ تَوَسَّطَ جُنحَ ليـلٍ مُبْرَدِ
خَوْدٌ ، إذا كَثُرَ الكلامُ تَعَوَّذَتْ بحِمى الحياءِ ، وإن تكلَّمْ تَقْصُدِ . . .
(الأبيات)

قال الرشيد . هذا والله الشعر ، لا ما أنشدتمونيه . ثم أمر مؤدّب ابنه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، فروّاهما الأبيات»[2] . ومن الواضح في هذا الخبر أنّ صورة المرأة الخفرة التي يطلب وصفها ماثلة لعينيه وإن لم تمثل في ذهنه الكلمات التي تصفها .

---

1 الأغاني ج11 ص 61 .

2 الأغاني ج16 ص 70 .

فلم يكن مستعدّاً لقبول ما لا ينطبق عليها ، لذلك لم يرضه إلاّ شعر الخارجي ، على عداوته للخوارج عامّة .

وقد يكون الحافز على السؤال حالة نفسيّة يمرّ بها الرشيد ، أو أزمة عاطفية مع إحدى نسائه أو بعض جواريه ، فيتوقّع من الجواب أن يصف وضعه فيسرّي عنه ، أو يصف وضعاً مشابهاً فيخترع نهاية شاعريّة له يقتبسها الخليفة مَخرَجاً له من أزمته ، أو يعطيه حجّة ومسوّغاً لمعاودة وصل ما انقطع مع المُدِلّةِ عليه ، دون أن يُذلّ كبرياءه . وقد مرّ بنا بعض هذه الحالات حين تحدّثنا عن استجابته للمثير الأدبي . ونكتفي هنا بالإشارة إلى المجلس الذي طلب فيه من إسحق الموصليّ أن ينشده أحسن ما يعرف عن «عتاب محب وهو ظالم متعتّب» فأنشده أبياتاً لجميل ، منها :

ومِنْ لذَّةِ الدُّنيا ، وإن كنتَ ظالماً ، عناقُـكَ مظلومـاً ، وأنت تُعاتِبُهْ

فقال . «أحسن واللهِ ، أعِدْها عليّ» فأعادها حتى حفظها وأمر له بثلاثين ألف درهم ، ثم تركه فدخل إلى دار الحرم[1] .

ولا شكّ في أنّ القارىء لهذه الأخبار يعجب بالفعل لهذه النخبة من رجال الأدب والفن الذين أحاطوا بالرشيد ، أطافوا ببلاطه وبنفسه وعواطفه ، واختزنوا الكثير الكثير ، من الشعر والروايات ، للساعة الحرجة[2] . ولسنا ندري كيف كانوا يختارون حفظهم : هل كان موجّهاً لما يُمْكِنُ أن يخدمهم في إحدى لحظات السؤال الملكي ، كما كان يفعل الأصمعي[3] ، أم إنّه حفظ شامل جامع لا بدّ للسائل من أن يقع فيه على جواب عن سؤاله ؟ فالمتأمّل لجواب إسحق وللبيت الأخير بالذات ، يفهم قصّة الرشيد التي حفزتـه على السؤال ، ويستشفّ نهاية القصّة ، التي ابتدأت مع هـذا البيت ، لتنتهي على أحلى وألطف ما تكون نهاية لقصّة عاطفيّة . . .

---

1 الأغاني ج8 ص 147 .

2 راجع خبر تحضير سلم الخاسر للمراثي قبل موت أصحابها في الأغاني ج19 ص 230 .

3 تاريخ بغداد ج14 ص 9 .

وإذا كان هذا النوع من الأسئلة يسهل التكهّن بحوافزه ، فهناك أسئلة أُخرى لا يمكن استقراؤها ، السبب لأنّه لا شيء في الرواية يدلّ عليه ، اللهمّ إلاّ أن يكون الرشيد ضجراً فيخطر بباله أن يتسلّى بمنظر صراع أدبي بين الجلساء ، يحاول كلّ منهم فيه أن يتفوّق على سواه ليحظى بالرضى ، وبما بعد الرضى ؛ فيكون أن يطرح الخليفة موضوعاً يحاول جعله صعباً لم يسبق أن كثر الكلام فيه ، كقوله يوماً لجلسائه : «أنشدونا ما قيل في وصف العُقاب . فسكت القوم ولم يأتوا بشيء . فقال الأصمعي : أحسن ما قيل فيها :

باتتْ يُؤَرّقُها في وكرها سَغِبٌ   وناهِضٌ يخلِسُ الأقواتَ مِن فِيها

وقال امرؤ القيس :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ ، رُطباً ويابساً ،   لدى وَكرِها ، العُنّابُ والحَشَفُ البالي

فقال له الرشيد . ما بَعِلَ القومُ في شيء إلاّ وجدتُ عندك فيه شيئاً . . .»[1] .

وقد يكون سؤال الرشيد سؤالَ عاتب غامز من طرف خفي إلى خبر سمعه عن جليس ، فيأتي طرحه له نوعاً من الاختبار لحقيقة الولاء للخليفة أو للبلاط أو للحكم العبّاسي ؛ كموضوع السواد مثلاً : فهذا اللون رمزٌ للعباسيّين وشعارٌ ، به صُبغت أعلامهم وملابسهم الرسميّة . اعتمدوه لاحتفالاتهم فاختاره الناس إرضاءً لهم ، أو حبّاً بهم ، أو خوفاً من مخالفتهم . وكان الذين ينقمون عليهم تقصيراً بحقّهم ، أو الذين ينتمون إلى شيع مناوئة ، يبلورون نقمتهم بإنكار لبس السواد ، حتى إنّ أوّل ما يفعله المتمرّدون على الدولة هو إبطال لبس السواد ووقف الدعاء للخليفة على المنابر . من هنا شكّل السواد موضوعاً لاختبار الولاء للحكم . وقد توجّه الرشيد بالسؤال إلى أبي يوسف القاضي : «بلغني أنّك لا ترى لبس السواد[2] . فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ

---

1 أبو هلال العسكري – ديوان المعاني – ج2 ص 142 . بَعِلَ بأمره : تحيَّرَ .

2 لعلّه أراد لبس السواد في مناسبات كالمآتم وسواها ، وبهذا نجد مسوّغاً لطرح السؤال على الفقهاء .

وليس في بدني شيء أعزّ منه ؟ قال . ما هو ؟ قال السواد الذي في عيني» . وكأنّ الرشيد أراده امتحاناً عامّاً فالتفت إلى الشافعي ، وكان حاضراً[1] ، وطرح عليه السؤال . ولم يكن الإمام ليمالىء الخليفة كما فعل قاضي القضاة ، فأجابه : «لا أحرّمه ، ولكني أكرهه» . ولعلّ الرشيد فوجىء وعجب من أن يؤمّ بلاطه من لا يحب السواد . أو لعلّه كان يعرف موقف الشافعي فافتعل سؤال أبي يوسف كبداية ليصل الدورُ إلى الشافعي ، ولا نستبعد أن يكون ذلك كلّه شركاً نصبه أبو يوسف بموافقة الرشيد مقترحاً الاختبار ، موزّعاً الأدوار . والشافعي كان عنده تسويغ لأنّه لا تجلى فيه العروس ، ولا يلبي فيه محرم ولا يكفَّن فيه ميت» . ولم يكن الرشيد مجادلاً متكلّماً ليستطيع مقارعة الشافعي . فكاد أن يسقط في يده لولا أن التفت إلى أبي يوسف : «ما تقول أنت في السواد ؟ فلبّاه صاحب الفتاوى على الفور : «النور في السواد» . فاستحسن الرشيد ذلك . ولكن خيال أبي يوسف كان قد انطلق من عقاله ، فقال : «وفضيلةٌ أُخرى ، يا أمير المؤمنين . قال : وما هي ؟ قال . لم يُكتب كتابُ الله إلاّ به»[2] . فأتى على كل ما ساور الرشيد في لحظة الضعف السابقة ، ورسَّخ فلسفة السواد إذ ربطه بكلام الله المقدّس . «فاهتزّ الرشيد من النشوة» . . . ومن الواضح أنّ الفرق بين الجوابين هو الفرق بين المجيبين : بين الإمام الذي يقول ما يقتنع به ، لا يستهويه جاذب دنيوي ، وبين قاضي القضاة الذي كثيراً ما سخّر علمه وفقهه واجتهاده لبعض أهواء الخليفة .

بقي أن نشير أخيراً إلى نمط من الأسئلة يختلف عن سابقيه : السؤال الذي

---

1 ورد ذكر الأوزاعي (لا الشافعي) في الخبر . ولكن الأوزاعي توفّي عام 159هـ ولم يدرك خلافة الرشيد ولا التقى أبا يوسف . وكذلك أبو حنيفة ، لم يدرك الرشيد إذ توفي عام 150هـ . ولم يجتمع مالك بأبي يوسف في البلاط لأنّه كان يأبى ارتياده ويصرّ على أن يأتيه الخليفة بنفسه إلى مكّة . والإمام الوحيد الذي أمّ البلاط وناظر أبا يوسف غير مرّة هو الشافعي . لذلك أثبتنا اسمه في هذا الخبر بدل الأوزاعي الذي ذكره النويري .

2 النويري – نهاية الأرب – ج4 ص 11 .

يَنشُد المتعة الأدبيّة ، سؤال يطلب وصفاً ويتوقّع أناقة في الأسلوب وجمالاً في المعاني ، مِن جليس عُرف عنه الفصاحة والبلاغة . من ذلك قول الرشيد للعبّاس بن الحسن الطالبي ، وكان من جلسائه : أراك تكثر من ذكر «يَنبُع» وصفتها ، فصفها لي وأوجز . قال : بكلام أو بشعر ؟ قال : بكلام وشعر . قال : جِدَّتُها في أصل عِذقها ، وعذقُها مُسرَّح شأنها . قال : فتبسّم . (قال) :

يا واديَ القصرِ نِعمَ القصرُ والوادي   من منزلٍ حاضرٍ ، إن شئتَ ، أو بادي
تَــرى قَراقيرَهُ ، والعيسَ واقفــةً   والضَبَّ والنُّونَ والمَلاّحَ والحادي[1]

وليس بعيداً جدّاً ، عن هذا الوصف لينبع ، وصف عبد الملك بن صالح لضيعته «مَنبِج» ولمنزله فيها . فقد قال له الرشيد يوماً : «أهذا منزلك ؟ قال : لأمير المؤمنين ، ولي به . قال : كيف ماؤه ؟ قال : أطيب ماء . قال : فكيف هواؤه ؟ قال : أصحّ هواء[2] . وسأله بعد ذلك أن يصف له مَنْبج فقال : «رقيقة الهواء ، ليّنة الوِطاء» . فسأله : «فكيف طيب مَنبج ؟ قال : عذبة الماء ، قليلة الأدواء . قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرٌ كلّه . . .»[3] .

هكذا يمضي الرشيد في سؤال جلسائه عن كلّ شيء وهم متحفّزون مترقّبون . وبمقابل تحفّزهم ، وترقّبهم لأسئلته وتجميعهم لأطراف الثقافة بهذا الهدف ، يقوى إحساس لدى الرشيد بأن كل ما يخطر بباله يمكن تحقيقه ، وأنَّ أيَّ سؤال يجول بخاطره لا بدّ من أن يجيب أحد عنه . وقد يحدث له ، كما يحدث لأي إنسان ، أن يردّد كلمة أو جملة جالت بذهنه ، ويكرّر تردادها دون أن يدري لذلك سبباً ، أو مصدراً

1 (الطبري تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 357) ويروي المسعودي الأبيات عن لسان ابن أبي عيينة في قصر محمد بن سليمان بالبصرة (مروج الذهب – دار الأندلس ج3 ص 338) .
2 ابن عبد ربّه – العقد الفريد – ج2 ص 129 . وانظر آثار البلاد ص 274 .
3 الحصري – زهر الآداب – ج2 ص 318 وقد أعجب الشعراء والرواة بهذا المعنى المختصر البليغ فأخذه الشعراء ، وتتبّعه الرواة من شاعر إلى آخر (انظر المصدر المذكور) .

للوحي ، ويحاول التخلّص منها فلا يستطيع ؛ وكلّما طردها من ذهنه عادت إليه ملحّة ملحّة . فيكون سؤال : تُرى ، هل الجملة هذه من بنات أفكاري أم أنّني سمعتها سابقاً ؟ وفي أيّ حال ، هل قال أحد شيئاً في مضمونها أو ألفاظها أو معناها ؟ والرشيد ، حين يمرّ بحالة كهذه ، لا يهدأ له بال ، إلى أن يجد الجواب عن سؤاله .

هكذا كان الرشيد يوماً يلاعب الفضل بن الربيع بالشطرنج إذ ولع بهذا المثل : وحي مقمور بِدَرْدْ / فجعل يردّده ، ثم قال للفضل : أترى أحداً من الناس قال في هذا شعراً ؟ فقال : إن كان أحد يفهم هذا فأبو نواس . قال : وأين الفاسق ؟ قال : في حبس أمير المؤمنين . فأمر بإحضاره فأُحضر . وبعد أن ادّعى التوبة عن شرب الخمر قال له الرشيد : «فهل قيل في / وحي مقمور بدرد / شعر ؟ قال : نعم ، بعض الأعراب يقول :

ليتَني في بيتِ وردْ مُنقَعاً في آب زردْ
فألاعبُها بنَرْدْ بين خَيرِيٍّ وورد
وأجاهرُها بفردْ وحيَ مَقمورٍ بِدَرْدْ»[1]

3 ـ مجالس الامتحان

وتختلف هذه المجالس عن سابقتها في إنّها تهدف بالفعل إلى اختبار الجليس ، مدى حفظه ، وبالأخصّ شاعريّته أو بديهته . والرشيد ، إذ يتولّى إدارة دفّة الامتحان ، يأخذ دور اللجنة الفاحصة ، يطرح السؤال تلو السؤال ، يتلقّى الإجابات ، ويقوم ببادرة التشجيع إذا لمس من المرشح اضطراباً أو رهبة ، ويعلن النتيجة ، يرفقها أحياناً بتعليل لها أو تقويم لصاحبها . وأبسط مظاهر هذا الامتحان ،

1 أخبار أبي هفان ص 72 . ومع أنّ ظاهر القصة معقول ومقبول ، فإنّ نسبة الأبيات إلى بعض الأعراب يترك مجالاً للشكّ : فمن أين للأعراب معرفةٌ بالنرد وبلعبه وبألفاظه ؟ وأين الأعرابي الذي يلاعب الأعرابية بالنّرد ؟ إنّ اللعبة مظهر حضري بَحْت كما أنّ خفّة اللحن وخلل وزن الشعر وتضمّنه الكلمات الفارسيّة الأصل تجعله ألصق بحياة المدن .

اختبار الشاعر الجديد في صدق موهبته الفنيّة . فهناك هاجس يسيطر دائماً على الرشيد : أن يحيط نفسه بالنخبة من الناس ، من رؤساء القبائل ، من زعماء القلم والكلمة ، من المبرزين بين الشعراء . ولعلّه كان يخاف من أن يجد نفسه ذات يوم وقد غدا هدفاً لخديعة من أحد الدخلاء ينتحل شعر غيره يتقرّب به إليه[1] . فاختط سنة : «كل شاعر يدخل إلى البلاط للمرّة الأولى ، إمّا أن يكون صيته قد سبقه إليه حتى تاقت نفس الخليفة إلى رؤياه وسماعه ، فهذا يكون على الرحب والسعة ، وغالباً ما توجّه إليه الدعوة أو يوعز إليه الخليفة بالحُضور ، بشكل غير مباشر ، وإمّا أن يكون مغموراً ، على إبداع لديه ، فلا بدّ من امتحانه .

هكذا تتكرّر قصّة الأعرابي الذي يدخل فينشد ثم لا يلبث أن يجد نفسه على المحكّ ، كالأعرابي الذي دخل إليه و«أنشده أرجوزة ، وإسماعيلُ بن صُبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسنَ الناس خطّاً وأسرعهم يداً . فقال الرشيد للأعرابيّ : صف هذا . فقال : ما رأيت أطيش من قلمه ولا أثبت من حِلمه» . ثم قال :

رقيقُ حواشي الحلم حين تثُورُه يديك الهوينا ، والأمورُ تطيرُ
له قلما بؤسٍ ونعمى ، كلاهما سحابتُه في الحالتــين دَرورُ
يُناجيكَ عمّا في ضميرِكَ لحظُهُ ويَفتحُ بابَ النُجْحِ ، وهْو عَسيرُ

فقال الرشيد : قد وجب لك ، يا أعرابيّ عليه حقّ هو يقضيك إيّاه ، وحقٌّ علينا فيه نحن نقوم به[2] .

وشبيهة بهذه القصّة حكاية الأعرابيّ الباهلي الذي قدم على الرشيد وأنشده شعره فيه فقال الرشيد : يا أعرابيّ ، أسمعُك ، مستحسناً ، وأنكرك متّهِماً . فإن يكن هذا

---

1 انتحال شعر الغير كان معروفاً ، وخطّة الرشيد في الامتحان انتهجها مَنْ هم دونه من الأعيان . (راجع الأغاني ج18 ص 326 وما بعد ، قصة انتحال راوية مسلم قصيدته في مدح داود بن يزيد المهلبي وامتحان داود للشاعر المدّعي حتى اعترف) .

2 الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى – أدب الكتاب – ج1 ص 73 .

الشعر لك ، وأنت قلتَهُ من نفسك ، فقل لنا في هذين بيتين – يعني محمداً والمأمون وهما حِفافاه – فقال : يا أمير المؤمنين ، حمّلتني ، على القدَرِ في غير الحذر ، روعةَ الخلافةِ وبَهر البديهةِ ونفورَ القوافي عنِ الرويّة[1] . فيمهلني أميرُ المؤمنين يتألّف لي نافراتها ويسكن روعي . قال : قد أمهلتك يا أعرابي وجعلتُ اعتذارَك بدلاً مِنَ امتحانك . فقال : يا أمير المؤمنين ، نفّستَ الخناق وسَهّلتَ ميدان السباق[2] ثم أنشأ يقول :

بنيتَ بعبدِ اللهِ ، بعدَ محمدٍ ، ذُرى قُبّةِ الإسلام فاهتزّ عودُها
هما طُنباها ، بارك اللهُ فيهما ، وأنتَ ، أميرَ المؤمنينَ ، عَمودُها

فقال : وأنتَ يا أعرابي ، بارك الله فيك . فسلْنا ولا تكن مسألتُك دون إحسانك . فقال : هُنَيْدَة ، يا أمير المؤمنين[3] .

وقصّة مسلم بن الوليد ، حين حُمل مع أنس بن أبي شيخ متهمين بتهمة الزندقة ، قصّة معروفة[4] ، ونركز هنا على نهايتها . فبعد أن أُعجب الرشيد بحسن تخلّص مسلم ممّا نسب إليه «قال له بعض جلسائه : استبْقِهِ ، يا أمير المؤمنين ، فإنّه من أشعر الناس ، وامتحنْه فسترى منه عجباً» . فقال له : قل شيئاً في أنس . فقال : يا أمير المؤمنين ، أفرِخْ روعي ، أفرخَ اللهُ روعَك يوم الحاجة إلى ذلك ، فإنّي لم أدخُلْ على خليفة قط . ثم أنشأ يقول :

---

1 جاء في طبقات ابن المعتز ص 149 «فقال : والله ما أنصفتني يا أمير المؤمنين . قال : ولِمَ ؟ وإنّما هذا امتحان ؟ قال . . .» . حِفافاه : جانباه .

2 وردت في تاريخ الطبري ص 363 «النفاق» والتصحيح عن المراجع الأُخرى المذكورة فيما بعد .

3 المرجع السابق ج8 ص 363 والعقد الفريد ج1 ص 310 وزهر الآداب ج4 ص 1044 (وهُنَيْدَة : مئةٌ من الإبل) .

4 راجع العقد الفريد ج2 ص 181 .

هكذا جاز مسلم الامتحان ونال جوائز سنيّة بعد أن حظي بالعفو عن ذنوبه .

ولا يسعنا ، في الحديث عن الامتحان ، إغفال ذكر عبد الملك بن صالح . فهذه الشخصيّة الهاشميّة المتعدّدة الكفايات ، البعيدة الطموح ، سبّبت تنغيصاً وتنكيداً للرشيد . فهو تارة يراه نعم الجليس فهْماً وأدباً وفصاحة ، وهو طوراً يراه بئس المنافس الخطر ، بسبب فهمه وأدبه وفصاحته وحسن إدارته . لذا كانت معاملته له تشهد تناقض المواقف . إلاّ أنّ الرشيد ، مع كلّ ذلك ، لم يكن يبخس عبد الملك قيمته الأدبيّة ، بل يثق ببديهته . «وكان مَنْ يحسده قد قال للرشيد عنه إنّه يُعِدُّ كلامه . فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبْع . وجلس في بعض الأيام ودخل عبد الملك . فقال الرشيد للفضل : قل له . وُلد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن . فقال الفضل له ذلك . فدنا عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين ، سَرَّك الله فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرّك وجعلها واحدة بواحدة . ثواب الشاكر وأجر الصابر . فقال له الرشيد : هذا الذي زعموا أنّه يتصنّع الكلام ؟! ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة»[1] .

وهناك نوع من الامتحان غير المباشر ، يجريه الرشيد أحياناً ، هو امتحان للآخرين في الولاء وفي ما يبطنونه من مشاعر عن طريق التنويه بأشخاص غير مرغوب فيهم ، والمبالغة في الحديث عن كفاياتهم ، أو عن طريق الخوض في موضوعات كلّها محرّمة أو دقيقة شائكة ، مع ترقّب ردود فعل المرشّح وانجرافه إلى الشرك الذي يثبت مدى معرفته أو يشفّ عن حقيقة آرائه ومشاعره . وقد كان الملوك ، في كلّ عصر ، يلجأون إلى هذا الأسلوب في استدراج من يشكّون في ولائه أو حسن نيّاته[2] . وكثيراً

---

1 النويري – نهاية الأرب – ج5 ص 133 – وكتاب الصناعتين ج2 ص 265 وفوات الوفيات ج2 ص 13 .

2 يذكر الأصفهاني حادثة جرت لإبراهيم الموصلي مع الرشيد إذ دعاه إلى قول شيء في جارية أمامه مغنّية جميلة ، ضاربة على العود ، فقال فيها شعراً غزلاً ، دون تحفّظ ، فأحسّ الرشيد بذلك فأمره بالانصراف وبقي شهراً لا يدعوه إلى مجالسه . ثم دسّ له خادماً معه رقعة عليها =

ما نُصب الفخ للزنادقة أو للمتكلّمين[1] ، أيّام العباسيّين . ولا شكّ في أنّ هذا النوع من الاستدراج يضع الممتحَن في موقف شديد الحرج . لأنّه ، إذا أظهر الجهل وتحفّظ عن الخوض في الموضوع ، لم يصدّق ، وقد يقلّ قدره لجهله ما يعرفه الجميع . وإذا أظهر العلم واندمج في الحديث قد يُظنّ فيه الحماس والاهتمام ، وهما كافيان للقضاء عليه ، لا لرسوبه في الامتحان فقط .

ونحن لن نتحدّث عن امتحان الزنادقة[2] ، بل نكتفي بالإشارة إلى الامتحان الأدبي الذي يوجهه الرشيد ، من وقت لآخر باتّجاه الوليد بن يزيد الأمويّ . وحين سأل مروانَ ابن أبي حفصة أن يحدّثه عن الوليد «ذهب يتزحزح» مُحرَجاً متردّداً . ولكن الرشيد لم يكن ينصب شركاً وإنّما كان مهتمّاً فعلاً بالوليد لما كان بينهما من تشابه في بعض الظروف فقال له : «إنّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول ، فقل ما شئت «فأفرخ روع مروان وطفق يحدّثه عن دخوله مع عمومته إلى الخليفة الأمويّ ، ثم أنشد الرشيدَ بعضَ شعر الوليد ، فأحضر القلم والقرطاس وعمد إلى

= شعر غزلي مدّعياً أنّها من جارية الرشيد . ولقد أحسّ الموصلي بالشرك المنصوب ، فلم يتناول الرقعة بل انهال ضرباً على الخادم ، ثم ركب إلى الرشيد يشكوه . فضحك وقال له : «على عمد فعلتُ ذلك بك لأمتحن مذهبك وطريقتك» . (الأغاني ج2 ص 208 وانظر كذلك الطبري ج8 ص 310 و311 امتحان إبراهيم بن نهيك في ولائه للبرامكة) .

1 انظر امتحان الرشيد للشافعي ص110 .

2 نشير هنا إلى امتحان الرشيد صالح بن عبد القدوس بأبيات يعرّض فيها بالنبيّ ﷺ منها :

غصبَ المسكينَ زوجتَــهُ فَجرَتْ عينــاهُ مِــن دُرَرِهْ

فأنكرها وتوسّل بفصاحته ليقنع الرشيد ببراءته . فتظاهر الرشيد بالقناعة وطلب إليه أن ينشده قصيدته السينية . حتى إذا بلغ قوله :

والشيخُ لا يتــرك أخلاقَــه حتى يوارى في ثرى رمسِهِ

قال : يا شيخ ، هذا الكلام يشبه هذا الكلام . . . ونحن نتمثّل وَصيّتك . وضرب عنقه . (طبقات ابن المعتز ص 90 والأغاني ج14 ص 167 وفي تاريخ بغداد وأمالي المرتضى رويت الحادثة مع المهدي) .

كتابته[1] . ولعلّه أنس إلى مروان بن أبي حفصة في هذا الموضوع فترك نفسه على سجيّتها تقول ما لا يقال عادة ، فتحول مجلس الامتحان إلى مجال مكاشفة واعتراف من الرشيد بأنّه يميل إلى الوليد ويحبّ الحديث عنه . وهذا ما تثبّته حادثة أخرى رواها إسحق بن إبراهيم الموصلّي فقال : «دخلت على الرشيد وهو مستلق على قفاه يقول : أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها . قلت : فيم ذلك ، يا أمير المؤمنين ، قال : في قوله :

لا أسألُ الله تَغييراً لِما فَعَلتْ — نامتْ وقد أسهرتْ عينيَّ عيناها

فالليلُ أطولُ شيءٍ حين أفقِدُها — والليلُ أقصرُ شيءٍ حين ألقاها

ثم قال : أتعرفه ؟ «وماذا كان على إسحق أن يجيب ؟ لم يدرِ أشَرَكٌ هو أم اعتراف ؟ فحاول أن يجيب بصوت خفيف عسى أن يكتفي الرشيدَ بإجابة مبهمة فقال الرشيد : «بحقي عليك ؟» فلم يعد بوسعه المواربة فاعترف باطّلاعه على الشعر وبمعرفة صاحبه . فقال له الرشيد : «استر ما سمعت منّي ، وإنّه ليستحقّ أكثر ممّا وصفتُه به»[2] فكان الامتحان لإسحق والمكاشفة للرشيد .

وإذا كان الرشيد يصل إلى نفسه في الامتحان ، فهو يعنّ له من حين إلى آخر أن يمتحن أولياء عهده ليقف ، عن قرب ، على ما حصّلوه من ثقافة وما جمعوه من حفظ ، كما يقف على مدى نموّ شخصيّتهم وتطوّرها . ولدينا صورة عن هذا النوع من الامتحان يظهر فيها الكسائي ، وقد كان علّمهما ثم أوكل أمر ذلك إلى الأحمر النحوي . فلمّا زار الرشيدَ بعد فترة ، في مجلسه العام ، استبقاه إلى أن انفضَّ المجلس ، وعرض عليه أن يريه تلميذيه السابقين . فأُحضرا وبدأ المجلس بأسئلة وجّهها الرشيد إلى الكسائي شرح فيها ما غمض من المعاني على فهم الخليفة[3] ، وانتهى الأمر إلى موضوع المجلس : امتحان

1 الأغاني ج10 ص 84 .

2 سمط اللآلي ص 312 .

3 راجع مجالس المناظرة بين الرشيد وجلسائه . والمحاسن والمساوىء ص 411 .

وليَي العهد . واللجنة الفاحصة هنا مؤلّفة من الكسائي بتفويض من الرشيد . ونترك الكلام للكسائي : «أمرني أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت . فما سألتهما عن شيء إلاّ أحسنا الجواب والخروج منه[1] ثم قال لي : استنشدهما فأنشد محمد الأمين .

وإنّي لَعَـفٌّ الفقـرِ مشترَكُ الغِنى وتاركُ شَكلٍ لا يُوافقُهُ شكلي . . .

(الأبيات)

وأنشدني عبد الله المأمون :

بكَرتْ تلومُـك ، مطلعَ الفَجـرِ ولَقَدْ تلومُ بغيرِ مـا تـدري . . .

(الأبيات)

فسُرّ بذلك حتى تبيّنته فيه . ثم قال لي : يا علي ، كيف رأيت مذهبهما وجوابهما ؟ فجاء دَوْرُ الكسائي في إعلان نتيجة الامتحان وإعطاء التقدير للمرشّحين . وفعل ذلك ، لكنه لم يستطع أن يكون موضوعيّاً بل غلبت عليه صبغة رجل البلاط المُوالي للخليفة ، فانطلق في تقريظهما وكيل المدح للرشيد أبيهما بخطبة منها :

أرى قَمرَيْ مجدٍ وفَرعَيْ خِلافةٍ يَزينُهما عرقٌ كريمٌ ومحتِدُ . . .

(الأبيات)

هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكّنت في الثرى عروقه ، وعذبت مساربُه . أبوهما ملك أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم . . .[2] .

ولعلّ هذه الأنماط من الامتحان تبيّن لنا أنّه ليس وقفاً على الأدباء والشعراء ، بل انه كأس يشرب منها كلّ مَن يتّصل بالبلاط ، حتى القائد والوزير والمستشار والفقيه . فالفضل بن سهل ، حين عزم على الدخول في خدمة جعفر ، قرّظه يحيى بحضرة الرشيد . فقال له : أوصله إليّ . وحين وصل ، أدركته حيرة فسكت . فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة منكر لاختياره . فقال له الفضل : «يا أمير المؤمنين ، إنّ أعدل الشواهد

---

1 مروج الذهب ج3 ص 269 .

2 البيهقي – المحاسن والمساوىء ص 411 .

على فراهة المملوك أن تملك قلبَه هيبةُ سيّده . فقال له الرشيد : لئن سكتّ لتصوغ هذا الكلام ، لقد أحسنت . ولئن كان بديهة لهو أحسن وأحسن . ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلاّ أجابه بما يصدّق تقريظ يحيى له[1] . وبهذا اجتاز الفضل بن سهل الامتحان والتحق بركب روّاد البلاط ، ليبني لنفسه ، شيئاً فشيئاً ، دوراً كبيراً في الحكم العبّاسي .

ومع المكانة الكبيرة التي تمتّع بها الشافعي في الفقه وفي بلاط الرشيد ، فقد عمد الوشاة إلى إفساد ما بينه وبين الخليفة واتّهامه بأنّه لا يرى الرشيد أهلاً للخلافة . فاستدعاه محاولاً إذلاله بوضعه موضع الممتحَن «فجثا الإمام بين يديه بالمكان الذي يراه ويسمع كلامه» . فقال له بعد كلام طويل : «كيف علمك بكتاب الله ؟» فأجاب : «إنّ الله عزّ وجلّ جمعه في صدري وجعل جنبيّ دفّتيه وأنا اعتمد عليه في كلّ أموري . ولكن ، أي علم تريد منه ؟ أَعِلم تنزيله ، أم عِلم مكّيِّهِ أم عِلم مدنيِّهِ أم . . . . أم عِلم عدد آياته وحروفه ؟ فقال الرشيد . هل يقدر أحد على ذلك ؟ قال الشافعي . وهل يُسمّى أحد حافظاً إلاّ بعد معرفته بالقرآن هذه المعرفة ؟ . . . ثم سأله الرشيد : كيف معرفتك بالأحكام ؟ قال : في التجارات تريد أم في الديّات أم في الطلاق أم . . . . فقال أمير المؤمنين : كيف معرفتك بالشعر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أعرف الشاذّ منه وما كَرُم للمنابر ، ورويتُ منه القديمَ والحديث في الجدّ والهزل . قال : كيف علمك بالنجوم ؟ . . . كيف علمك في الطب ؟ . . . في العرب ؟ قال : أعرف وقائعهم وأنسابهم . . . . وأنا عالم بنسب أمير المؤمنين ونسبي . . . هكذا يظهر الشافعي كدائرة معارف . ونحن لا نستغرب ذلك ، فتلك شيمة العالم في ذلك العصر . وكأنّ الرشيد أدرك أنّه ليس أهلاً لامتحان إمام كهذا ، فحوّل دفّة الحديث قائلاً : «لقد ادّعيت من الأمور كبارها ، فعظني بموعظة على البديهة لتستبين لي فصاحةُ لسانك ، وألاّ يكون هذا منك مُعَدّاً . فاشترط عليه قبول

---

1 الجهشياري – الوزراء والكتّاب ص 231 .

النصح والتواضع . فنزل الرشيد عن عرشه وجلس أمامه ، فراح يعدّد مآخذه عليه وينصحه والرشيد يستزيده . ورفض الشافعي أن يطلب شيئاً من الخليفة . فأعطي بدرة تركها بالباب وكتب عليها :

ذُلُّ الحياةِ وهَوْلُ المَماتِ كلاًّ أراه طعامـاً وبيلاً
فإن لم يكنْ غيرُ إحداهما فَسَيراً إلى الموت سيراً جميلاً[1]

فالرشيد إذن امتحن معظم من اتّصلوا به . إلاّ أنّ امتحان الأدباء والشعراء كان مولّداً دائماً لمتعة أدبيّة لديه ، فلم يترك فرصة لامتحان بديهة شعرائه إلاّ اغتنمها ، وكأنّه كان يقصد إلى تخليد كلّ لحظة من لحظات حكمه وحياته بما يستدعيه من شعر وأدب فيها . وتأتي المناسبات بشكل عفوي كأنها الحياة . فهو مثلاً يسمع غناءً بشعر يعجبه فيسأل عن قائله فإذا هو خالد بن يزيد الكاتب . فيحضره ويسأله عن الشعر فيدّعيه لنفسه . وفي هذه الأثناء تجرى مبادلة طريفة بين الرشيد وإحدى جواريه فيطلب من خالد شعراً في ما رأى وسمع . فيرتجل بيتين يجوز بهما الامتحان[2] .

ويروي ابن المعتز أنّ أبا الغول دخل على الرشيد يمدحه ، فطلب منه هارون أن يقول شيئاً على البديهة يثبت شاعريته ويزيل من نفس الرشيد بقيّة شك في موهبته . فأصابه اضطراب يسير ثم ارتجل بيتين في الأمين والمأمون ناله معهما تقريظ من الرشيد[3] فقال :

«يا أمير المؤمنين ، امتحنّي بما شئت ليزول ما بقلبك من الريبة والشكّ في شعري . فقال : لا حاجة بنا إلى ذلك . أنت شاعر مقتدر ، والذي قيل فيك باطل . ثم وصله

1 الأربلّي – الذهب المسبوك – ص 211 .

2 مروج الذهب ج3 ص 285 .

3 يروي ابن المعتز البيتين منسوبين إلى الأعرابي الباهلي ويورد تعليق الرشيد إيّاه عليهما . وقد يكون الخبر رواية خاصة بابن المعتزّ لدخول الأعرابي الباهلي ، وقد يكون خبر أبي الغول خبراً آخر تداخل في خبر الأعرابي .

بعشرة آلاف درهم وخلع عليه»[1] .

وفي الاتجاه نفسه يأتي ارتجال الشعر الرقيق في مواقف عاطفيّة ، بناء على طلب الرشيد ، كما جرى لإسحق الموصلّي حين دخل على الرشيد وأمامه جارية وطبق ورد ، فطلب منه شعراً في وصفه[2] . لكن الامتحان الحقيقي ، المنهجي ، الموضوعي الذي تعدّدت نواحيه ومظاهره هو امتحان الرشيد للأصمعي لدى دخوله إليه للمرّة الأولى ؛ ولعلّ السرّ في شمولية هذا الامتحان الذي أوردته مصادر متعدّدة ، أنّ راويهُ هو الأصمعي نفسه ، وهو المعروف بذاكرته العجيبة التي تحفظ من مرّة واحدة حفظاً لا يُنسى مع الأيّام . وقد أشارت المصادر المذكورة إلى ملامحَ من هذه الجلسة النادرة ، بينما أورد صاحب العقد تفاصيلها كلّها ؛ وسنعتمد روايته في عرضنا لهذا الامتحان ، مستخلصين فكرة واضحة عن اتّصال أديب بالبلاط ، بعد أن يكون قد أمضى الساعات والأيّام في الموقف مترقّباً سانحة من مزاج الخليفة تبحث عن اختصاصه .

وتلك كانت حال الأصمعي ، إذ تسكّع على الباب متقرّباً إلى الخدم ، مؤانساً الحرّاس حتى كاد الملل ينال منه ، إلى أن ابتسم الحظّ و«خرج خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق . وذلك أنّ الرشيد تربّع الأرق بين عينيه ، فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟» وطارت نفس الأصمعي فرحاً ، فهجم داخلاً ، فواجه الرشيد في صدر البهو جالساً على عرشه ، إلى جانبه وزيره ، يحيط به خدمه ، والشموع تتلألأ بالأضواء فتزيد من روعة المنظر وجماله . ولا يحقّ للداخل عادة أن يتجاوز حدّاً معيّناً ، وهو أبعد مسافة يمكن للخليفة أن يسمعه منها بوضوح . هناك وقف الخادم بالأصمعي وطلب منه أن يلقي التحيّة ، فألقاها . إلاّ أنّ الأصمعي ، الذي بلغ به الحماس للدخول مبلغه . أصابه ما أصاب جميع مَن تعرّضوا لامتحان الرشيد في دخولهم للمرّة الأولى ، أصابته روعة ، واضطربت نفسه .

---

1 طبقات ابن المعتز ص 149 .

2 العقد الفريد ج6 ص 403 .

ولم يكن الأمر جديداً على الرشيد ، فأمر بتنحيته ريثما يسكن روعه . فأقدم من جديد على الكلام عارضاً البدء في الاختبار . وكما فعل جميع مَن تحدّثنا عن امتحانهم ، عمد الأصمعي إلى الاعتذار عن اضطرابه وإلى التعبير عن أمله الكبير في حلم الخليفة ، قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، إضاءة كرمك وبهاء مجدك مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذيّة له» . وبشدّد الأصمعي في روايته على لفتة تعتبر أساسيّة في أدب الجليس : ألاّ يبتدىء الحديث إلاّ مستأذناً . فقد قال : «أيسألني أمير المؤمنين ، فأجيب ، أم أبتدىء فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله ؟ فتبسّم الفضل ثم قال : ما أحسن ما استدعى الاختبار ، واستهلّ به المفاتحة ، وأجدِرْ به أن يكون محسناً» . وهنا تكوّنت اللجنة الفاحصة من الرشيد رئيساً ، ومن الفضل وزيره عضواً . وبدأ الاختبار .

في سؤال أوّل ، حاول الرشيد أن يعرف من الأصمعيّ ميدان علمه ليحصر فيه اسئلته التالية . فإذا به : «راوية لذي جدّ وهزل ، بعد أن يكون محسناً» . فأعجب الرشيد بهذا التحديد ، وخصوصاً الاستدراك الذي ختمه به ، فوعده بحسن الثواب إذا استمرّ على هذا المستوى من الإحسان . وكانت هذه لفتة التشجيع . والآن ، لنتصوّر في ذهننا أي جلسة امتحان ، كيف يتمّ السؤال ، ومن يحدد صحّة الإجابة ؟ المفروض بالسائل أن يكون مطّلعاً أكثر من المسؤول ، ليُحسن تقويم إجاباته ، أو ، على الأقلّ ، ألاّ يسأل إلاّ من ضمن معارفه ، وأن يكون بمتناوله مستندات تشكّل مراجع يأنس بها إذا أحسّ أي إشكال . فما مدى ثقافة الرشيد ، وما هي مراجعه التي يعتمدها في امتحان شخص كالأصمعي ، إذا افترضنا أنّه لم يعرف مسبقاً إمكاناته ؟ أمّا ثقافته ، فقد سبق الحديث عنها وأمّا مصادره فرُقَع مكتوبة دسّها تحت الفراش ، يُخرج منها ما أراد ، ساعة يريد . أمّا الأسئلة فيظهر أنّ هناك نماذج وقوالب ، أفرزها ذلك العصر الذي حمي فيه وطيس الجدل والتبادل الفكري بين الفِرَق والمدارس ، فأصبحت معايير ، يكفي طرحها وتلقّي الردّ عليها لمعرفة مدى اطّلاع الشخص المسؤول على قضايا العصر ومشاكل ثقافته . وقد سبقت لنا إشارة إلى ذلك حين تحدّثنا

عن امتحان الرشيد للضبي في كلمة . «فسيكفيكهم»[1] ، وهي ، بلا شك ، أحد هذه القوالب . وفي امتحانه للأصمعي ، استخدم الرشيد قالباً آخر . «قد أنصف القارة[2] من راماها» . واندفع الأصمعيّ يفصّل ويشرح ، موفياً الغرض .

فعدل الرشيد عن هذه الأسئلة إلى اختبار الحفظ والرواية . والمعروف أنّ الأراجيز هي من الشعر البدوي القاسي ، على رغم رشاقة وزنها . فهي عادة مثقلة بالألفاظ الصحراويّة الجلفة ، يصعب حفظها وتفسيرها . وأشهر الرجّاز إطلاقاً : رؤبة والعجاج . فابتدر الأصمعيّ بالسؤال عنهما : هل يعرفهما ؟ فكان الجواب الواثق : «هما ، يا أمير المؤمنين ، يتناشدان لك بالقوافي ، وإن غابا عنك بالأشخاص» . إلاّ أنّ الرشيد لم يكن ليحفظ أراجيز رؤبة ولا العجّاج ، فاحتاج إلى مرجع . وهو في حيطة دائمة لذلك . فمدّ يده ، فأخرج من تحت فراشه رقعة نظر فيها ثم قال : أسمعني :

أرّقَني طارقُ هَـمٍّ طَرَقا

قال الأصمعي : «فمضيت بها مُضيَّ الجواد في سَنَن ميدانه ، تهدر بها أشداقي» .

إلاّ أنّ الأصمعي لم يكن يخوض امتحان الرواية فقط ، بل كان ، في الآن نفسه ، يخوض ، دون أن يشعر ، امتحان الجليس رفيق الخليفة . فهو ، في لفتاته العديدة ، وفي أسلوب خطابه للرشيد ، وتحاشيه ما قد يسيء إليه ، كان يثبت كفاية نادرة تجعل منه نموذجاً للجليس . من ذلك قوله : «حتى إذا صرت إلى امتداح بني أميّة ، ثنيت عنان اللسان إلى امتداحه للمنصور في قوله :

قلتُ لِزيرٍ لم تَصِلْهُ مرْيَمُهْ

قال : أَعَنْ حيرة أم عن عَمد ؟ قلت : بل عن عمد تركت كذبَه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده . قال الفضل : أحسنت ، بارك الله فيك . مثلك يؤمّل

1 انظر تاريخ الطبري ج8 ص 362 ؛ والبصائر والذخائر ج5 ص 48 .

2 القارة : قبيلة عربية عرفت في الجاهلية بالحذق في الرماية . وفي المثل «قد أنصف القارة من راماها» .

لهذا الموقف . قال الرشيد . ارجع إلى أول هذا الشعر .

ولم يلبث الامتحان أن دمج النمطين من الأسئلة : الإنشاد والقوالب المتداولة من أشكال المعرفة . فقد تدخّل الفضل ليوجّه الأصمعي : أُحْدُ بنا ليلتك منشداً . هذا سيدي أمير المؤمنين يصغي إليك ، فمُرَّ ، ويحك ، «في عنان الإنشاد ، فهي ليلة دهرك» . فراح الأصمعي ينشد ، حتى إذا وصل إلى معنى تداولته أيدي الشارحين ، أو روت عنه الرواة طُرفةً أو خبراً ، قاطعه الرشيد سائلاً فأجاب ، بلا تردّد ؛ وتقوم هكذا ، بموازاة الإنشاد حقائقُ أشبه بالحياة الخفيّة المتردّدة في أروقة المسرح موازية لما يجري على خشبته . ففي قصيدة عديّ بن الرقاع كان الشاعر ينشد ، وجرير ، منافسه ، يستبقُه في القوافي وأعجاز الأبيات ، والممدوح يعلّق ، في حين كان الرشيد والفضل يستمعان إلى الإنشاد ، ويتلقّيان إجابات الأصمعي ، معلّقَين هما أيضاً . ويبدو أنّ الرشيد ، إن لم يحفظ الأرجاز التي سأل عنها ، قد درس معانيها وحفظ ما دار حولها من روايات وما صدر من تعليقات ، واستكمل ، بحدسه وصحّة حكمه ، ما فاته من ذلك ، فاستطاع ، لا أن يمتحن الأصمعي فقط ، بل أن يصوّب أيضاً خطأه ، حين أخطأ . من ذلك ما ذكره الأصمعيّ في روايته : «فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

تأتيـهِ أسلابُ الأعـزّة عَنوةً عُصُباً وتجمع للحروب عتادَها

قال الرشيد : لقد وصفه بحزم وعزم ، لا يعرض بينهما وَكْلٌ ولا استذلال . قال : فماذا صنع ؟ قلت : ذكرت الرواة أنّه قال . ما شاء الله ! قال : أحسبك وهمت . قلت : يا أمير المؤمنين ، أنت أولى بالهداية ، فَلْيُرُدَّني أميرُ المؤمنين إلى الصواب . قال : هذا عند قوله :

ولقد أراد الله ، إذ وَلاّكَهـا ، من أمّةٍ ، إصلاحَها ورشادَها

ثم قال : والله ما قلتُ هذا عن سمع ، ولكنني أعلم أنّ الرجل لم يكن يخطىء في مثل هذا . قال الأصمعيّ : وهو والله الصواب» .

وإذا عدنا إلى تصوّر جوّ امتحان شفوي أمام لجنة فاحصة ، يمكننا أن نتخيّل

بسهولة ما قد تبعثه كلمة أو موقف من أحاديث جانبيّة بين أعضاء اللجنة ، فيكون بينهم تعليق وردٌّ ، أمام المرشح الصامت المستمع . مثل هذا حصل فعلاً في جلسة امتحان الأصمعي . فقد علّق الرشيد على قصيدة عديّ بن الرّقاع قائلاً : «والله إنّه لَنقيُّ الكلام في مدحه وتشبيبه . قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، لا يُحسن عدي أن يقول :

شُمسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهمْ   وأَعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدِروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن إذ يقول في الوليد :

لِلحَمْدِ فيهِ مَذاهبٌ لا تنتهي   ومكارمٌ يَعلون كُلَّ مَكارمِ

ثم يقطع الرشيد الحديث الجانبيّ ليعود ويسأل الأصمعيّ عمّا يحفظه بمناسبة قول هذا البيت أو ذاك من القصيدة . ويبدو أن الأصمعي ، حين وصل إلى هذه المرحلة ، كان قد نجح في لفت نظر الرشيد ، وإن لم تنته الجلسة . أو لعلّ الرشيد ، بعد أن اقتنع بكفاية المرشح الماثل أمامه ، أراد أن يطيل الجلسة إلى ما بعد الامتحان لتكون جلسة سمر ومتعة أدبيّة ؛ فتوجّه إلى الأصمعيّ توجّهه إلى جليس ، لا إلى غريب يخضع لاختبار : «أرويتَ لِذي الرمّة شيئاً ؟ . . . والله إني لا أسألك سؤال امتحان ، وما كان هذا عليك ، ولكنني أجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك شيء ، فلا ضيق عليك بذلك عندي . فما أراد بقوله :

مُمَرٌّ أَمرَّت متنَه أَسَدِيّةٌ   يَمانيّة حَلاَّلةٌ بالمصانِعِ ؟

فأجاب الأصمعي شارحاً ، مشيراً إلى أنّ الأسديّة هي السّحابة الممطرة بنَوء الأسد . فكان حديثٌ عن الفلك ؛ وانتقل الموضوع نقلة جديدة ، من الرواية والإنشاد والشرح ، إلى نوع من الحكم المنطقي أو العقلاني . فالسؤال الذي يجول في الذهن ، عند سماع الشعراء البدو يستخدمون منازل النجوم في أشعارهم ، هو : من أين للقوم الجاهليّين البسطاء معرفة بالأفلاك ؟ «أترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم ؟ – إذ هذا شيء قلّما يستخرج بغير السبب الذي رويت لهم أصوله – أو أدّتهم إليه الأوهام والظنون ؟ فالله أعلم بذلك» . ومع أنّ الرشيد أجاب عن تساؤله

بنفسه وأقفل السؤال المفتوح ، لم يترك الأصمعي فرصة الكلام تمرّ ، فتدخّل قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، هذا كثير في كلامهم . ولا أحسبه إلاّ من أثر أُلقي إليهم» .

وبعد عودة إلى الرواية الشعرية في سؤال عن الشمّاخ ، وتبادل رأي بين المرشَّح والممتحِن حول أفضل شعره ، مضى الأصمعيّ في إنشاد رائيّة الشماخ التي اعتدّها أحسن كلامه . وقال الرشيد : أمسِكْ – أستغفر الله ثلاثاً ، أَرِحْ قليلاً واجلس .»[1] وانتهى الامتحان . ولئن كانت النتيجة قد باتت معروفة قبل إعلانها رسميّاً ، فلا بدّ من هذا الإعلان . ورئيس اللجنة الفاحصة يقوم بذلك بنفسه ، في خطبة قصيرة يختار منها الألفاظ ، يقرّظ بها الناجح المتميّز : «قد أمتعتَ منشِداً ووجدناكَ مُحسِناً في أدبك ، معبِّراً عن سرائر حفظك» . ولا بدّ من استطراد بسيط يحيط بمجمل ما دار حوله مجموعُ الامتحان : «لَكَلامُ هؤلاء ، ومَن تقدَّمَ من الشعراء ، ديباجُ الكلام الخسرواني ، يزيد على القدم جدّةً وحسناً ، فإذا جاءك الكلام المزيّن بالبديع ، جاءك الحرير الصينيّ المذهّب ، يبقى على المحادثة في أفواه الرواة . فإذا كان له رونق صواب ، وعتْه الأسماع ولذّ في القلوب . . .»

وفي ختام هذا الامتحان لا بدّ من قول إننا قد عرضنا لكثير من التفاصيل في حديثنا عنه ، لا لشيء إلاّ لأنّ هذه التفاصيل معبّرة . وهذه الرواية من الروايات القليلة التي جاءتنا عن الرشيد وبلاطه ، كاملة الأطر ؛ وهي ، بذلك ، من المعالم النادرة التي تعطينا فكرة واضحة عمّا كان يجري في البلاط داخل المجالس . ولئن كان الأصمعيّ قد أفاض على الحوادث رونقاً إضافيّاً بما ألبسها من وشيه وزخرفه ، في طريقة العرض أو في كلماته ، فهذا لا يقلّل قناعتنا بصحّة وقائعها ، وخصوصاً أنّها وردت في كتب ثقة من المؤلّفين أمثال : البغدادي والمرتضى والتنوخيّ وابن عبد ربّه .

وتبقى إشارة ضرورية إلى أن هذا النمط من الامتحان ، يتعرّض له الأصمعيّ أو

---

1 العقد الفريد ج5 ص 309 وما بعد – قصص العرب عن البغدادي في خزانة الأدب ج4 ص 346 – أمالي المرتضى ج3 ص 96 والفرج بعد الشدّة ج2 ص 238 .

سواه لدى دخوله إلى البلاط ، لا يحجب عنه أنماطاً أُخرى ، إن لم تهدف إلى سبْر أغوار المعرفة ، فهي تهدف إلى التحدّي الذي يفتّق العبقريّة ويولّد الإبداع . وهذا ما لا ينجو منه جليس أو محدّث . من هنا كان وضع الجلساء جميعهم وضعَ المرهفِ الحواسّ المترقّب ، المتوقّع لعب دور أيِّ دور ، دون أن يكون أعدّ له عدّته ، إلاّ ما وُهبه من حضور بديهة وصدق ذاكرة وارتجال . فالأصمعيّ يحدّثنا قائلاً : «دخلت على هارون الرشيد وبين يديه جارية حسناء عليها لُمّةٌ جَعدة وذؤابة تضرب الحَقْوَ منها . . . فقال : يا أصمعي ، صفها . فأنشأت أقول :

كِنانيّةُ الأطرافِ ، سَعديَّـةُ الحَشا   هِلاليّـةُ العينينِ ، طائيّـةُ الفَمِ
لها حُكمُ لُقمانٍ وسورةُ يوسُفٍ   ونَغمـةُ داوودٍ وعِفَّـةُ مريـمِ

فقال : أحسنت والله ، يا أصمعي . فهل عرفت اسمها ؟ فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين . فقال : اسمها دنيا . قال : فأطرقت ساعة ثم قلت :

إنّ دُنيا هـيَ التي   تَسحَرُ العينَ سافرةْ
ظَلَموها شَطْرَ اسمِها   فهْـيَ دنيـا وآخِرةْ

فأمر لي بعشرة آلاف درهم[1] .

وبمرور الأيّام يزداد عدد أعضاء اللجنة الفاحصة في البلاط ، بدخول من ثبتوا في اختبارات سابقة ، وحازوا الثقة في حسن حفظهم وصحّة حكمهم . فالأصمعي لم يلبث أن عُدّ من هؤلاء الأعضاء وصار يكلَّف أحياناً ، وحدَه ، بإجراء الامتحان ، أو يكون مستشاراً أدبيّاً له الرأي الأوّل والأخير . ويظهر أنّ الرشيد خصّه بامتحان الجواري والمفاضلة بينهن ، يستدعيه من أقصى مكان حين يطلبه فلا يجده بقربه . ففي مرّةٍ احتاجه الرشيد فاستدعاه من بغداد إلى الرَّقّة محرِّكاً قائد الشرطة وصاحب البريد ووليَّ العهد ، والفضلَ بن الربيع . . كل ذلك ليمتحن له جاريتين أديبتين[2] .

1 العقد الفريد ج6 ص 412 .

2 تاريخ بغداد ج10 ص 411 .

وقد يكون من الطرافة بمكان أن يعرف أحدنا ماذا يجري في امتحان الجارية ، وما هي موضوعاته ومعايير الحكم فيه ، وما هي نتيجة الفوز بالنجاح ؟ لذلك نحن نلخّص خبر الأصمعيّ مع الجاريتين اللتين وجد إحداهنّ تتميّز من الأُخرى في الجلال والروعة ؛ فسألها عن معانٍ من القرآن ، وعن النّحو والعروض ، وعن الأخبار ، ثم امتحنها في قرض الشعر ؛ فجاءت بأبيات رقيقة تمتدح الخليفة . . . كان كلّ ما فيها يُعجِب . وجاء دور التقرير يرفعه الأصمعيّ إلى الرشيد يطري مواهبها وثقافتها ، بينما الثانية «دونها ، ما تبلغ منزلتها ، إلاّ أنّها ، إن وُوظب عليها ، لَحِقتْ» . وفهم الرشيد هذا الجواب «الدبلوماسي» ، وعرف أنَّ الأولى هي الفائزة ، فأمر أن تجهَّز له في ليلته[1] . وتلك عاقبة النجاح في هذا النوع من الامتحانات .

هكذا نجد الأصمعي يقوم ، في البلاط بمهمّة خاصّة جدّاً . ومهمّته هذه كمُمتحِنٍ ، ماشت دوره كمستشارٍ أدبي في البلاط . وكان ، في كثير من الأحيان ، صاحبَ الكلمة الأخيرة في صحّة رواية أو في جواز قول ؛ وبذلك يتحكّم في آمال الآملين . فقد روى ابن الجرّاح «عن العبّاس بن الأحنف أنّه أنشد الرشيد أبياته التي يقول فيها :

إذا ما شئتَ أن تُبصِـ ـــرَ شيئاً يُعجِبُ النّاسا
فَصَوِّرْ ها هُنا فَــوزاً وصوِّرْ ثَــمَّ عبّاسا . . .
(الأبيات)

فاستحسنها الرشيد وقال : هل سبقك إلى هذا المعنى أحد ؟ فقلت : لا . فقال : عليّ بالأصمعيّ – وكانت بيني وبينه نفرة – فأخبره الرشيد باستحسانه الشعر والمعنى وسأله : هل تعرف شيئاً منه ؟ قال : كثير ، ولكني حاقن وأعجلني الرسول عن البول . فخرج ثم رجع وقد صنع أبياتاً مثلها على الراء والقاف ، قال فيها .

إذا ما شئتَ أن تبصر . . . . يعجب البشرا و. . . يعجب الخلقا

1 تاريخ بغداد ج10 ص 411 .

وأتمّها على هذا وزعم أنّه سمعها منذ دهر . فخجلتُ وانصرفتُ محزوناً . فقلت له لمّا خرجت : سألتُك بالله ، ألستَ الذي صنعتَها ؟ قال : بلى ، والله ، وأنتَ ؟ فَعادِ الرجال[1] . وهذه الرواية عن ابن الجراح تظهر الأصمعيّ مستشاراً خان الأمانة واستغلّ موقعه للانتقام من زميل له . . وهذا يمكن فهمه إذا عرفنا بيئة العصر وما يجري عادة في البلاط من عمليّات خفيّة ؛ إلاّ أنّ الخبر نفسه يرويه الأصفهاني على أنّه محاولة عبث من الرشيد والعبّاس بالأصمعي[2] ، خرج هذا منها رابحاً يرفده حضورُ بديهة وسرعة خاطر ، فاجتاز بذلك امتحاناً آخر أثبت فيه كفايته ورسوخ قدمه في ميدانه .

4 ـ مجالس الإجازة

وهذه المجالس تشكّل النوع الثالث من وسائل الاختبار التي يفرضها الرشيد على جلسائه ، وشعرائه على الخصوص . فالسؤال الأدبي يجد جوابه في ذاكرة الجليس أو في صحّة حُكمه ؛ والامتحان الأدبيّ يُبرز صدقَ الموهبة ودقّةَ الحسّ الإنساني المميّز لجليس الخليفة . وهذه الصفات جميعها تتكامل في أدب الإجازة . فلا عجب أن يشغل هذا الأدب حيّزاً كبيراً من اهتمام الرشيد يرتبط به التعبير غير المباشر عن أهوائه ونزعاته وأزماته العاطفيّة . والإجازة الأدبيّة تُفهم عادة على أنّها نظم بيتٍ أو أبيات على وزنٍ وقافيةٍ لبيت آخر أو أبيات . ولكننا نرى في الإجازة ميداناً أوسع . فهي ، في نظرنا ، إجازة موضوع ومعنًى ، كما هي إجازة مبنى . وليس المهمّ فيها الإتيان بشعر من الوزن نفسه والقافية عينها بقدر ما هي استكمال معنى البيت أو الأبيات بالشعر الذي يضاف إليه أو إليها . من هنا نعتدّ إجازةً ، أيضاً ، الشعرَ الذي يُرتجل تعبيراً عن معنى يُطرح على الشاعر ، أو وصفاً لحالة شعوريّة أو نفسيّة يستشفّها عند السائل . وبهذا يتساوى في طلب الإجازة موقف الرشيد الذي يعرض لجلسائه بيتاً شعريّاً طالباً رديفاً له ، وموقفه حين يضمر حالة أو شعوراً ويطلب منهم التعبير عنهما . ففي كلا

1 ابن الجراح – أبي عبد الله محمد بن داوود – الورقة ص 31 .
2 الأغاني ج8 ص 357 .

الموقفين يكون ما يقال مثبتاً لموهبة الشاعر في التعبير العفوي . وفي كلا الحالين هناك معنى يستقصى ويتابَع . من أجل هذا ألحقنا مجالس الإجازة بمجالس السؤال والامتحان . فهي جميعاً تنطلق من الرشيد لتضع على المحك ، بشكل أو بآخر ، شاعريّة الروّاد وبديهتهم .

لكن هذا لا يعني أنّ الأنماط الثلاثة المشار إليها من مجالس الاختبار ، على رغم تقاربها وتداخلها في بعض النواحي ، لا يختلف بعضها عن بعض في نواحٍ أُخرى . فمجالس السؤال قد تهدف إلى كسب المعرفة ، وهذه صفة مميّزة لها ، ولكنها قد تهدف إلى الاختبار ، فتشترك بذلك مع مجالس الامتحان ومع مجالس الإجازة التي تنفرد بأنّها ، في مجمل ما وصلَنا منها ، مرتبطة بأحوال الرشيد النفسيّة والعاطفيّة . ونحن ، إذ نعرض لها ، نعرض في الوقت نفسه لهذه الناحية من حياة الرشيد ؛ لأنّ مجالس الإجازة التي نتحدّث عنها محورها الرشيد وأبياتٌ راودت ذهنه أو نظمها في حالة خاصّة من الإلهام ، وهو لم يكد يقول الشعر إلاّ في مناسبات عاطفيّة ، ولم يخرج إلهامُه ، إلاّ قليلاً ، عن الغزل بجواريه[1] .

وهذا يستدعي سؤالاً مهمّاً : إذا كانت جواري الرشيد هنّ الملهمات له ، فكيف كانت علاقته بهنّ ؟ وهل كان ، في مَخادعه ، الخليفةَ الآمرَ الناهي ، المطاعَ المسموعَ الكلمة ؟ أم ينقلب هناك ، إنساناً ، كسائر أبناء آدم ، تنتهبه المشاعر البشريّة فيهوى ويفارق ، يصل ويستشعر غيرة فينفر أو ينكمش ويهجر ؟ إن الجواب عن هذه التساؤلات نجده في دراستنا لشعر العشق عند الرشيد[2] . والذي يهمّنا هنا : أن نؤكّد أمرين : أحدهما خضوع الرشيد لعواطف الناس العاديّين تجاه المرأة والتسليم لسلطانها عن طيب خاطر ، والأمر الثاني أنّ الرشيد كان يحبّ للشعر أن يعبّر عن علاقاته الغراميّة التي لم تعرف الالتزام بمحبوبة واحدة ، لأنّ هذا الالتزام لا يناسب طبيعة الحياة في قصر

---

1 راجع «فصل الغزل في بلاط الرشيد» .

2 راجع في الفصل المذكور عنوان «شعر العشق عند الرشيد» .

يغصّ بالحريم . والتعبير عن علاقات الرشيد الغرامية كان ينطلق من الرشيد ، من شاعريّته المتواضعة ، وقدرته المحدودة على النظم ، هذه القدرة ، وتلك الشاعريّة اللتين كانتا تعجزان عن التحليق معه في أجواء عواطفه وأحاسيسه ، فلا تستنفدها معانيه ، ويحسّ بالحاجة إلى شاعريّة أقوى وإلى إلهام أشدّ عمقاً ينجزان ما بدأه . وهذا يعطي مجالس الإجازة قيمة خاصّة ودلالة مهمّة في دراسة شخصيّة الرشيد .

ولقد مرّ بنا ، في أحاديثنا السابقة عن الرشيد وجواريه ، بعض نماذج من إجازات شعرية تبادر بها جارية أو محظية فتولّد عند الرشيد إثارة يتلقّاها بالقبول والرضا[1] . وقد ينعم الرشيد بقرب جارية له ثم يجري بينهما ما يكدّر صفاء الودّ والإخلاص . والخلاف ، على رغم ما يورثه من قلق وتنغيص للسعادة ، يبقى أمراً مقبولاً ، بل مرغوباً فيه ، إذا كانت المصالحة في نهايته . وهذه حالة عاشها الرشيد مع محظية : تجافيا ، فحلف ألاّ يدخل إليها . وبقي على موقفه أيّاماً منتظراً أن تقوم هي بمبادرة لاسترضائه . أليست هي الجارية ، وهو الخليفة ؟ لكن المحظية لم تفعل . ولعلّها كانت واثقة من تأثيرها في الخليفة ، مدركة أنّ سلطان الحبّ أقوى من سلطان البُردة والصولجان ، فاعتمل الوجد في نفس الرشيد وتفجّر بيتين منَ الشعر :

صدَّ عنـــي إذ رآني مُفتَتَنْ وأطالَ الصَّبرَ ، لَمّا أَنْ فَطَنْ
كان مملوكي ، فأضحى مالكي إنّ هذا من أعاجيبِ الزَّمَنْ

وإلى هنا توقّفت قريحة الرشيد . لكن المعنى الذي في نفسه لم يُستوفَ . فاحتاج إلى مَن يجيز البيتين . استشار جعفراً الوزير ، فأشار عليه بأبي العتاهية . وكان أبو العتاهية في الحبس ، وقد حَلَف ألاّ يقول شعراً غزِلاً[2] . وأكبر الظنّ أنّ جعفراً كان يسعى لإخراج أبي العتاهية من سجنه ، وقد اغتنم تلك الفرصة له ، عسى أن تكون منفذاً . ولكن الرشيد ، بما عرف عنه من صدق الحدس ، لم يتوقّع استجابة من أبي العتاهية ، وإن كان يتمنّاها

1 راجع العقد الفريد ج6 ص 403 ، 409 .
2 انظر الأغاني ج4 ص 75 وزهر الآداب ج2 ص 349 .

لأنّها تلاقي هوًى في نفسه . لذلك قَبِل الفكرة ، بعد تردّد ، وبعث بالبيتين إلى أبي العتاهية في سجنه مع قصّتهما ، وطلب أن يُلحق بهما سواهما . وباتت الحيرة في جانب أبي العتاهية . لقد واتته الفرصة ، فكيف يغتنمها دون أن يتنكّر لالتزامه ؟ وكان أن أجاز البيتين بشعر غير محدود الهوية وصف فيه وضعه هو ، لا وضع الخليفة ، وقابل فيه بين سجنه وبؤسه وبين نعيم الخليفة وبحثه عن المتع والمسرّات من كلّ مصدر ، حتى عند البؤساء واليائسين . فقال :

شُغِلَ المسكينُ عن تلك المِحَنْ   فـارقَ الروحَ وأخـلَى مِن بَدَنْ
ولقـــد كُلِّفـــتُ أمــراً عجبــاً   أُسألُ التفريحَ ، من بيت الحَزَنْ !

لاقى هذا العتاب الحزين تجاوباً في نفس الرشيد ، ولامس نقطة ضعف عنده وهي سرعة التأثّر ، مع أنّه لم يستثمر المعنى الذي كان يشغل ذهنه ، فأمر بإطلاقه وصلته ، واستدعائه . وحين نال أبو العتاهية مبتغاه وارتفع عنه ضغط القسر والإجبار ، عاد إلى أبيات الرشيد مصرّحاً : «الآن طاب القول» وأنشد :

عـزةُ الحُبِّ أَرتْــهُ ذِلّتي   في هواهُ ، ولهُ وجهٌ حَسَنْ
ولهـذا صرتُ مملوكاً لـــه   ولهذا شاعَ مـا بـي وعَلَنْ

هكذا ، فلتكن الإجازة : محكمة ، متمّمة للمعنى الذي عجز الشاعر الأوّل عن إتمامه . ولقد قال الرشيد مخاطباً أبا العتاهية : «أحسنت والله وأصبت ما في نفسي» وضاعف صلته[1] . . .

ومن الجواري المشهورات كانت ماردة . تمتّعت بسلطان كبير على قلبه فاجتازت الحاجز الذي يفصل الجارية عن المحظية ، وصارت تنتقل مع الرشيد حين ينتقل ، وتقيم معه حيث يقيم . إلاّ أنّ الرشيد كان يقرّر أحياناً الانتقال وحده ، دون حريمه ، فخلّفها ذات مرّة بالرّقّة وقدم إلى مدينة السلام . وهناك لم يلبث أن اشتاقها

---

1 الأغاني ج4 ص 76 والسيوطي – تاريخ الخلفاء ص 345 .

واستبدّ به الوجد الذي تحوّل أبياتاً غزلة رقيقة قلّد فيها الخليفةُ المحبّين العاديّين من الناس ، وأظهر الصبابة واتّهم المحبوبة بالصدّ وتعمُّدِ البعد لإذكاء نار الهوى ، وأعلن أنّه سيبقى متجلّداً صابراً ، ساتراً ما كمن من عواطفه ، متظاهراً بالاهتمام بمن حوله لكي لا يدري الناس أين هواه الحقيقي :

أَيَا مَنْ أعانَ على نفسِهِ   بتخليفِهِ ، طائِعاً ، مَن يُحِبّ
ساترُ ، والسَّتْرُ مِن شيمتي ،   هوى مَنْ أُحِبّ ، بمَن لا أُحِبّ

ولم يكن هذا الوصف لماردة وصفاً لواقعها الفعلي . فهي قد تُدِلّ على الخليفة وتغنج ، لكنها لا تجرؤ على التحرّك والتنقّل دون أمر منه . فكان عليها إجازة البيتين ، رادّة الكرة إلى ملعب الرشيد ، شارحة ما بها من وجد لا تكتم بعضه حتى يفضحها دمعها المنسجم . ولم تكن ماردة شاعرة ، إنّما أبو حفص الشطرنجي كان بمتناول جميع من يحتجنه من ساكنات البلاط . فقال على لسانها مجيزاً :

أتـــاني كتابُـــكَ يـــا سيِّدي   وفيـــه العجائـــبُ كلُّ العَجَبْ
كتابُـــكَ قـــد زادني صَبـــوةً   وأسْعَـــرَ قلبـــي بِحَـــرٍّ اللَّهبْ
ولـــولا اتّقـــاؤك يـــا سيّدي   لوافتْك بي النّاجياتُ النُجُبْ . . .
(الأبيات)

فما كان منه إلاّ أن أرسل خادماً على خيل البريد «النّاجيات» حتى حدرها إلى بغداد في الفرات ، وأمر المغنين جميعاً فغنّوا في شعره[1] .

وتكثر الأخبار عن أوضاع مشابهة يمرّ بها الرشيد . ومن المدهش أنّ الرواة عنوا بنقل هذه الأخبار ودوّنوها حتى أقلها أهميّة ، وحتى الناقص منها مما لم تتّضح شخصيّةُ أبطاله ، وممّا لم تكن له خاتمة تلفت الأنظار ، كالخبر التالي : «خرج الفضل بن الربيع يوماً من حضرة الرشيد ومعه رقعة فيها أربعة أبيات فقال : إنّ أمير المؤمنين يأمر كل

1 الأغاني ج22 ص 52 والديارات ص 225 .

من حضر ممّن يقول الشعر أن يجيزها» أوّلها :

أهدى الحبيبُ مع الجنوبِ سَلامَهُ   فارددْ إليه مع الشمالِ سَلاما . . .
(الأبيات)

فلم يوجد مَن يُجيزها ، فأمر إبراهيمَ الموصلّي فغنّى فيها لحناً[1] . فالخبر ، كما نرى ، ليس له أصل : هو لا يشير إلى قائل الأبيات ولا إلى مناسبة قولها ، ولا إلى طريقة وصولها إلى الرشيد ، أو سبب وقوعها منه موقع الاهتمام . وليس في الخبر عظة أو عبرة تاريخيّة ، اللهم إلاّ أن يكون طلب الإجازة الشعريّة أمراً لا يقلّ أهميّة وإلحاحاً عن شؤون الحكم ، حتى يخرج الحاجبُ الوزير بنفسه يطلب إلى الشعراء قضاءها .

وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه سابقاً من أنّ الفكرة ، إذا خطرت بذهن الرشيد ، فلا بدّ من تنفيذها ولو أقلق ذلك الناس وأقام عاصمة الملك وأقعدها . فقد ذكر أنّه قال : «في الليل بيتاً ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه» فأمر بحمل العبّاس بن الأحنف ثم قال له : «وجّهت إليك لبيت قلتُه ورُمتُ أن أشفعه بمثله فامتنع القول عليّ . فقال : يا أمير المؤمنين ، دعني حتى ترجع إليّ نفسي ، فإنّي قد تركت عيالي على حالة من القلق عظيمة ونالني من الخوف ما يتجاوز حدّ الوصف . فانتظر هنيهة ثم أنشده ، البيت :

جِنانٌ قــد رأيناهــا   ولم نــرَ مثلَهــا بَشَرا

فقال العبّاس :

يزيدُكَ وجهُها حُسناً ،   إذا مــا زِدتَــهُ نَظَرا

فقال له الرشيد : زدني . فقال :

إذا ما الليلُ مال عليـ   ـهِ بالإظلامِ واعتكَرا
ودَجَّ ، فلا ترى قمراً ،   فأَبْــرِزْها تَــرَ القمرا

1 الأغاني ج5 ص 161 والورقة ص 18 .

فقال له الرشيد : قد ذعرناك وأفزعنا عيالك . . . وأمر له بعشرة آلاف درهم[1] .

ولنا أن نتساءل : من تكون جنان هذه التي لا يرى الرشيد بَشَراً نظيراً لها ؟ أهي جارية من حريم القصر لم يرد لها ذكر في غير هذه الحادثة ؟ أو قد تكون هي عنان ، جارية الناطفي التي دعتها بعض الأخبار باسم جنان ؟ وإن كنّا نستبعد هذا الاحتمال لأنّ علاقة الرشيد بعنان لم تدخل إطار العشق الحقيقي ، بل بقيت ضمن إطار الإعجاب بالفن والأدب . وللرشيد مع عنان قصة طويلة . فقد أراد احتيازها لكن صاحبها كان شديد التعلّق بها ، كامرأة ، وكمورد رزق له لجهة ما ينفقه في داره المعجبون بها ، وكمجال شهرة نظراً للأهميّة التي نالها بوجودها عنده . ومع أنّ الرشيد كان ينفق كثيراً على شراء الجواري فإنّه أحجم عن دفع الثمن الذي اشترطه الناطفي ثمناً لعنان[2] ، ربّما لأنّ علاقته بها شُهرت وأنكرها الرشيد أمام وجوه بني هاشم الذين حرّضتهم زبيدة ليردعوه عنها . ولو أنّ الرشيد تعشّقها بالفعل لما ضنّ بمال لإشباع هواه . . . لذلك نرجّح أنّ علاقته بها اقتصرت على الإعجاب بفنّها ، بالشاعرة السريعة إلى الارتجال وإلى الإجازة الشعريّة ، إذ «كان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم»[3] .

ولئن لم تدخل عنان بلاط الرشيد ، كجارية أو كمحظية[4] ، فلقد دخلت اهتمامه

---

1 تاريخ بغداد ج12 ص 131 .

2 يروي الأصفهاني «أنّ الرشيد طلب من الناطفي جاريته ، فأبى أن يبيعها بأقلّ من مئة ألف دينار ، على أن يأخذ الدينار بسبعة دراهم . فامتنع عليه» . وحين صرف الرشيد النظر عن شرائها ، تصدّق الناطفي بثلاثين ألف درهم . (الأغاني ج22 ص 529) .

3 المرجع السابق ص 521 .

4 الأخبار متضاربة في هذا الموضوع . يروي ابن عبد ربّه أنّ الرشيد «استعرض جارية الناطفي ليشتريها . . . ثم أمسك عن شرائها» . ثم يقول ، بعد ذكر خبر إجازتها لأبيات جرير إنّ الرشيد قال : «خلعت الخلافة من عنقي إن باتت إلاّ عندي . . . . . فبعث إلى مولاها فاشتراها بثلاثين ألفاً . وباتت تلك الليلة عنده» . (العقد الفريد ج6 ص 58) .

وأولع بسماعها ، حتى هاجت كوامن الغيرة في نفس زبيدة ، كما أشرنا ، وظهرت عليها بوادرها ، وقلّما كانت تظهر عادة ؛ فبعثت إلى الأصمعيّ تقول : «إنّ أمير المؤمنين قد لهج بذكر هذه الجارية عِنان ، فإن صرفتَه عنها فلك حكمُك[1] . وهذا كلّه يؤكّد ما هو مشهور عن عنان من أنّها لعبت دوراً في حياة الرشيد ببديهتها ، فكانت محور إجازات طريفة . كتبت مرّة رقعة فيها :

كنتُ في ظلِّ نعمةٍ بِهواكا ... آمنـــاً لا أخـــافُ جَفَـــاكا
فسعـى بيننا الوشاةُ فأقــرر ... تَ عيونَ الوشاةِ بي ، فهَناكا
ولَعَمـــري ، لَغَيرُ ذا كان أولى ... بكَ ، في الحقِّ ، يا جُعِلتُ فِداكا

فأخذ الرشيد الرقعة بيده ، وعنده أبو حفص الشطرنجي فقال : أيّكم يشير إلى المعنى الذي في نفسي فيقول فيه شعراً وله عشرة آلاف درهم ؟ يقول الأصمعي ، راوي الخبر ، وكان حاضراً : «فظننت أنّه وقع بقلبه أمر عنان . فبدر أبو حفص فقال :

مجلسٌ يُنسب السرورُ إليه ... لِمحـــبٍ ريحانُـــهُ ذكراكا

فقال : يا غلام ، بدرة . فقال من جديد[2] :

كلّما دارت الزجاجةُ والكأ ... سُ أعارتْـــهُ صَبـــوةً فبكاكا

---

1 يقول الرشيد : «والله لولا أني لم أَجُرْ في حكمٍ قطّ متعمّداً ، لجعلتُ على كلّ جبل منه (الناطفي) قطعة ، وما لي في جاريته من أرب غير الشعر . فأطلق الأصمعيّ نكتته الشهيرة : «أجلّ والله ما فيها غير الشعر ، أفَيُسرّ أمير المؤمنين أن يجامع الفرزدق ؟ . . . ونال بذلك مكافأة زبيدة» الأغاني ج22 ص 528 .

2 في رواية العقد التي اعتمدناها «فقال جرير» . . . ولكن ليس في سائر الخبر ما يدلّ على وجود جرير ، كما لم نجد أحداً من شعراء البلاط بهذا الاسم . لذلك افترضنا أنّ هناك خطأً في النقل جعل «فقال جرير» عوضاً عن «فقال من جديد» . وهذا يتّضح من رواية البغدادي للخبر نفسه ، وفيه قول الشطرنجيّ : «قد حضرني بيت ثان ، يا أمير المؤمنين» .

فقال : يا غلام ، بدرة . قال الأصمعيّ : فقلت :

لم ينلْكِ الرجاءِ أن تحضُريني وتجافت أمنيّتـي عـن سواكا

فقال الرشيد : أحسنت واللهِ ، يا أصمعي ، لها ولك بهذا البيت عشرون ألفاً . ولكني أشعَرُكم حيث أقول :

قد تمنيـتُ أن يُغَشِّيني اللـ ـهُ نُعاساً لعـلّ عينـي تراكا[1]

ولا شكّ في أنّ الرشيد كان يعيش لحظة نشوة تثبت ما وصفتْه به الرّاوية من إنّه كان متخثّراً من أثر النبيذ أو مبتذلاً ، وتلك حالة نادراً ما يظهر بها للملأ .

ونحن اعتمدنا في هذا الخبر رواية العقد ، من بين الروايات العديدة ، لأنّها الوحيدة التي تشير إلى الباعث على الإجازة وتربطه بأبيات عنان التي جاء شعر الرشيد وجلسائه متمّماً لها . إنّما لنا تحفّظ على رواية العقد لجهة قوله إنّ عنان كتبت إليه الرقعة . فنحن نستبعد أن تكتب جارية الناطفي النخاس رسالة حبّ شعريّة إلى خليفة ، وإذا سلّمنا بأنّها قد تكون كتبتها ، نستبعد أن تصل إلى الرشيد عبر أبوابه وحرّاسه والمشرفين على بلاطه . ونعتقد أنّ هناك نقصاً أو تحريفاً في عمل النسّاخ . فلو جاء الخبر على الشكل التالي . «وصلت إلى الرشيد رقعة فيها شعر قالته عنان . . .» كان أكثر واقعيّة ، فلا تكون الرقعة بخطّها ولا تكون موجّهة في الأصل منها إليه ، ولا الشعر كذلك . وعكس ذلك ممكن ، إذ لا يُستبعد أن يخرج شعر من القصر ليصل إلى عنان ، تتلقّاه في بيت الناطفي وتجيزه . وهذا حصل فعلاً عندما غُنّي الرشيد ، في أحد أسماره ، بأبيات جرير :

إنّ الذين غَدَوا بِلُبِّكَ غادروا وَشَلاً بِعَينِـكَ لا يَزال مَعِينا

---

1 العقد الفريد ج6 ص 58 – والأغاني ج22 ص 527 وتاريخ بغداد ج14 ص 10 مع الإشارة إلى أنّ رواية العقد تجعل القافية تنتهي بالكاف مع الألف «ذكراكا» بينما في الأغاني وتاريخ بغداد تنتهي بكاف المؤنثة المخاطبة «ذكراكِ . . .» .

فطرب الرشيد طرباً شديداً وأُعجب بالأبيات ، ولم تكتمل متعتُه بسماعها وحدها ، فأراد لها أنسباء وأقرباء ، فتوجّه إلى الجلساء : «هل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهنّ ، وله هذه البدرة ؟ فقالوا ، فلم يصنعوا شيئاً» . ولدى فشل أهل البلاط في الامتحان ، بينما رغبة الرشيد قائمة ، استأذن خادم واحتمل البدرة وذهب إلى عنان يقصّ عليها الخبر . فأخذت البدرة وقالت :

هيّجتَ بالقولِ الذي قد قُلتَهُ   داءً بِقَلبي ما يزال كَمِينا
قد أينَعَتْ ثَمَراتُهُ في حِينها   وسُقينَ مِن ماءِ الهَوى فَرَوينا
كَذَبَ الذين تَقَوّلوا ، يا سيدي ،   إنّ القلوبَ ، إذا هَوِين ، هَوَينا

فرجع بالأبيات إلى الرشيد فقال له : ويحك ، من قالها ؟ قال : عنان جارية الناطفي . . .»[1] .

وهكذا كانت الموازاة قائمة بين الرغبة في الإجازة ، عند الرشيد ، والقدرة عليها عند عنان وسواها . ولعلّ إجازة عدّة أبيات «بمثلهنّ» أمر غير بعيد الحدوث في عالم النظم . فهي ، بتعدّدها ، تبرز معنًى واضحاً وتحدّد حالة تعبّر عنها فيسهل استقصاء المعنى بما يناسب تلك الحالة . وأصعب من هذا ، بلا شك ، إجازة بيت ، أو تعبير ، أو جزء من بيت يحتمل معناه غير تأويل ، ويمكن له أن يعبّر عن العديد من الحالات المتناقضة . من ذلك أنّه «اجتمع الشعراء ببابه فأذن لهم . فقال : من يجيز هذا القسيم وله حكمه ؟ فقالوا : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

المُلْكُ للهِ وحْدَهُ

فقال الجمّاز :

. . . .   وللخليفةِ بَعْدَهْ
وللمُحِبِّ إذا ما   حبيبُهُ باتَ عِندهْ

1 العقد الفريد ج6 ص 57 .

فقال : أحسنت وأتيتَ على ما في نفسي ، وأمر له بعشرة آلاف درهم[1] .

وإنّنا لنعجب أشدّ العجب للجماز ، كيف استطاع أن ينطلق من هذا القسيم الذي هو أقرب إلى الصلاة والتسبيح ، ليصل إلى مناغاة الحبيب لمحبوبه ، ويأتي على ما في نفس أمير المؤمنين ! إنّه ضرب من السحر أو التنجيم ، أو هو نتيجة لما ذهبنا إليه سابقاً من أنّ بعض الشعراء كانوا يُعنون باستقصاء أخبار المقاصير وما خلف المجالس ، ويتتبّعون أحوال الرشيد مع خاصته وأهل بيته وجواريه ، في مدّها وجزرها ، وُضُوحها وخفائها ، حتى يستطيعوا ، إذا ما ندّت عن الخليفة كلمة ، أن يتداعى لها في أذهانهم سلسلة مترابطة من الأفكار والصور . وهذا معروف عن أبي نواس بصورة خاصة[2] . فقد «صعد الرشيد يوماً على بعض أسطح قصره فرأى جارية عريانة . فلم يزل يديم النظر إليها وهي تغتسل حتى التفتت فنظرت إليه . فلمّا رأته سترت فرجها بيدها ونزلت عن السطح الذي كانت عليه . ونزل الرشيد ، فقال : عليّ بأبي نواس فجيء به ، فلمّا دخل قال له : قل لي على بيت قلته :

نَظَرَتْ عَيني لِحَيْني   نَظَراً وافَــقَ شَيَني

فقال أبو نواس :

سَتَرَتْهُ ، إذْ رأتْني ،   بين طَــيِّ العكنتينِ
فبدَتْ منــهُ فُضولٌ   ما تُــوارَى باليدينِ

فقال الرشيد : عرفتَ القصة يا ابن الخبيثة ! . . .[3] فإذا صحّ هذا الخبر يكون اختيار الرشيد له لأنّه يعرفه مختصّاً بهذا النوع من المواضيع ، إلى طُرفة وجرأة لديه .

وليس غريباً أن يُتداول بعضُ الأدب المكشوف في البلاط ، فهذا التداول ، إذا بقي ضمن حدود الإشارة والكناية والألغاز ، كثيراً ما يكون التسليةَ المفضّلة لعليّة

---

1 ابن رشيق – العمدة – ج1 ص 128 .
2 ابن منظور – أبو نواس – ص 193 .
3 المرجع السابق ص 191 .

القوم ، حين يتنادمون ويهزلون . أمّا إذا تركوا إطار الهزل إلى تسلية الجدّ ، فإن كلامهم يكون صافياً ، نقيّاً مختاراً ، شأن ما رأيناه من الرشيد حين استدعى وزيره للاصطباح عنده بشعر لطيف ، وكان الردّ عليه من جعفر شعراً شبيهاً له في صفائه واختيار ألفاظه ومعانيه ، وانطباعه بطابع تسلية الطبقة العليا في المجتمع[1] . ولا بدّ هنا من الإشارة ، بعد ما قدّمناه ، إلى أنّ الرشيد ، الذي كان دائماً محرِّكاً لأدب الإجازة ، متطلّباً له ، قد عُرف عنه ذلك حتى بات يستدعي جليسَه ويقولُ أمامه البيت من الشعر ، فيبادر الجليس إلى إجازته ، قبل أن يطلب منه ذلك ، أو هكذا يصوّره الرواة . وهم إذ يتخذون هذا الموقف منه ، فعن قناعة بالدور الكبير الذي لعبته الإجازة في بلاطه .

يروي ابن منظور أنّ أبا نُواس أُدخل على الرشيد فقال له : «يا حسن ، أرقتُ في هذه الليلة فخطر ببالي هذان البيتان : وهما :

وقهوةٍ ، كالعقيقِ ، صافيةٍ يَطيرُ مِنْ حُسنِها لها شَرَرُ
زوّجتُها الماءَ كي تذلَّ له فامتنعت حين مَسَّها ذَكَرُ

قال : فقلت بديهاً :

كذلك ، البكر عند خُلوتِها ، يظهَرُ منها الحَياءُ والخَفَرُ
حتى إذا ساسها مُملَّكُها ، فما لها فيه ، ثَمَّ مُزْدَجَرُ
عادتْ له ثَيِّباً تُفاكِهُهُ قد غابَ عنها ، بالرِّقَّةِ ، الأشَرُ[2]

---

1 غرر الخصائص الواضحة ص 441 ، راجع ص 49 ، 80 من هذا البحث .

2 (ابن منظور . أبو نواس ص 190) . وابن منظور ، بعد روايته لأخبار أبي نواس مع الرشيد التي تعتمد إجازة شعر يقوله ، أو معنى يضمره ، يشكّك في اتّصال أبي نواس بالرشيد ، أصلاً ، بقوله : «قال بعض المترجمين ممّن يحيط علماً بأحوال أبي نواس : إنّ هذه الحكايات ، عن أبي نواس والرشيد ، موضوعات ؛ وإنّ أبا نواس ما دخل على الرشيد قطّ ولا رآه ، وإنّما =

والرشيد ، الذي وجدناه حتى الآن يقول البيت أو ينشده ، طالباً إجازته ، شارك أيضاً في فن الإجازة الشعرية[1] ، فالسيوطي يخبر عن «أوّل شعر قاله الرشيد ، أنّه حجّ سنةَ ولي الخلافة ودخل داراً ، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر كُتب على حائط :

ألا يـــا أميرَ المؤمنين أمــا تَــرَى ـ فديتُكَ ـ هجرانَ الحبيبِ كبيرا ؟

فدعا بدواة وكتب تحته بخطّه :

بَلَى والهَدَايا المُشعَراتِ وما مَشَى بمكّـــةَ ، مرقوعُ الأظـلّ حَسيرا[2]

والبيت الشعري لم يكن يعنيه هو بالذات كأمير للمؤمنين ، ولكنه اعتدّه سؤالا موجّهاً إليه ، وعليه ألاّ يردّ سؤالاً ، متهرّباً من الجواب ؛ فهو لا يروغ من موقف

= دخل على محمد الأمين» (أبو نواس ص 194) . وفي رأينا أنّ هذا التشكيك في غير محلّه . قد يتناول الشكّ صحّة رواية أو ، غالباً ، بعض تفاصيلها ؛ لكن اتّصال أبي نواس بالرشيد لا مجال لإنكاره إذ يؤكّده ثقات ممّن رووا أخباره وأشعاره أو أخذوا عليه الغلو والتناقض في بعض معانيه المدحيّة (انظر قدامة بن جعفر في نقد الشعر ص 63 والمرزباني في الموشح ص 266 وما بعد) . كما تؤكّده أشعار أبي نواس المثبتة في ديوانه والتي تتوجّه إلى الرشيد صراحة وبالاسم . ومن الثابت أنّ الرشيد حبسه لمجونه وشرب الخمر ، علانية ، حتى أقلع . (انظر مقدّمة ابن خلدون ج1 ص 235) . إنّما نتساءل : هل كانت «الكلفة مرفوعة» بين الرشيد وأبي نواس ، وهل كان الشاعر يلازم الخليفة ، كما تصوّره الروايات ، ويحضر مجالس منادمته وشرابه ؟ إنّنا لا نصدّق ذلك . فإذا كان الفضل بن يحيى يرفض منادمة النواسيّ ، نظراً لأسلوبه في الحياة (انظر طبقات ابن المعتزّ ص 217) فمن المستبعد أن يرضي الرشيد ما رفضه الفضل . ومعظم أشعار أبي نواس في الرشيد هي أشعار جدّ أو طُرفة لا هزل ومجون . فهذا قد خُصّ به الأمين . ولعلّ الرواة دمجوا أخباره مع الأمين بأخباره مع والده . يقول طه حسين : «هو جاد حريص ، إذا مدح الرشيد ، وهو يتردّد بين الجدّ والهزل إذا مدح الأمين» (حديث الأربعاء ص 126) . ونحن نعتقد أنّ بعض ما جاء في أشعار الإجازة أعلاه هو أقصى ما بلغه أمام الرشيد ، من تحلّلٍ من جدّيّ القول .

1 انظر إجازة الرشيد لشعر كتبته جارية بغالية على تفاحة في مروج الذهب ج3 ص 285 .

2 السيوطي – تاريخ الخلفاء ص 345 .

يمكنه أن يثبت فيه كفاءة وقدرة . وإذا صحّت رواية السيوطي يكون أوّل شعر قاله الرشيد هو شعر الإجازة ، أي شعر البديهة الحاضرة والحسّ المرهف والذوق الأدبي .

هذا ، ولشعر البديهة في البلاط مظاهر أُخرى ومواقف غير مواقف الردّ على سؤال أو امتحان ، وغير مواقف الإجازة ، مواقف أسرع ممّا ذكرنا وأقصر ، ونعني بها «أدب اللمحة الذكيّة» الذي نما واشتدّ في بلاط الرشيد ، فملأ كتبَ الأدب والرواية بأخباره ونوادره .

5 ـ أدب الخطرات الذكيّة

وقد ألحقنا هذا اللون ، المعتمد على الفطنة وحسن التخلّص ، بمجالس الاختبار لأنّه غالباً ما تكون الخطرة الذكيّة تعبيراً عفويّاً في امتحان عسير ، أو جواباً ذكيّاً عن سؤال يهدّد المصير . وتشمل الخطرة ، في رأينا ، الإجابة البليغة ، أو الكلمةَ الموجزة الفصيحة ، أو تصحيحاً لقول أو موقف يشكّل اعتذاراً ، أو بادرة فطنة في موقف صعب . ونحن نتناول فيما يلي مختلف جوانب أدب الخطرة هذا ، باستثناء المظهر الاعتذاري الذي يكون الحديث عنه في أدب الاعتذار .

وقبل البدء في عَرْضنا ، لا بدّ لنا من استشفاف نصيب الرشيد من هذا الأدب ، وقد عُرفت عنه جميع صفات البداهة وسرعة الفهم والفطنة . من ذلك ما أدركه وعلّق به على خطبة البرمكيّة[1] التي دخلت عليه تقول : «أقرّ الله عيْنَكَ ، وفرّحك بما آتاك ، وأتمّ سعدَك ، لقد حكمتَ فقَسطْتَ . . .» فالتفت إلى الحاضرين من أصحابه قائلاً : «أتدرون ما قالت المرأة ؟ ما أظنّكم فهمتم ذلك . أما قولها : أقرّ الله عينك ، أي أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت . وأمّا قولها : وفرّحك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى : حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة . وأما قولها : أتمّ الله سعدك ، فأخذته من قول الشاعر :

1 لقد عُرف خبر مناظرة شعريّة نسبت إلى الرشيد وأم جعفر البرمكي . إنّما البرمكيّة هنا امرأة أُخرى ، والخبر نثري وليس فيه مناظرة ، وهذا ما يجعله مختلفاً عن الخبر الأوّل .

إذا تَـمَّ شيءٌ بـدا نقصُهُ   تَرَقَّبْ زَوالاً ، إذا قيلَ ، تَمّ

وأمّا قولها : لقد حكمت فقسطتَ ، فأخذته من قوله تعالى : وأمّا القاسطون ، فكانوا لجهنّم حطبا»[1] .

ومع شكّنا في صحّة نسبة هذه الاكتشافات الكلاميّة كلّها إلى الرشيد ، فقد أوردنا الخبر لندلّل على ما تمتّع به الرشيد ، بكفاءاته ، من صيت بعيد في ذهن الناس ، والأدباء الرواة منهم على الخصوص ، حتى استسهلوا أن ينسبوا إليه مجموعة من القوالب الكلاميّة التي تبرز عادة بشكل تدريجي مع تجربة أجيال من العاملين في هذا الحقل ، من خلال التمحيص الطويل والتمعّن والدرس للتعابير الواردة في التراث الديني والأدبي ، مقارنة بالتعابير المتداولة في حديث الناس اليومي ، هذا التمحيص الذي يوضح الوجه الآخر للأشياء والأفكار والتعابير . ولئن ازدهر علم الكلام في أيّام الرشيد فإنّه كان لا يزال ناشئاً لم ينضج لهذا النوع من الاستنتاجات ، ولا الرشيد نفسه كان من مؤيّديه أو ممارسيه ، ولا كانت عنده الظروف المساعدة على التأمّل والمقارنة ، فمعظم ثقافته كان حفظاً منقولاً أو حسّاً وتذوّقاً . وقد يكون وقع له أحد هذه الاستنتاجات فنَسجت الرواياتُ حوله ما بقي منها وأوجدت شخصيّة المرأة البرمكيّة لتقول له ويجيب عن قولها . أما أن تكون قد صدرت عنه الإجابات بشكلها المتراكم الذي أوردته الرواية ، فهذا ما نستبعده .

على أن لنا ، على فطنةِ الرشيد ، أدلّةً أُخرى ثابتة ، كالتي نجد في إدراكه لبادرة عبد الملك بن صالح الذكية . فقد أرسل عبد الملك إليه هدية من بساتينه وضعها في أطباق من الخيزران وكتب إليه : «دخلتُ يا أمير المؤمنين بستاناً في داري عمرته بنعمتك ، وقد أينعت فواكهه ، فأخذت من كلّ شيء وصيّرتُهُ في أطباق قضبان ووجّهته إلى أمير المؤمنين ليصل إليّ من بركة دعائه ما وصل إليّ من نوافل بِرّه . وحين قرأ الرشيد الكتاب راح يقول : «بَرَّهُ اللهُ ووَصَلَهُ» . وتعجّب جلساؤه من دعائه له ، ولم يجدوا في الهدية ولا

1 الأحدب – إبراهيم – ثمرات الأوراق – ذيل بهامش المستطرف – ج2 ص 226 .

في الكتاب مسوّغاً لهذا الاهتمام إلى أن قال لسائله : «يا صبي ، أما ترى كيف كنّى بالقضبان عن الخيزران إعظاماً لأمّنا رحمها الله ؟»[1] .

ولعبد الملك بن صالح ذكر كلّما جرى حديث عن البلاغة وحضور البديهة في البلاط ، أيّاً كان الموقف الذي يقفه . ففي لحظات الرضى عنه يتجلّى بأدب وفصاحة . وفي لحظات السخط عليه لا يفقد لفتة معجزة أو ردّاً مُحكماً . ولا يسع الرشيد إلاّ أن يُعجب بأقواله على رغم أنّ الإعجاب قد يتنافى ومشاعرَ لحظته نحو قريبه المتّهم في ولائه . ففي أحد مجالس العتاب تدخل يحيى بن خالد ليقول له : «بلغني أنّك حقود . فقال : أصلح اللهُ الوزير ، إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشرّ عندي ، إنّهما لباقيان في قلبي . فالتفت الرشيد إلى الأصمعيّ فقال : حرّرها فوالله ما احتجّ أحد للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك»[2] .

والرشيد يبدو ، كما يحب الرواة أن يصوّروه ، ميّالاً إلى الفخر بأبناء الهاشميّين ، يُسَرُّ لدرجة الطرب بكلّ جيّد يُنسَب إليهم[3] . أمّا إذا كان ذلك تحجيماً للبرامكة وسواهم من غير العرب ، فإنّه يشعر بنشوة تطغى على كلّ إحساس آخر لديه . وهذا ما دعاه في الخبر السابق إلى الإعجاب بإفحام عبد الملك ليحيى بن خالد وزيره ، على رغم أنّه كان ناقماً عليه نقمةً كادت تودي به . ويظهر أنّ عبد الملك كان واثقاً من أنّ الرشيد لا يقدم على قتل هاشميّ ، لذلك كان يقارعه الحجّة بالحجّة والجواب القاسي بالجواب المشابه له . فقد أراد الرشيد ، في إحدى جلسات التقريع ، أن يعيّره غمزةً في

1 المسعودي – مروج الذهب – ج3 ص 281 .

2 العقد الفريد ج2 ص 152 ؛ ومروج الذهب ج3 ص 263 ؛ وزهر الآداب ج3 ص 619 ؛ وجاء (في أمالي المرتضى ج1 ص 210) في جواب عبد الملك : «أنا خزانة تحفظ الخير والشر . . . .

3 راجع خبر سروره بإفحام المغيرة القرشي لقاضيه أبي يوسف في الإمامة والسياسة ج2 ص153 .

نسبه . فردّ عليه بعنفوانه المعروف[1] . فحبسه عند الفضل بن الربيع . ويظهر أن عبد الملك كان محظوظاً مع الرواة ، أُعجبوا جدّاً بأقواله فكادوا لا يغفلون منها كلمة ، ولا يخلو منها كتاب من كتب الأدب .

ولّما كانت الأمور تتداعى لنظائرها فإن بديهة الرشيد وتقديره للفطنة أحاطاه بحاضري البديهة ، أصحاب الفطنة . من هؤلاء سعيد بن سلم الباهلي . سأله الرشيد يوماً : «مَن بَيتُ قيس في الجاهليّة ؟ ثم مَن بَيتُهم في الإسلام ؟» فأجابه بكثيرٍ من التبصّر والذكاء . فسعيد ، كجليس للرشيد ، ما كان يحقّ له الادّعاء بأنّ قومه هم بيت قيس في الإسلام ، فيكون بذلك قد فخر بحضور الرشيد ، وهذا سوء أدب في البلاط . لكن السؤال قائم ويحتاج إلى جواب سعيدٍ اللّبق . الذي حدا بالرشيد إلى أن ينصفه ويعترف له بأنّه ، مع قومه ، هم بيت قيس في الإسلام[2] .

ومن حاضري البديهة في البلاط أبو يوسف القاضي . وقد شُهر بذلك في فتاواه المعروفة للرشيد ، إلاّ أنّه لم يقتصر الأمر لديه على الفتاوى . فقد قال له الرشيد يوماً ، وهو يحاوره : «بلغني أنّك تقول : إن هؤلاء الذين يشهدون عندك ، وتقبل أقوالهم ، متصنّعة . قال : نعم ، يا أمير المؤمنين . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ مَنْ صَحَّ ستره ، وخلصت أمانته ، لم يعرفنا ولم نعرفه . ومن ظَهَر أمرُه وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله . وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره . فتبسّم الرشيد وقال : صدقت[3] . وأكثر ما يتجلّى حضور ذهن أبي يوسف في الحكم اللبق . ولعلّ ممارسته الطويلة للقضاء ، الذي يعتمد الإصلاح ما بين الخصمين ، قبل النظر في القضيّة ، قد رسّخت عنده مهارة في تقريب وجهات النظر والتخلّص من المواقف المحدودة المحصورة ، كموقفه من الرشيد وزبيدة حين اختلفا في «الفالوذج

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 305 ؛ والوزراء والكتّاب ص 263 ؛ والنجوم الزاهرة ج2 ص 90 .

2 العقد الفريد – ج2 ص 129 . كان الجواب : في الجاهليّة بنو فزارة . وفي الإسلام : يا أمير المؤمنين ، الشريف من شرّفتموه . قال : صدقت : أنت وقومك» .

3 وفيات الأعيان – ج3 ص 341 .

واللوزينج» أيُّهما أطيب ؟ وأحضراه ليحكم بينهما . فأوّل بادرة كانت منه قوله : «يا أمير المؤمنين ، لا يقضى على غائب» . وتلك كانت فرصة ليهيىء جوابه متمهّلاً . وحين أحضر الطعامان «أكل حتى اكتفى . فقال له الرشيد : أحكم . قال : قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين»[1] .

ومن المشهورين بالفطنة والذكاء من أدباء البلاط ، أبو نواس ، بل لعلّه أشهرهم على الإطلاق ؛ وشهرته جعلته بطلاً لكلّ حكاية فيها هزل وضحك وذكاء مع أدب في كل عصر جاء بعده . وممّا يُروى له في باب المواربة قوله في خالصة جارية أمير المؤمنين ، هاجياً :

لقد ضاعَ شِعري على بابِكمْ كما ضاعَ حِلْـيٌ على خالِصةْ

«فلمّا بلغ الرشيد ذلك أنكر عليه وتهدّده بسببه . فقال : لم أقل إلاّ :

لقد ضاءَ شِعري على بابِكمْ كما ضاءَ حِلْـيٌ على خالِصةْ

فاستحسن الرشيد مواربته . وقال بعض من حضر : هذا بيت قُلعت عيناه»[2] .

وفي أدب اللمحة يشترك عدد من رجال الدولة . فهم قريبون من الرشيد مسؤولون أمامه عن أخطائهم ، ومَنْ مِنَ الناس لا يخطىء ؟ لكنّ خطأهم ، نظراً لمراكزهم ، يكـون خطيراً ، وقـد لا يُغتفر إلاّ إذا أسعفهم الحظّ بِردٍّ بليغ على الاتّهام ، أو بقولٍ ذكيّ يَستلُّ الغمّ والحقد من أمير المؤمنين . فقد روي عن حميد الطوسي أنّ الرشيد غضب عليه «فدعا له بالنّطع والسيف . فبكى (وهو القائد الشجاع) . فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أفزع من الموت لأنّه لا بدّ منه ، وإنّما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخطٌ عليّ . فضحك وعفا عنه»[3] .

---

1 المستطرف ج1 ص 177 .

2 الحموي – خزانة الأدب ص 141.

3 المستطرف ص 191 وأسرار الحكماء ص 94 .

أمّا يزيد بن مزيد ، قائد الجند ، فقد تعرّض لوشاية تتّهمه بالغرور وادّعاء الفضل على الدولة العباسيّة . وهو ، في الواقع ، ذو فضل عليها عميم ، لكنّ الرشيد لا يقبل دالّة من أحد . فأرسل إليه ليلاً يدعوه وقال له : «أنت القائل : أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب أعناق بُغاتها ؟ لا أُمَّ لك ، أي ركن ، وأي ثائر أنت ؟» وحين أحسّ يزيد بالخطر بادرَ إلى نفي تهمة الخيانة والادّعاء عن نفسه ، وإن لم ينف الأقوال ، فصحّفها قائلاً : «إنّما قلتُ : أنا عبد الدولة والثائر لها . فأطرق الرشيد وجعل غضبه ينحلّ عن وجهه . ثم ضحك» . فقد وصل إلى مبتغاه وحجّم الرجل الكبير . لكن يزيد : كان يخاف أن يكون قد بقي في نفس الخليفة شيء من هواجسه ، وأمامه تَمثُل عِبَر من التاريخ ، عبرة أبي مسلم[1] وأبي سلمة[2] ويعقوب بن داود[3] وغيرهم . فأراد أن يستلّ كلّ موجدة في نفس الرشيد فقال : «أحسنُ من هذا قولي :

خلافة الله في هرونَ ثابتةٌ   وفي بنيهِ إلى أن يُنفخ الصورُ

فقال : يا فضلُ : أعطِهِ ألف درهم قبل أن يُصبح[4] .

والاعتذار عن ذنب بكلمة ظريفة كثيراً ما ينجي من تهمة مهلكة . فقد حُمل إليه أحد الخارجين ، وتهمة الخروج هي الخيانة العظمى . فلمّا مثل بين يديه قال له : «ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفتَ بين يديه أذلَّ مني بين يديك . فأطرق الرشيد مليّاً ، ثم رفع رأسه وقال : إذهب حيث شئت . فلمّا خرج قال بعض من حضر : يا أمير المؤمنين ، تُفني مالك وتقتل رجالك حتى تظفر بمثل هذا

1 قائد جيوش الثورة العبّاسية قتله المنصور (اليعقوبي ج2 ص 367) .

2 وزير أبي العبّاس السفاح . وكان يلقّب بـ«وزير آل محمد» قتله أبو العبّاس – (المرجع السابق ص 352) .

3 وزير المهدي ، غضب عليه وحبسه فبقي محبوساً إلى أيّام الرشيد (الوزراء والكتّاب ص162) .

4 المستطرف ص 191 .

الباغي ، وتطلقه بكلمة واحدة ؟ إنّا لا نأمن أن تتسلّط عليك الأشرار بالإحسان إليهم . فأمر بردّه . فلمّا مثل بين يديه علِم أنّه قد أُغري به فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تُطِعْهم ، فلو أطاع الله فيك خلقه ما استخلفك عليهم ساعة واحدة[1] . فثبّت الخارجي بفطنته وحسن بصيرته حكم العفو السابق ، مع أنّ أصحاب الرشيد كانوا على حقّ ، وذنب الخارجي لم ينتفِ بكلامه البليغ . لكن هذه هي طبيعة الرشيد ، سريع إلى الغضب ، سريع إلى العفو[2] ، لا تكون العقوبة دائماً لديه بمستوى الذنب ولا المكافأة بمستوى الإحسان .

ممّن أذنبوا وعفا الرشيد عنهم بكلمة ، شعيب بن حرب الواعظ : رآه في طريق مكّة واعتقد أنّ من واجبه وعظه . فاعترضه صائحاً : «يا هرون ، قد أتعبتَ الأمة وأتعبتَ البهائم . فقال : خذوه» . يقول شعيب راوياً : أُدخلتُ عليه ، وهو على كرسيّ وبيده عمود يلعب به . فقال : ممّن الرجل ؟ فقلت : من أفناء الناس . فقال : ممّن ؟ ثكلتك أمّك . قلت : من الأبناء . قال : فما حملك على أن تدعوني باسمي ؟ قال شعيب . فورد على قلبي كلمة ما خطرت لي قطّ على بال . فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا الله ، يا رحمن ، ولا أدعوك باسمك ؟ وما تنكر من دعائي باسمك ، وقد رأيت الله تعالى سمّى ، في كتابه ، أحبّ الخلق إليه : محمداً ، وكنّى أبغض الخلق إليه : أبا لهب ! فقال : (تَبَّتْ يدا أبي لهب وتبّ) . فقال : أخرجوه[3] فأُخرج وهو لا يزال على قيد الحياة ، فأنقذته بادرته .

وممّن اكتسب العفو والإعجاب معاً ببادرة ، قينةٌ غنّت بوجوده :

---

1 الوطواط – الغرر والعرر ص 412 .

2 هذه الطبيعة في الرشيد كانت مؤكّدة لهيبته وعظمته . فهو ، في سرعة غضبه ، بثّ الرهبة في نفوس الأعداء والمقرّبين ، وهو ، في سرعة عفوه ترك المجال واسعاً لخيال الرواة يتحدّثون عن عظمته المتفضلة السمحاء بما يقارب الأسطورة . وكانت الكلمة الذكية مدخلاً إليه لا يُغلَق أبداً ، وهذا سبب تطوّرها ونموّها في أجوائه حتى غدت باباً من أبواب الأدب في بلاطه .

3 تاريخ بغداد ج9 ص 240 .

ما نَقَموا من بني أُميّةَ إلاّ   أنّهم يحلُمون إنْ غَضِبوا

«فلمّا ابتدأت به تغيّر وجه الرشيد ، وعلمت أنّها غلطت وأنها ، إن مرّت فيه ، قُتلت . فغنّت :

ما نقموا من بني أميّة إلاّ   أنّهم يجهلون إنْ غَضِبوا

وأنّهمْ مَعدنُ النّفاقِ فما   تفسُدُ إلاّ عليهمُ العَرَبُ

فقال الرشيد ليحيى : سمعت يا أبا علي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، تُبتاع وتسنى لها الجائزة ، يعجِّل بها الآذن ليسكن قلبُها . قال : ذلك جزاؤها . قدّمي ، فأنت مني بحيث تَحبّين . فأُغمي على الجارية[1] .

والموقف الصعب قد يُصيب بالعِيِّ والحَصْر أفصحَ الناس ، بينما يكون حينها في أشدّ الحاجة إلى فصاحته . في هذه الحال ، يبادر صاحب البديهة إلى كلام منمّق في غير الموضوع المطلوب يصوغه اعتذاراً عمّا ألمّ به من حصر ، ويأخذ به متنفَّساً لضيقه يهيّئه لاسترداد رباطة جأشه وبلاغته . ولقد رأينا نماذج متعدّدة عن هذا الموقف في دراستنا لمجالس الامتحان . ونعرض هنا لبعض اللمح في المضمار نفسه . منها ما صدر عن منصور النمري . فقد دخل يوماً على الرشيد ولم يكن أعدَّ له مدحاً . وصدف أن كان الرشيد نشيطاً طيّبَ النفس مستعدّاً لتقبّل المديح . فتطلّع إلى شاعره ، الذي رام الارتجال ، فلم يحضره شيء . ولكن الشاعر الموهوب لم يطل التردّد ، بل حزم أمره وراح يشرح وضعه ريثما يسترد أنفاسه . فحضرته أبيات في هذا المعنى ، أنشدها الرشيد فنال الاستحسان[2] . وبموقف مماثل مرّ منافس النمري : كلثوم بن عمرو العتابي ، فاعتذر بقوله : «الإيناس قبل الإبساس . لا يُمدح المرءُ بأوّل صوابه ، ولا يُذمُّ بأوّلِ خطئه ، لأنّه بين كلامٍ زوّره أو عِيّ حَصَره»[3] .

---

1 الأغاني ج5 ص 76 .

2 الأغاني ج13 ص 157 .

3 زهر الآداب ج3 ص 638 .

وممّا لا شكّ فيه أنّ أخبار الخطرات هذه لم تُحفظ في الكتب فحسب بل تناولتها الألسن بالتداول ، فرويت في المجالس الخاصة والعامة حتى بات هاجسَ كلّ ذكيٍّ أو مدّع للذكاء ، أن تهبط عليه فرصةٌ تضعه أمام الخليفة ليردّ على سؤال منه بجواب ذكيّ يعجبه وينال به حظوة لديه . هذا ما يمثّله الحوار التالي بين الرشيد وأبي شعيب القلاّل الذي أسعفته ظروف الحظّ بالدخول إلى البلاط ، حين أحبّ الرشيد أن يرى كيف تُصنع القلال . فاغتنم الفرصة وحاول أن يرتّب حواراً بينه وبين الخليفة يخرج منه بنظرة معجِب إن لم يكن بأكثر . «فبينا هو يعمل ، إذا هو بالرشيد قائم فوق رأسه . فلمّا رآه نهض قائماً . فقال له الرشيد : دونك وما دُعيتَ له ، فإني لم آتك لتقوم إليّ ، وإنّما أتيتك لتعمل بين يديّ . قال : وأنا لم آتك ليسوء أدبي وإنّما أتيتُك لأزداد بك في كثرة صوابي» . إلى هنا كان الحوارُ المحضّر في رأينا يسير سيره الطبيعي . لكن الرشيد ليس ممّن يؤخذ على حين غرّة ، أو بالمظهر الخارجي للناس . فأخذ المبادرة في سائر الحوار ووجّهه غير الوجهة التي تهيّأ لها أبو شعيب ، فأُغلق في يد القلاّل وقال أوّل ما خطر بذهنه ، فجاء سخيفاً منافياً لذكاء الجواب السابق ، ذاك أنّ الرشيد شدّ مهاجماً أبا شعيب ليعجُمَ عوده فقال : «إنّما تعرضتَ لي حين كسدتْ سوقُك . فقال أبو شعيب : يا سيّد الناس ، وما كساد عملي في جمال وجهك» ؟ فضحك الرشيد حتى غطّى وجهه ثم قال : «والله ، ما رأيت أنطق منه أوّلاً ، ولا أعيا منه آخراً»[1] .

6 ـ خاتمة

قمنا ، في هذا الفصل ، بعرض لأخبار تقترب حيناً من النادرة وتنقلب حيناً إلى الأدب . ولقد عدَوْنا أخبار الخطرات داخلة في مجال الأدب لأنّ التعبير فيها كان تجسيداً فنيّاً لواقع داخلي أو خارجي لدى صاحبها . ولمّا كان هذا النوع من الأدب ، عادة ، مادة دسمة لجامعي الأخبار ، وكلّهم يريدون تفكهة القارىء ، إلى جانب تثقيفه ، فقد اعتنوا بجمع الكثير ممّا قيل في بلاط الرشيد الذي كان قبلة أنظار

---

1 الجاحظ – البيان والتبيين – ج2 ص 292 وياقوت المستعصمي – أسرار الحكماء ص 94 .

المؤرّخين والرواة . لذلك كان لا بدّ ، لفصل من هذا النوع ، أن يغلب النقل على بعض أجزائه ، فجاءت فيه ملامح ، بعضها معروف متداوَل ، وأُخرى قليلة التداول ؛ إذ من الصعب جدّاً اكتشاف الجديد في موضوع استهوى الباحثين حتى استنفدوه . ولعلّهم لم يكتفوا باستنفاده ، بل زادوا فيه وأفاضوا . فالبحث ، إذا ما شحّ مَعينه ، عمد الراوي إلى إلحاق زيادة بالأخبار ، أو ببعض جزئيّاتها وتفاصيلها ، ممّا يكون أعجبه في أخبار أُخرى ، ولم يستطع الاستغناء عنه إذ وجده يليق بمن يروى له . والرشيد من أكثر الخلفاء حظّاً في هذا المضمار ، لأنّه اختلط بأبطال الأدب الشعبيّ وتداولت الأخبار عنه ما لا يحصى من النوادر ممّا لم نُعره اهتماماً في بحثنا . فنحن لم نورد إلاّ ما ذُكر في كتب الأدب ، مع أنّنا كنّا نشكّ أحياناً في المصدر أو في بعض ملامح الخبر ، وقد أشرنا إلى ذلك في حينه . . . ومع كلّ ما قدّمناه ، فإنّنا لم نحاول تحاشي بعض الملامح الواردة في الفصل لأنّه ، في رأينا ، يمثّل وجهاً من وجوه البلاط الزاهية ، ومنطلقاً أمام الرشيد ومجالسه للدخول إلى عالم الخيال والأسطورة .

الفصل الرابع

الغزل في بلاط الرشيد

1 ـ تمهيد

إذا أردنا أن نستقرىء البلاط شعر الترف ، فمن الطبيعي أن نتوجّه إلى أدب أبنائه لأنّهم هم الذين يمثّلون بيئته . والملاحظ أنّ تجربة العشق استغرقت معظم هذا الأدب ، ففاضت بشعر العشق قرائح ذكورهم وإناثهم وملأت صفحات من الغزل ، فيها وصف المحبوب وفيها صدّ ودلال وعتاب ، وصلٌ وهجران ، إلى ما هنالك من أفانين[1] . والواقع أنّنا لن نعرض بالتفصيل لهذا الإنتاج الأدبي لأنّه لم يكن

---

1 يمكن الرجوع إلى كتاب «أشعار أولاد الخلفاء» بشكل عام . وبشكل خاص : راجع الأغاني ج10 ص 196 و204 في غزل لأبي عيسى بن الرشيد .
وراجع العقد الفريد ج6 ص 62 وص 408 وعيون الأخبار ج4 ص 105 وأمالي القالي ج1 ص 225 في أشعار غزلة للمأمون .
وراجع الأغاني ج10 ص 121و142 و143 و146 والمدخل في دلائل الإعجاز ص 348 في أشعار غزل لإبراهيم بن المهدي .
وراجع النجوم الزاهرة ج2 ص 61 في بيتين عن الفراق لإبراهيم بن صالح .
وراجع معجم الشعراء ص 423 في غزل لأبي أيوب محمد بن الرشيد .
ونورد على سبيل المثال هذه الأبيات الرقيقة لأبي عيسى بن الرشيد :

أسهرني ثــم رَقَــدْ   وما رثى لي من كمدْ
ظبيٌ إذا زدتُ هوًى   وذلّةً ، تــاه وصــدْ
واعطشي إلى فـــمٍ   يَمجّ خمراً مــن بـردْ

(شعراء بغداد ج2 ص 68) .

على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بحياة الرشيد . ولنا فيما ندرسه من شعر هارون الغزلي خير ممثّل لهذه النزعة عند جميع أبناء البلاط ، اللهمّ إلاّ في ظاهرتين متميّزتين برزتا في البلاط على رغم الرشيد ، ولهما مغزاهما الخاص في الحديث عن أدب الترف ، وهما : غزل المذكر بالمذكر وغزل الأنثى بالذكر .

أمّا عن غزل المذكّر ، وهو أحد معالم الحياة العبّاسية المميّزة ، فيعود ، في رأينا ، إلى أسباب أهمّها اثنان : التقاليد الاجتماعيّة الدينيّة التي تشدّد الحرج على علاقة الرجل بالمرأة وتقيم وزناً كبيراً لقضيّة البكارة عند الفتاة ، وهذا ما تجلّى في المستوى الشعبي بشكل خاص ، وأدّى إلى انحراف العلاقة الجنسيّة إلى الذكور حيث لا خطر ولا فضيحة . والسبب الثاني هو الرغبة في الإثارة عن طريق التجديد ويكون ذلك عندما يملّ الرجل الحياة الجنسيّة الطبيعيّة من جرّاء توافر العلاقة وسهولتها وعدم التحرّج فيها ، ممّا عرفه المستوى المترف مع تضخّم عدد الجواري ، من كلّ جنس ولون ، وانفتاح باب التسرّي إلى ما لا حدّ له . وبلا دخول في تفاصيل أكثر ، فإنّ بيئة البلاط عرفت حالات من الإعجاب بالغلمان ، على أقلّ تقدير ، وخلّفت ملامح من الغزل المذكّر . إذ المعروف أن الأمين أولع بالغلمان ، على طريقة النّواسي[1] ، وأنّ والدته قامت بمبادرة تسوية بين ميول ابنها والعرف الاجتماعي للتصرّف السويّ حين أوجدت الغلاميات ، مُلبِسةً الجواري ثياب الغلمان ، فأحدثت «دُرجة» جديدة لم تلبث أن انتشرت واستشرت . ولعُبيد الله بن موسى الهادي قصيدة تناقلها الرواة في غلام لصالح بن الرشيد اسمه : «لا تسل»[2] .

أمّا غزل المرأة بالرجل فقد اختصّت به عليّة أخت الرشيد . ونودّ هنا الإشارة

---

1 انظر غزلاً له بخادمه كوثر ، وآخر بخادمه طاهر ، في معجم الشعراء ص 361 ؛ والأغاني ج9 ص 324 . وانظر هجاء له في ابن الأثير ج5 ص 170 .

2 الأغاني ج10 ص 206 .

إلى أنّ بعض سيّدات العصر كان لهنّ مجالس يؤمّها الشعراء والأدباء[1] شأن «الصالونات» في أوروبا ، إبّان عصر النهضة والقرن السابع عشر ، وكان لهنّ دور في تشجيع الشعراء[2] بأعطياتهنّ . ولا يبعد أن تشترك سيدة المجلس في المناقشات ، وأن تنشد البيت أو الأبيات من حفظها أو نظمها . لكن ذلك لم يكن في الاتّجاه الذي نتحدّث عنه . .

من جهة أُخرى ، فإنّ كثيرات من الجواري والقيان ، في بيوت النخّاسين ، أو في بيوت خاصة ، كنّ قبلة أنظار شعراء وظرفاء ، وبعضهنّ كان لهنّ مجلس شبيه بمجلس سيّدات القصور[3] . لكن هؤلاء الجواري كنّ دائماً طرفاً في المطارحات الأدبيّة والإجازات الشعريّة التي تجري بحضورهن . وقد قلن الأشعار في الغزل أو سواه وكانت لهنّ ردود مرتجلة على مقدّمات لبعض الشعراء[4] . ولم يكنّ يتحرّجن عن

---

1 ورد ذكر مجلس خاص بزبيدة في الأغاني ج18 ص 372 في ثنايا خبر عن بيت للعبّاس بن الأحنف . ووردت إشارة كذلك في البصائر والذخائر ج2/1 ص 37 في خبر عن شاعر مدحها فأخطأ . (انظر كذلك الغرر والعرر ص 227) وأورد القالي خبر مجلس نسائي لزبيدة ، ناقشت فيه سيّدات حمى ضريّة البدويات بموضوع العشق (سمط اللآلي 692) . ويذكر ابن منظور مجلساً يوميّاً لأسماء بنت المهدي يجتمع فيه الشعراء ومنهم أبو نواس (أبو نواس ص 140) (وانظر أخبار أبي هفّان ص 28) كما يذكر الأصفهاني مجلساً للعَبّاسة بنت المهدي تنشدها فيه الحجناء ابنة نصيب (الأغاني ج22 ص 421) .

2 انظر عطيّة زبيدة للنمري في طبقات ابن المعتزّ ص 246 وتاريخ بغداد ج1 ص 51 ، ولنصيب في الأغاني ج22 ص 416 ولأشجع في الأغاني ج18 ص 156 ولسلم الخاسر في وفيات الأعيان ج1 ص 354 ولأبي الجنوب في الورقة ص 45 .

3 انظر مثلاً أخبار مجلس عنان في بيت النطّاف (أخبار أبي هفّان ص 110 وابن منظور ص 123) وخبر عبّاده في منزل أبي عمير (الأغاني ج22 ص 456) .

4 انظر بعض مساجلات عنان جارية الناطفي للشعراء في الأغاني ج22 ص 234 وما بعد وانظر خبر حسناء جارية البرمكي في الأغاني ج20 ص 310 وخبر خلوب جارية يحيى البرمكي في الظرف والظرفاء ص 23 .

خوض غمار الأدب المكشوف وإفحام أشهر جهابذته من الرجال[1] . ولكن هذا أيضاً ليس في الاتجاه الذي نتحدّث عنه . إنّنا نتحدّث عن الصفحة الأُخرى لنشاط المرأة الأدبي الذي دخلت به ميداناً عُرف للرجال . فقد عُرف عن الغزل العربي أنّه غزل الرجل بالمرأة ينذر فيه الشاعر نفسه للمحبوبة ، أو لمحبوبة بعد أُخرى ، ويتحدّث عن هواه لها وعمّا يقاسيه في سبيل ذلك الهوى ، بسبب الفراق أو الصدّ أو كلام الوشاة ، وعن لقاءاته بها وما يتبع ذلك من حديث وعناق وقُبَل مسروقة ، أو عن تسلّله إليها في النهار وإدلاجه في الليل وما إلى ذلك . إلاّ أنّ هذا الغزل أراد دائماً للمرأة أن تتلقّى ، أن تقوم في برج عاجي تترقّب وتنتظر ، أن تغدو قبلة أنظار يتوجّه إليها من أعماق كيانه ، ومن أبعد أماكن الأرض لتجود عليه بالنظرة أو الكلمة أو البسمة . . .

هذه المثالية الشعريّة للمرأة التي يحدّدها الأدب والشعر ، دون واقع العلاقة بينها وبين الرجل ، هي التي قلَبتها عُليّة ، جاعلة المبادرة للمرأة : تقول الشعر وتتوجّه به إلى الرجل ، تشكو من صدوده ، ودلّه وهجرانه ، تتهم العذول وتدعو على الواشي المحرّض ، تكتم اسم من تهوى ، وتداري عليه ، كما تبدّل من تهواه ، فِعلَ الرجل تماماً بشعره ومحبوباته . ونحن ننسب هذه المبادرة إلى الترف لأنّها وليدة تلك البيئة التي حفلت بكلّ ما تشتهيه النفس وامتلأت بالأشكال البشريّة في أحلى مظاهرها ، بالجواري والغلمان لإرضاء كل ذوق . فعُليّة ، المطربة المبدعة ، والشاعرة الملهمة ، والفنّانة الذوّاقة ، كانت تضجّ بالحيوية وحبّ الحياة ، كما كانت لها مكانة كبيرة في قلب الرشيد أخيها ، تُدلّ بمواهبها التي يقدّرها . وكانت ، شأن أبناء الطبقة الراقية ، أجرأ من سواها على مخالفة عرف أو البوح بسرّ ومشاعر ؛ وكثيرٌ من المشاعر أثارتها فيها حياة البلاط .

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ العرف هو العرف ، داخل البلاط وخارجه ، خصوصاً إذا قام على تعاليم دينيّة ؛ وأنّ اختلاط المرأة الحرّة بالرجال كان محدوداً

---

1 انظر قطع عنان لأبي نوّاس وسواه في الأغاني ج22 ص 521 وما بعد ، وابن منظور ص37 .

بأطر ضيّقة ، وبصورة خاصّة بالنسبة إلى الفتيات الكواعب[1] . فالأسوار تحجب عنها الشبّان من طينتها ، كما تحجبها عنهم مقاصير الحرم ، خلف الأبواب . إنّما كان العرف يهيّء لها الاحتكاك بالغلمان ، كما كان يهيّء للشبّان الاحتكاك بالجواري . وكان من الطبيعي أن تعشق غلماناً لها ، كما عشق كثير من أبناء القصر جواريهم . ولعلّ هذا الوضع كان شائعاً ، إذ هو حتميّ . لكن عُليّة ، بحسّها المتوقّد ، وروحها الفنيّة ، لم تكتف بالعشق ، ولم تحاول ستره ، شأن أترابها ، لأنّ ذلك يخالف طبيعتها المميزة ، بل راحت تلجّ به وتقول فيه الشعر ، وتسمّي أبطال أحلامها[2] . وقد ظلّت تفعل ذلك إلى أن ضجّ البلاط بقصصها ، وتناقلت مقاصيره وردهاته أشعارها ، فوصلت إلى الخليفة الذي حظر عليها ذكر خدمها في شعرها[3] . وهنا دخلت موهبتها مرحلة ثانية أكثر إلهاماً وإثارة ، وهي مرحلة التستّر والخوف من الوشاة ، والكناية عن غلمانها بأسماء الإناث ، تعمية وتخلّصاً[4] . وقد بقيت هذه الصفحة من أدب البلاط نادرة المثال ، إنّما هي تؤكّد أن ترف أبنائه ركّز موهبتهم الشعريّة حول العشق والغرام وما يتبعه من لواعج . وهو دائماً غرام متنقّل بين الجواري والغلمان ، لكثرة مجالات العشق .

---

1 كان هذا العرف في أساس قصّة العبّاسة مع جعفر البرمكي ، إذ أنّها تعتمد على تحريم لقاء المرأة برجل ليس من أهلها الأقربين .

2 انظر شعرها في خادمها «طل» (الأغاني ج10 ص 173) و(نهاية الأرب ج4 ص 208) حيث يصف النويري شعرها لطلّ بأنّه مجرّد مراسلة .

3 الأغاني ج10 ص 173 ونهاية الأرب ج4 ص 208 ونزهة الجلساء في أشعار النساء ص84 .

4 صارت تكنّي عن طلّ بظلّ من ذلك قولها :

أيا سروة البستان طال تشوّقي　　فهل لي إلى «ظلّ» إليك سبيلُ ؟

(المرجع السابق) ، كما كنّت ، عن غلام آخر أحبّته اسمه «رشأ» ، بزينب وريب (المرجع السابق) ويمكن الاطّلاع على أشعارها في المراجع السابقة وفي «زهر الآداب ج1 ص 13 وج3 ص 745 وفي «فوات الوفيات» ج2 ص 100 وما بعد» .

2 ـ شعر الغزل عند الرشيد

نتناول في بحثنا حوافز هذا الشعر عند الرشيد وارتباطه بطبيعة تجربته العاطفيّة مع جواريه ، ثم المعاني التي طرقها في شعره الغزل :

أ ـ حوافز الغزل عند الرشيد

إذا كان الشاعر يتغزّل معبّراً عن لواعجه ، فهل كان الرشيد العظيم يحسّ بلواعج الشعراء من سائر الناس ؟ وإذا كان شعر الحبّ يقدّم إلى المحبوبة عربوناً لمشاعر الإخلاص وترجمةً لصدقها ، فهل كان الرشيد بحاجة إلى تقديم هذا العربون ؟ وإذا كان الشاعر ، أيّاً كانت نواياه من شعره ، يرضيه أن يسير شعره ويُشتهر به ، فهل كان الرشيد بحاجة إلى شهرة العاشق ، فضلاً عن شهرة الخليفة ؟ الواقع أنّ أعمال الإنسان تصدر عنه انطلاقاً من مجمل شخصيّته المتأثّرة ببيئتها القريبة والبعيدة . والرشيد ، أيّاً كانت مهمّته الوظيفيّة ، هو إنسان عاش في عصر معيّن ، وهو بحاجة إلى إثبات انسانيّته بلغة عصره . بل أكثر من ذلك ، كان الرشيد ، في رأينا ، يرى في نفسه نموذجاً أعلى لإنسان عصره ، تتجمّع فيه نخبة الصفات التي تعجب بيئته . ومن أهمّ صفات إنسان العصر : الحسّ الفنّي والذوق الأدبيّ والمعرفة .

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ العصر لم يعرف التصنيف والفصل : لم تُفصل فروع المعرفة ، بحسب الاختصاص ، ولم يجر ، كذلك ، فصلٌ بين السلطات ؛ فجميعها ، دينيّة كانت أو دنيويّة ، تشريعيّة أو تنفيذيّة ، تجتمع مقاليدها بيد الخليفة . ولمّا كان هذا الخليفة من قريش التي «يسع علمُ العالم منها طباقَ الأرض»[1] ، فمن الطبيعي ألاّ يصعب عليه أمر يسهل على سواه من البشر . فالرشيد كان على قناعة بأنّه الرمز الذي يُقاس إليه . كان يحب أن يروي الأحاديث

---

1 راجع في تاريخ بغداد ج2 ص 61 حديثاً يرويه الرشيد عن قريش .

لتذكر عنه [1] ، ويحب أن يتحدّث للتاريخ[2] ، ويحاول أن يطلع بنبوءات[3] ليَدُلّ على ثاقب بصره ، وانفتاح الحجب أمام بصيرته . ولولا ذلك ، لما قبِل أن يُمدح بصفات تتجاوز البشر . . والشعر إلهام ، والإلهام من الله ، أفلا يلهم الله أفضل عباده في ذلك العصر ، خليفتَه في الأرض ؟

هكذا كان من الضروري للرشيد أن يشارك الشعراءَ شعرَهم ، كما جادل اللغويّين وحكم بين الفقهاء . إنّما لماذا قال شعر العشق أكثر من سواه ؟ فذلك يقتضينا تحديد حوافز الإلهام الشعريّ لديه . فأيّ الحوافز تدعوه مباشرة إلى النظم ؟ من غير المعقول أن ينشىء شعراً في الفخر ، وهو لم يدخل في منافسة مع أحد – ولا يُعدّ من المنافسة صراعه مع العلويّين – وكان يجلّ نفسه عن مقارنتها بأيّ مخلوق آخر . وهو لم يكن ، شأنَ الوليد بن يزيد ، ليقول شعراً في الخمر لأنّه يقدّس مركز الخلافة ويوظّف تلك القدسيّة في إعطاء حكمه صبغةً دينية وسلطة

1 راجع تاريخ بغداد ج2 ص 214 وتاريخ الخلفاء ص 346 و350 .

2 يذكر الجهشاري عن لسان الأصمعي أنّ الرشيد استدعاه ذات ليلة ، بعد قتل جعفر ، وأنشده أبياتاً في سبب القتل ، ثمّ قال له : إلحَقْ بأهلك . يقول الأصمعي : «فنهضت ولم أحر جوابا . وفكّرت فلم أعرف لما كان منه معنى إلاّ أنّه أراد أن يسمعني شعره فأحكيه . . .» (الوزراء والكتّاب ص 238) ونحن ننسب إلى الحافز نفسه استدعاءه لأبي بكر بن عيّاش الزاهد ، من الكوفة ، وقد ضعف بصره وشاخ ، ليسأله : أي الدولتين ، الأموية أو العبّاسية ، كانت أخير ؟ فلا شكّ في أنّه كان يهدف إلى أن يسجّل التاريخ اتصال الخيّاط ببلاطه وأن يؤثر عنه تقريظ للعبّاسيين . (تاريخ بغداد ج14 ص 375) . ومن الباب نفسه صبّه الماء على يدي أبي معاوية الضرير وسؤاله له : «يا أبا معاوية ، أتدري من يصبّ على يديك ؟» ثمّ جوابه : «أنا . . . إجلالاً للعلم» . (تاريخ بغداد ج14 ص 8 وتاريخ الخلفاء ص 285 وخلاصة الذهب المسبوك ص 109) .

3 ينسب إليه رؤيا تحدّد مكان موته (انظر الطبري ج8 ص 343) كما تروى عن لسانه أبيات في التنبؤ لما ينتظر الأمين والمأمون بعد موته . (معجم الشعراء ص 484 – فوات الوفيات ج2 ص 269) .

مطلقة . ولم يقل شعر الوصف لأنّه لم يكن خياليّاً يحبّ الخلوة بنفسه في أحضان الطبيعة ، بل كان ، على العكس ، كثير الملل ، سريعاً إلى الضجر ، لا يفترق عن صحابته وندمائه إلاّ ساعات قليلة في ليله ونهاره ؛ وهذا يبعده عن شعر الطبيعة . لقد عرضت له مشكلة البرامكة ، فحلّها بأسلوبه ، وقال الأبيات في قتل جعفر[1] . وعرضت له مشكلة ولاية العهد ، فعقدها لغير واحد من أولاده ، وهو يحسّ بخطأ لا يمكنه تفاديه ، فقال الأبيات القليلة تعبيراً عن تصوّره[2] . . .

إنّما النساء كنّ شغله الدائم في لحظات فراغه واختفائه عن الندمان . والمرأة هي الملهمة الأولى للشعراء ، ترتبط علاقة الرجل بها بأعمق الغرائز وبأبعد مجالات اللاشعور ؛ فالرشيد وجد إلهامه الشعري يسير حكماً في طريق الغزل . وإذا ما وصلنا إلى هذه القناعة لا بدّ لنا من التساؤل : هل يكون غزل الرشيد كغزل سائر الناس ؟ وهذا يستدعي سؤالاً آخر وهو : هل كانت علاقة الرشيد بالمرأة المحبوبة كعلاقة سائر الشعراء بمحبوباتهم ؟ ونبادر إلى تحديد المرأة التي يقول فيها الرشيد شعره : إنّها المرأة الجارية . فالرشيد لم يقل كلمة غزل واحدة في نسائه الحرائر . إنّ عواطفه نحوهنّ خاصّة ، وأحاديثه معهنّ لا يعرفها إلاّ مخدع الزوجية . في حين أنّ الجواري لعبن دوراً بارزاً في أدب البلاط واشتركن ، بصورة مباشرة أو غير

---

1 الأبيات هي أربعة مطلعها :

لو أنّ جعفرَ هـابَ أسبابَ الـرَّدى   لَنَجَـا بمُهجتِـهِ طِمِـرٌّ مُلْجَـمُ

راجع الوزراء والكتّاب ص 238 ؛ ومعجم الشعراء ص 484 .

2 منها ، ناصحاً أولاده :

محمّـدُ ، لا تُبغضْ أخـاكَ فإنّـه   يعود عليك البغيُ ، إن كنت باغيا

(فوات الوفيات ج2 ص 269)

ومنها ، نادماً على تقديم الأمين في ولاية العهد :

لقد بان وجـهُ الرَّأيِ لي ، غير أنني   غُلِبتُ على الأمرِ الذي كان أحْزَما

(معجم الشعراء ص 484) .

مباشرة ، في الإيحاء به ، بل وفي إنتاجه ؛ وكان الرشيد يختار منهنّ المثقّفات الأديبات ، ولا يبخل بثمن لاقتنائهنّ[1] . أمّا علاقة الرشيد بهؤلاء الجواري فنحاول تحديد نوعها وكيف حاول الرشيد الشاعر إظهارها لنخلص بعد ذلك إلى تقويم شعره فيها من ناحية صدق تعبيرها عن انفعالات النفس .

ب ـ طبيعة تجربة الرشيد الغزلية مع جواريه

ترى هل كان الرشيد يستخدم نفوذه في نيل ما يريد من جواريه ، وكلّهنّ يتمنّين القرب منه وينتظرن بادرة أو إشارة ؟ وهل كانت علاقته بهنّ تقتصر على إشباع غريزي كما تصوّر الحكايات ملوك المغول والتتر ؟ إنّ هذا بعيد جدّاً عن طبع الرشيد[2] ذي الحسّ الفنّي والذوق الراقي . وهو يدرك تفاهة المشاعر التي يحسّها الذكر تجاه الأنثى يمتلكها بقوّة سلطانه لا بقوّة جاذبه[3] . ولا شكّ في أنّ الرشيد ، الذي ثقف ثقافة شعريّة واسعة ، حفظاً وسماعاً ونقداً ، وألمّ بمشاكل الشعراء وعلاقاتهم بنساء أحلامهم ، كان يعجب بأدبهم ، ويتأثّر بعواطفهم ، بل كان يتأثّر بعواطف العشّاق جميعاً ويستخدم نفوذه لتذليل الصعوبات أمام تحقيقهم لأمانيهم[4] . ذاك أنّه كان يرى فيهم جزءاً من ذاته ، ولمحة من طموحه إلى أن يكون عاشقاً معشوقاً ، شأنهم ، بعيداً عن أبّهة السلطان والملك[5] . وأشعار الرشيد تثبت هذا الطموح لديه ، فهو يقول عن

---

1 اشترى ذات الخال بسبعين ألف درهم (الأغاني ج16 ص 266) .

2 كان للجواري اللواتي يحبّهنّ تأثير كبير عليه . فحين مرضت جاريته المصرية أحضر لها أشهر طبيب مصري (ضحى الإسلام ج1 ص 276) وحين اشتاق ذات الخال واستدعاها حلف ألاّ تسأله «في يومه ذلك شيئاً إلاّ أعطاها ، ولا حاجة إلاّ قضاها» (الأغاني ج16 ص 266) .

3 نشير إلى استيائه ، حين شاب ، من أن يقال عن الشيب إنه ينقص الرجولة ويقلّل من اهتمام النساء بصاحبه . (الأغاني ج11 ص 340) .

4 راجع حوادث تثبت ذلك في الأغاني ج5 ص 386 ؛ والفرج بعد الشدّة ج2 ص 396 وص432 .

5 يروي الحصري أنّه كان يقول : «قلب العاشق عليه مع معشوقه» . وحين أنشده الأصمعيّ =

جواريه الثلاث الشهيرات :

إنّني وزّعتُ حبّي طائعاً بين شَجْوٍ وضِياءٍ وخُنُثْ
يتنازَعْنَ الهوى ، مِن ذي هَوى ، آمناتٍ عُقدةً لا تُنتكَثْ[1]

والرشيد ، بالتجاوز عن جميع الظروف الخاصة ، يريد أن يظهر نفسه متعاملاً مع أنثاه تعامل الندّ للندّ ، إرضاءً لرجولته . لذلك نراه يغتنم الفرص ، التي يعيش فيها أوضاعاً مشابهة لأوضاع الشعراء المشهورين ، لينهج نهجهم ، ويحاول إظهار اللوعة التي انتابتهم ، ويعبّر عنها شعراً . فمثلاً ، حين انحدر إلى بغداد مخلّفاً ، بالرقّة ، محظيّته ماردة ، اشتاق إليها وهو بعيد عنها ؛ فكانت فرصة تجربة شعريّة جديدة : الإحساس باللوعة لغياب الحبيب . فراح ينظم فيها شعراً يحاول أن يجعله وجدانيّاً ، ويحشر ، به ، نفسه ، في زمرة العذريّين الذين يتألّمون فيكتمون الألم ويحملونه وحدهم خوفاً من الإساءة إلى الحبيب بذكر اسمه . إنّه مع التستّر ، ومع التجلّد والصبر . وكأنّي به ينتقد ، من طرف خفيّ ، موقف عمر بن أبي ربيعة المصرّح الفاضح ، ويصمّم على اتّخاذ الموقف المقابل . وإذا كانت محبوبة عمر تطلب منه ألاّ ينظر إليها ، حين يراها ، لكي لا تُعرف بحبّه لها ، فالرشيد يستبق الطلب ويستجيب لرغبة محبوبته قبل أن تصرّح بها ، فيكتم خوفاً من اشتهار علاقته بها . ونحن نرى أنّ الموقف لطيف ، لكنّه ، إذا صحّ ، مُصطنع من أساسه . فلا هو مضطرّ للستر ، ولا المحظيّة ترغب في ستر علاقته بها . بل العكس هو الصحيح . فإنّ اشتهار هذه العلاقة هو أقصى أمنياتها . . وعلى كلّ حال ، فإنّ نفَس هذه التجربة قصير : لم يكن الرشيد قادراً على الانصراف إليها وتعميقها ، ولم يكن طبعه يتحمّل هذا النوع من الانشغال ، ولا نمط حياته يسمح له

= أبيات عروة بن حزام لعفراء في هذا المعنى قال : «من قال ذلك وهماً فقد قلته علماً» . (زهر الآداب ج4 ص 975) .

1 الديارات ص 227 .

بالتوقّف طويلاً عنده ، عدا أنّ أسلوبه في التصرّف غير أسلوب الشعراء . فبينما يناجي الشاعر حبيبه البعيد ، يسائل عنه الريح والنجوم ، ويحمّل القمر رسائل الشوق إليه[1] ، نرى الرشيد يبعث بالأبيات إلى ماردة فلا تتأخّر هذه عن الردّ عليها بشعر يظهر تجاوبها مع مشاعره وترقّبها لمبادرة منه توجّهها إليه . وبسرعة هائلة يتمّ اللقاء وتنطفىء جذوة التجربة الملهمة[2] . .

ولم تكن نهاية هذا الحدث هي التي تميّز الرشيد من شعراء الغزل العاديّين ، بل إنّ من يتوجّه الشعر إليهنّ ، وهنّ الجواري ، كنّ من الكثرة لديه ، بسبب غناه وترفه ، بدرجةٍ تمنعه من الإحساس بالحبّ العميق واللوعة . لكنّ قمّة الترف تتجلّى في عشقه ثلاثَ جوارٍ دفعة واحدة[3] ، وفي أن يقسم قلبه بينهنّ قسمة يصرّح بأنّها غير عادلة : لسحر الثلثان والثلث الباقي لضياء وخنث معاً[4] . ونلفت إلى أنّ خنث هي ذات الخال

1 يلمّ الرشيد ببعض ملامح هذه الصورة الشعرية في إحدى مقطوعاته . لكنّه إلمام سريع يبدو كأنّه استكمال لإطار العاشق أكثر منه تعبيراً عن واقع عاطفي . (راجع لقاء الروح فيما يلي من البحث) .

2 الرواية مع المقطوعة موجودة في الأغاني ج22 ص 52 وج18 ص 229 والديارات ص 225 ومسالك الأبصار ج1 ص 269 . وآخر بيت فيها :

سَأستُرُ ، والسَّتْرُ مِـن شِيمتي … هوى مَنْ أُحِبُّ بمَنْ لا أُحِبْ

ومطلعها مشهور وهو :

سلامٌ على النـازحِ المُغْتـرِبْ … تحيّةَ صَـبٍّ بِـهِ مُكْتَئِـبْ

3 يقول فيهنّ :

ملكْنَ الثلاثُ الآنساتُ عناني … وحَلَلْنَ مِنْ قلبي بكلِّ مكانِ

(الأغاني ج16 ص 269) وانظر الهامش التالي .

4 يقول في ذلك :

إن سِحْراً وضيـاءً وخنُـثْ … هُنَّ سِحْرٌ وضِيـاءٌ وخُنُـثْ

أخذت سِحْرٌ ، ولا ذنبَ لها … ثُلثَيْ قلبي ، وتِرباهـا الثُّلُـثْ

(الأغاني ج16 ص 268) .

وأنّها ، وحدها ، ألهمت الحبّ والغزل لعدد من فحول الشعراء ولآخرين من أكثر الرجال ترفاً ، وقال فيها إبراهيم الموصلّي ، على كثرة ما مرّ به من جوار وما احتازه منهنّ ، شعراً غزيراً يسيل هياماً وعذوبة . فإذا عرفنا ذلك استطعنا أن نتصوّر مبلغ جمال الأُخريات ، وترف الرشيد بجمعهنّ معاً . إنّما ، ما لا نستطيعه بالفعل ، هو تصوّر حقيقة المشاعر التي كانت تنتاب هؤلاء الجواري وهنّ يقبلن واقع المشاركة ويتنافسن على هوى الخليفة ، ولا نستطيع ايضاً أن نتصوّر مشاعر الملك الذي يوزّع قلبه هنا وهناك وهنالك ، ولا مشاعر الزوجات القابعات خلف الستائر تحجبهنّ الأسوار ، وهنّ يحتلن في إيجاد موطىء قدم لهنّ ، في هذا الزحام .

والآن ، إذا اقتنعنا بأنّ الرشيد ، كما يظهر من الشعر الذي رُوي له ، حاول إقامة علاقة طبيعية مع المرأة ، شأنَ سائر الرجال ، بعيداً عن سلطة الخلافة ونفوذها ، ممّا هو غير مألوف في سيرته ، وأنه قال شعر الغزل لإثبات ذلك ، فأيّ المعاني تناولها في شعره ، وإلى أيّ مدى وُفّق ؟

ج ـ المعاني الغزليّة في شعر الرشيد

لقد تناول الرشيد المعاني العادية المعروفة وإن لم يقاربها دائماً بالأسلوب الطبيعي ، لأنّ تعبيراً من هنا ، وتفصيلاً من هناك ، كانا يكشفان عن أنّ العاشق هو الخليفة ، وأنّ التجربة التي يصفها هي من إبداع خياله لا من حقيقة واقعه . هكذا تحدّث الرشيد عن الحبّ والهيام ، والنحول والهزال ، وعن عهود الحب والوفاء ، ولقاء الروح على البعد . وتغزّل بالمحبوبة متحدّثاً عن جمالها ، وعن دلّها وصدودها ، وبالغ في إظهار سلطانها عليه .

* **الحبّ والهيام ونحول الجسم من الهوى** : إذا استثنينا الوليد بن يزيد فإن الخلفاء لم يستسيغوا نظم شعر الغزل والهيام . وإذا رُوي منه لأحد ، فالبيت أو البيتان في معنىً غزليّ عام . أمّا التشبّه بالعشّاق ، وتبنّي مشاعرهم ، فلا شك في أنّ الرشيد كان رائد الخلفاء ، العبّاسيّين منهم على الأقلّ ، في هذا المضمار . ولم يكن

الرشيد ليفعل ذلك لولا ترف في حياته سبق لنا إبراز أسبابه ومظاهره . فالرشيد يصوّر نفسه ، في الشعر المنسوب إليه ، مغرماً عريقاً ، أنحله الجوى فصيّره خيالاً وكوى قلبه فما يستطيع كتمان ما به . وما به بات ، كما يقول ، يُقرأ على جبهته : حكماً عليه مبرماً أنّه قتيل الهوى[1] . أمّا قاتله فظالم لا يرحم ، قويّ ، وقوّته في جمالٍ ليس له مثيل[2] . ويلذّ للرشيد أن يغالي في صورة العاشق التي يرسمها لنفسه حتى ليكاد يصبح عاشقاً نموذجيّاً يحمل علل العشّاق جميعاً ، ويقاسي متاعبهم . فهو «مضطرّ أن يستر» اسم من يهواه لئلاّ يفتضح وتلوكه الألسن . لكنّه عبثاً يحاول الكتمان : فكما أنّ هواهُ يُقرأ على جبينه ، فإنّ دموعه تكشف لواعجه . ولا هوىً بلا دموع[3] .

* **عهود الحب والإخلاص** : وهي معالم تابعة لصورة العاشق المدنف . لكن الرشيد لا يجد غضاضة في أن يكون عهده جماعيّاً موجّهاً إلى المحبوبات الثلاث معاً : يقدّم لهنّ مكاناً في قلبه لا ينزلن عليه ضيوفاً ، بل يمتزجن به ، وتشتبك شغافه بشغاف قلوبهنّ ، حتى تغدو جميعها نسيجاً واحداً لا تمايز فيه . ويستدرك الرشيد : إنّ قلبه ليس بكراً ، وهو يريد لهنّ منزلة لم يسبقهنّ إليها أحد . لذلك نراه ينقلهنّ إلى منزل

---

1 يقول الرشيد :

صيّرني الحُـبُّ إلى ما تَـرى   أَنحلَ جسمي ولِقلبي كَـوَى
قَد كَتب الحبُّ على جبهتي :   هذا قتيـلٌ في سبيلِ الهـوى

(الديارات ص 226) راجع تعليقنا في خاتمة هذا الفصل .

2 يصف الرشيد محبوبته فيقول :

أحسنُ مـن أيصَرَهُ مُبصِرُ   لو أنّـه ، في حسنِهِ ، راحِـمُ

(المرجع السابق) .

3 راجع بيته عن الستر في صفحة سابقة . ويقول في غير ماردة :

لِساني كَتـومٌ لأسرارِهِـمْ   ودمعي ، بِسِرِّي ، نَمُومٌ مُذيعْ
فلولا دموعـي كتمتُ الهوى   ولولا الهوى لم يَكنْ لي دُموعْ

(خزانة الأدب للحموي ص 202) .

آخر لم يوطّئه لغيرهنّ : إلى سواد العين . ويعاهِدهنّ على الوفاء ، وعلى أن يقيهنّ قريبات إلى نفسه حتى يناديه أجله[1] . وعلى رغم غرابة الصورة على خليفة هو الرشيد ، فإنّنا نجد فيها نفثة صادقة تتناسب وما شُهر عنه من ولعه «بآنساته الثلاث» ، دون أن ننكر نفَس التقليد والمغالاة البارز فيها .

* **بُعد الحبيب ولقاء الروح** : وهذا أيضاً من المعالم الثابتة لصورة العاشق . لأنّ البعد يؤجّج الشوق فتشفّ الروح وتنفلت من عقال الجسد لتهيم في أجواء الخيال حيث تلتقي روحها التوأم ، ثم يكون الاتّحاد وتكون السعادة . والروح ، متى شَفّت ، تصبح في وضع تَلَقٍّ مرهف : تلتقط النفحة والنأمة[2] ، متنسّمة رائحة الحبيب . . وقد اعتادت الأرياح أن تحمل الرسائل من محبّ إلى محبوب : سلام مع ريح الجنوب يعود الردّ عليه مع ريح الشمال . لكنّ تبادل التحيّات لا يتوقّف إذا سكنت الريح ، لأنّ المحبّين لا يعدمون اتّصالاً مباشراً من القلب إلى القلب ، ولأنّ أي جوًى في فؤاد الواحد ، يعرفه الفؤاد الآخر ممّا يحسّه ويقاسيه . وأي دموع ترغرغ في عين العاشق لا بدّ من أن يكون لها مثيل في عين المعشوق . فليتّق المحبُّ اللهَ في محبوبه ، وليشفق عليه بحبس دموعه ، ضنّاً بجفونِ إلفه أن يُقرِّحها البكاء . تلك هي نصيحة الرشيد :

أهدى الحبيبُ ، مع الجنوبِ ، سلامَه ... فاردُدْ عليهِ ، مع الشّمال ، سلاما
واعرِفْ بقلبِكَ ما تَضَمَّنَ قلبُه ... وتــداولا ، بِهَواكُمـا ، الأيّاما
فإذا بكيتَ لــه ، فأيقــنْ أنّهُ ... سَيَفيضُ منه ، للدمــوعِ ، سِجاما

---

1 ممّا قاله في سحر وضياء وخنث :

ثلاثٌ قـد حَللنَ حِمى فـؤادي ... ويُعطِينَ الرغائـب مـن ودادي
نظمتُ خيوطَهُنَّ بخيطِ قلبــي ... فهـنّ قرابتـي حتــى التنادي
فمن يَكُ حَلَّ ، مِن قلبٍ ، مَحَلا ... فَهُـنَّ مـع النواظـــرِ والسوادِ

(الأغاني ج16 ص 270) .

2 النَّـأْمة : الصوتُ الخفِيُّ أياً كان .

فاحبسْ دموعَك رحمــةً لدموعِهِ إنْ كنتَ تحفظُ أو تَحوطُ ذِماما[1]

ولا شكّ في أنّ هذه الأبيات كان يمكن لها أن تفيض شاعريّة ووجدانيّة لو أنّ الرشيد صاغها عن لسانه بلهجة المتكلّم ، لا بلهجة الخطاب التعليميّة الجافّة ، ولو أنّه تبنّى ما يثيره من مواقف ، واستبدل حفظ الذمام بمعنى يتجاوب مع حافز الرحمة لدموع المحبوب في الشطر الأوّل . ومن المؤكّد أنّ الرشيد كان يعني نفسه بالخطاب ، وكأنّه ، بتحويله الصيغة ، أراد أن يموّه عواطفه ، أو ينكر تبنّيه لعاطفيّة الأبيات . أو لعلّه عمد إلى التحوّل من التكلّم إلى الخطاب ، كصيغة معروفة في الصناعة الأدبيّة تهدف إلى لفت النظر . . وفي كل حال ، لو أنّ الأبيات كانت كما نتمنّاها ، لقوي شكّنا في نسبتها إلى الرشيد : فهو ، أوّلاً وأخيراً ، هاوٍ لا محترف في الإنتاج الشعري .

* **وصف المحبوبة** : يجب أن تكون محبوبة سيد الناس سيّدة المحبوبات ، ليس كمثلها أحد في المحاسن[2] ، في مستوى السماء يطلع من وجهها القمر ، وهي ، من البهاء ، بحيث لا يقع عليها بصر إلاّ ويتعلّق بها فلا يستطيع الارتداد عنها لأنّه يشتغل بها . وهي ذات سلطان في الجمال شبيه بسلطان الخليفة بين الناس ، سلطان يجرّد سيوفاً لا كالسيوف ، ونصالاً لا كالنصال ، فأينما وقعت العين منها وجدت نصلاً فاتكاً من روعة الحسن . وجمالها طبيعي لا تكلّف فيه ، فالعين كحلاء ، وكحلها غير مجلوب[3] .

---

1 الورقة ص 18 ؛ والديارات ص 226 .

2 يقول الرشيد في ماردة ، مصوّراً جمالها :

شغَلَتْكَ وهْيَ ، لِكلِّ ذي بصــرٍ لاقى محاسنَ وجهِهَـا ، شُغُــلُ
ولِوَجْهِها ، مِنْ وَجهِهـا قَمَــرٌ ولعينها ، مــن عينِهـا ، كُحْــلُ

(المرجعان السابقان) .

3 ويقول فيها أيضاً :

وتنــال منــكَ بحـدِّ مُقلتِهــا مـا لا ينالُ ، بِحــدِّهِ ، النَّصْــلُ
وإذا نظـرتَ إلى محاسِنِهــــا فلكلِّ موضــعِ نَظْــرةٍ قَتْــلُ

(المرجعان السابقان) .

وإذا بلغت المحبوبة هذه الدرجة من الجمال فلن تكون جاهلة بقدرها ، ولن تغفل سلاحاً من أشدّ أسلحة الحسن ، وهو الدلال والغنج ، وإثارة الغيرة والتلاعب بالعواطف . . . والرشيد راضٍ يقبل كلّ ذلك منها بشفاعة جمالها[1] . لكن إلى أي حد ؟

* **التعامل مع المحبوبة** : لقد كان الرشيد يخضع لسلطان الجمال طالما لا يمسّ الخضوعُ هذا كرامتَه . بل إنّه يقبل أن تتمادى المحبوبة في إغرائه . ولا بدّ هنا من التذكير بأنّ هذه المحبوبة هي جارية خَبِرت ، غالباً ، فنون اجتذاب القلوب ، داخلة في منافسة مع جوار أخريات ، وبأن الرشيد ، السريعَ إلى الملل من الغنيمة السهلة ، يحبّ المواقف الصعبة ، ويحلو له أن يرى تأثيره في المرأة ، تماماً كما لا يستنكف عن إبراز ما يدّعيه من تأثيرها عليه ، في عمليّة أخذٍ وردٍّ تضفي نوعاً من الواقعيّة العادية على علاقة هي أصلاً غير متكافئة وغير عادية . ولعلّ أشدّ فنون الجواري بروزاً في عملية الإغراء هو فن الصدّ والإقبال[2] . وهذا الفن دقيق الحدود ، خطر على اللاعبين ، يجب على من يمارسه أن يحسن حساب المقادير لئلا يتحوّل مفعولها إلى الضد . ويصف الرشيد هذه اللعبة فيقول :

صَدَّ عنّي ، أَنْ رآني مُفْتَتَنْ ، وأَطـالَ الصَـدَّ لَمّـا أَنْ فَطَنْ[3]

فالمحبوبة تصدّ عندما تشعر بنفوذها على رجلها وتكون متأكّدة من أنّ الصدّ لا

---

1 يقول الرشيد :

أُحبّتُهُ مِنْ دونِ هــذا الـوَرَى وَهْـوَ بحُبِّـي خَبِـرٌ عالِـمُ
قبيـحُ فِعـلٍ ، حَسَنٌ وجهُـهُ يُعـذَرُ ، في أمثالِـهِ ، اللائِـمُ

(الديارات ص 226) .

2 من ألطف ما قيل عن لعبة الصدّ والإقبال ، في أدب أبناء البلاط ، قول المتوكّل في قينة :

أُمازِحُها فتغضبُ ، ثم تَرضَـى فكُلُّ فِعالِهـا حَسَنٌ جَميـلُ
فإن غَضِبَتْ ، فأَحْسَنُ ذي دلالٍ وإن رَضِيَتْ ، فليسَ لها عَديـلُ

(المستطرف ج2 ص 158) .

3 الأغاني ج4 ص 76 وتاريخ الخلفاء ص 292 .

يبعده عنها ، بل على العكس ، يضرم النار في قلبه ويزيده تعلّقاً بها . ولعلّ من أصول الصدّ أن تبطنه الرغبة في الوصال ، والاستعداد للتراجع عنه . والجارية ، الفنّانة في هذا الميدان ، تحسن إظهار هذه الرغبة الخفيّة بأساليب تتقنها هي دون سواها . فتارة تظهر العقل والجدّ فيفضحها الطرف الفاتر ، وتارة تنظر بعين الغضب بينما القلب يفيض رضًى وحُبّاً . كلّ هذه الخبرة في التعامل مع الجواري يقدّمها لنا الرشيد في وصف دقيق ، مقلّباً معالمها على وجوهها فيقول :

تُبدي صدوداً ، وتُخفي تحته صِلَةً ، فالنفسُ راضيةٌ ، والطَّرفُ غَضبانُ[1]

وفي المعنى نفسه يقول :

فلِقلبِها حلمٌ يُباعِدُها عَن ذي الهَوَى ، ولِطَرْفِها جَهْلُ[2]

إلاّ أنّ للرشيد ، كما أسلفنا ، موقفاً من الصدّ يحدّه الحفاظ على الكرامة . فإذا ما فاق الحدّ ، ثارت في الرشيد أنفة العاشق المترف ورفضه للاستبداد . إنّه يذلّ للمحبوب ، برضاه ، أمّا أن يفرض عليه الذلّ ، فبُعداً لمن يفعل ذلك . والرشيد يعتدّ نفسه هنا عاشقاً عاديّاً ، لا ملكاً ولا خليفة . فإذا نازعته نفسه إلى استخدام نفوذه ، أبى واحتكم إلى قضاء الحب ، قابلاً حكمه ، ملتزماً به . يقول :

لو شئتُ لاستاقَتْه لي قُدرةٌ لكنّ حُكْمَ الحُبّ لي لازمُ[3]

فماذا يقول قاضي الحب ؟ حكمه أنّ الصدّ يقابله الصدّ ، إلى أن يلين القلب القاسي ويرجع عن غيّه .

هكذا كانت حكايته مع سحر : أحسّت بأنّ لها دالّة عليه تفوق بها سواها ، بل تفوق أجمل منافستين لها : ضياء وخنث ، إذ لم يكتف بإعطائها ضعفي ما أعطاهما معاً

---

1 العقد الفريد ج6 ص 411 .

2 الورقة ص 18 ؛ والديارات ص 226 .

3 الديارات ص 226 .

من قلبه ، بل زاد فجعلها قادرة على شفائه من داء الحزن والهمّ ، لأنّه ، إذا تراكمت عليه هموم الدنيا ، تكفي زيارتها له لتكشف عنه غمامة الأحزان[1] . وأرادت سحر أن تلعب لعبة الصدّ علّها تزيد اضطرام غرامه فاشتطّت في دلّها واعتلّت بعلّة حين وجّه إليها لتصير عنده . ويبدو أنّها ، في الغد ، أحسّت بخطئها وأرادت أن تجبر عثرة الأمس . فأنف الرشيد ورفض دعوتها معلناً مجافاته لها لأنّه ، هو أيضاً ، يعرف أسرار لعبة الصدّ والإقبال . يقول مُعرِّضاً بها :

أَيَا مَـــنْ رَدَّ وُدِّيَ أمـــ ـسِ ، لا أُعطيكَهُ اليوما
ولا ، واللهِ ، لا أعطيـ ـكَ ، إلاّ الصدَّ واللوما
وإنْ كان بقلبـــي منــ ـــكَ ، ما يَمنعُني النّوما
أَيَا مـــن سُمتُـــهُ الوصْـ ـــلَ ، فأغلى المَهْرَ والسَّوما[2]

والرشيد ، في هذه العلاقة العاطفيّة ، واع حذر لا يشتطّ في إظهار الغضب ، بل تتدرج لهجته من العنف إلى الاعتدال ، بالإشارة إلى بقاء الحبّ في قلبه ، وينتهي إلى العتب . ولا شكّ في أنّ العتب هو صابون القلوب . والمتأمّل بعمق لهذه الأبيات يمرّ بخياله شريط مصوّر يظهر فيه الرشيد العظيم إنساناً رقيقاً وعاشقاً لبقاً ، يعرف كيف يقارب المرأة وكيف يروّضها ويعجم عودها بمهارة فلا يخدشه ولا يكسره . فهو ، لكثرة ما عرف من نماذج أنثوية ، قد بات خبيراً بنفسيّة النساء وتصرّفاتهنّ وردود فعلهـنّ ، خبرة ما كانت لتقيَّض له لو لم ينصبّ مُعظمُ ترفِهِ في الحياة على الانشغال بهنّ .

* **الغرام الملكي** : رأينا أنّ الرشيد كان يجهد لإخراج علاقته بجواريه عن علاقة المالك بالمملوك إلى شكل طبيعي من أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة . فإلى أيّ مدى

---

1 يقول في سحر ، وقد صحّف بعض النسّاخ اسمها إلى شجو :
وإذا شجـــو أتـــتْ زائـــرةً كشفتْ عنّـــيَ شجوٌ كلَّ بَـــثّ
(الديارات ص 227) .

2 الأغاني ج16 ص 269 .

تمكّن من إقناعنا بذلك ؟ . الواقع أنّ كثيراً من التعابير والتفاصيل كانت تفضح حقيقته وتهزّ الصورة التي يحاول اعطاءها عن نفسه . ولعلّ أبرز ما يؤدّي إلى ذلك هو تكرار معنى الخضوع والامتلاك في أشعاره ، خضوعه هو للحبيب وامتلاك معشوقه له ، مع الاستدراك دائماً بإشارة إلى سلطانه المطلق واستكانة الدنيا له ؛ والمعروف أنّ الرشيد ما كان يخضع إلاّ لربّه . وموقفه هذا مفهوم ، يتّخذه عن وعي وعنجهيّة ، يعرفه الناس كلّهم به . المرأة وحدها كان لها سلطان ، يعترف به ، فوق سلطانه[1] ، تستمدّه منه طوعاً فتحكم به عواطفه وميوله ، طالما سمح لها بذلك . وهو يظهر سعادة بهذا التحكّم[2] لأنّه يخرجه من رتابة الأدوار في حياته اليوميّة ويجعله ، كما قلنا ، يتحوّل من خليفة إلى أحد مشاهير العشّاق أو إلى فارس عربي نموذجيّ يُجلّ المرأة ويضعها في برج عاجي . لكنه ما إن يذكر خضوعه للمحبوبة حتى يتداعى إلى لسانه ، بصورة تلقائيّة ، التذكير بأنّه هو الذي تخضع الرقاب ، عادةً له[3] ، وكأنّه يُدلّ عليها بما أعطاها من سلطان . . وهذا

---

1 يعبّر الرشيد عن ذلك بقوله :

يا من وضعتُ له خـدّي فذلّلـه   وليس فوقي سوى الرحمن سلطانُ

(العقد الفريد ج6 ص 411) .

2 يرسم الرشيد لنفسه ، وبأسلوب مرح ، صورة المظلوم الذي تتحكّم به المحبوبة وتقسو عليه ، تصيبه ألحاظُها في الصميم محاولة قتله ، فيعمد إلى استعطاف ظالمه واسترحام قاتله :

يـا ربَّــةَ المنــزلِ بالبَــرْكِ   وربَّــةَ السُّلطــانِ والمُلْــكِ
تَحَرَّجــي باللهِ مِــنْ قَتلِنــا   لسنا مِــنَ الدَّيْلَــمِ والتُّــركِ

(الأغاني ج1 ص 178) .

3 يكثر ذلك في مقطوعاته . فمنه قوله ، مركّزاً على معنى ولفظ الملكيّة ، مبيّناً تبادل الأدوار فيها بينه وبين محبوبته :

مَلكــتُ مــن أصبــحَ لي مالكــاً   لكنّــه ، في مُلكِــهِ ، ظالــمُ

(الديارات ص 226) .

ومنه قوله :

كان مملوكي فأضحى مالكــي   إنّ هــذا مِــنْ أعاجيــبِ الزَّمــنْ

=

يقودنا إلى التساؤل عن القيمة الفنيّة لشعر العشق عند الرشيد على الخصوص ، وفي البلاط على العموم .

د ـ القيمة الفنيّة لشعر العشق للجواري

هذه القيمة ، في رأينا ليست كبيرة لأنّ التجربة العاطفيّة ، التي يقوم عليها الشعر ، سطحيّة ، والتعبير معظمه مستعار مصطنع . صحيح أنّ الغزل بالجواري بات من ملامح العصر الرئيسة ، وأنّ كثيراً من الشعراء أبدعوا في هذا الحقل وحلّقوا ، إنّما الوضع خارج البلاط يختلف عنه داخله . فخارجاً ، أحبّ الشعراء جواري في بيوت القيان أو بيوت النخّاسين أو في بيوت خاصة . وما كان للواحد منهم أن يحظى بخلوة قصيرة إلاّ بصعوبة ، قد ينال منها قبلة أو تجميشة وقد لا ينال[1] ، فيحسّ بكبت يولّد عاطفة صادقة ، وأحياناً حبّاً ملهماً[2] . ومع ذلك لم

= (الأغاني ج4 ص 76) .

ومن قوله في آنساته الثلاث الشهيرات :

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنـاني وحَلَلْنَ مِنْ قلبي بكـلِّ مكانِ
ما لي ؟ تُطاوعُني البريَّةُ كلُّهـا وأُطيعُهُنَّ ، وهنَّ في عِصيـاني
ما ذاكَ إلاّ أنَّ سُلطانَ الهَوَى ، وبهِ غَلَبْنَ ، أَعَزُّ مِنْ سُلطانِـي

(الورقة ص 17) .

ويقول في صرف :

قـلْ لِمَـنْ يملِكُ الملـو كَ ، وإنْ كانَ قَـدْ مُلِـكْ

(المرجع السابق ص 19) .

ومنه قوله :

أَمَا يكفيكِ أَنَّكِ تملكينـي وأَنَّ الناسَ كَلَّهُمُ عبيـدي ؟

(تاريخ بغداد ج14 ص 11) .

1 راجع على سبيل المثال خبر سلاّمة الزرقاء والصيرفي في الأغاني ج15 ص 52 وص 73 .

2 يبرز لنا قيمة الحرمان والكبت كمثير للشاعريّة خبر يرويه الأصفهاني عن ربيعة الرقّي الذي كان يهوى «عثمة» أمة ابن مرّار . فقد كان مولاها أحد الوجهاء ؛ وحين سمع بغرام ربيعة =

يكن الأمر دائماً على هذه الحال . فشعر الغزل بالجواري ، خارج البلاط ، كان أحياناً ، كالشعرِ داخله ، شعرَ «مقاربة» لا تعبيراً صحيحاً عن لواعج النفس ، لأنّ مقاربة المرأة لها وسائل تختلف باختلاف النساء وباختلاف الحضارات . ولمّا كانت كثيراتٌ من الجواري في ذلك العصر ، متميّزات بثقافة شعريّة وأدبيّة خاصّة ، فقد غدا التقرّب إليهنّ وإثارة انتباههنّ يتمّ من هذا الباب : باب الشعر والأدب . وسبق لنا القول إنّ الأدب ، في أيّام الرشيد ، أصبح غذاء يوميّاً لا بدّ منه لكلّ الناس : فمن لم ينظم سمع وروى وتمثّل إرضاء للمتعة الفنيّة التي كانت طابع العصر .

أمّا الغزل ، فكان أكثر الأبواب الشعريّة انتشاراً لأنّه كان ، بالذات ، واسطة المقاربة لتي تحدّثنا عنها . فلم يخل شعر شاعر ، أيّاً كان طابعه ، من شعر غزل ، حتى الفقهاء والمتكلّمون والقضاة تغزّلوا ، وأحياناً تغنّوا بشعر الغزل[1] . ولأن المقاربة الأدبيّة كانت تسبق التقارب العاطفي والجسدي ، فقد كثرت الروايات عن شاعر يرى جارية تعجبه فلا يلبث أن يُسمعها بيت شعر يرويه أو يرتجله ، فتردّ عليه أو تجيزه ، فيكون أخذٌ وردٌّ فمعرفة فعلاقة[2] . ونحن لا نشكّ في أنّ المنافسة كانت كبيرة بين

= لجاريته ، أحضره وعرض عليه أن يهبه إيّاها . فقال ربيعة : «لا تهبها لي ، فإنّ كل مبذول مملول . وأكره أن يذهب حبّها من قلبي . ولكن ، دعني أواصلها هكذا ، فهو أحبّ إليّ» . الأغاني ج16 ص 197 .

1 راجع مروج الذهب – دار الأندلس – ج4 ص 12 خبر سوّار بن عبد الله القاضي ودفتره الذي يخطّ فيه أشعار الغزل ، وانظر أشعار عبد الله بن المبارك الغزلية في مجلّة «معهد المخطوطات العربية» المجلّد السابع والعشرين الجزء الأوّل ص 44 و47 و60 وكذلك في العقد الفريد ج5 ص 290 . وانظر في العقد أيضاً ج6 ص 12 نسبة غناء إلى الإمام مالك . وانظر في المستطرف ج2 ص 38 شعراً غزلياً للماجشون الفقيه . وانظر في الأغاني ج15 ص 197 خبر محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العبّاس العالِم بالفقه والغناء معاً . وانظر في جمع الجواهر ص 59 خبر ابن جريج فقيه مكّة يتغنّى بشعر غزلي .

2 على سبيل المثل راجع العقد ج6 ص 101 وص 367 وص 412 ؛ وزهر الآداب ج3 ص742 ؛ والمستطرف ج2 ص 175 ، ونودّ هنا أن نسجّل ملاحظة مهمّة وهي أنّ من يقرأ =

الجواري على التباهي بالمعجبين والفخر بالعشّاق ، وفي أنّهنّ كنّ يتناشدن باعتزاز ما يُقال فيهنّ من شعر . ولذلك كنّ سريعات إلى التجاوب مع ما يُنشَد على مسامعهنّ ، وإلى الإقبال على المعجَب الذي يحسن النظم وإظهار الحبّ واللوعة ، حتى بات هذا النوع من صناعة الشعر عملة لا بدّ منها لمن يريد التعامل مع أسواق الجواري . وبسبب ذلك نقول إنّ هذا الشعر غدا مصطنعاً ، مفتعلاً في غالبيّته ، يعتمد الإخراج أكثر من اعتماده الانفعال . ومن هنا جاء تفشّيه في جميع المستويات الاجتماعية حتى لنرى الرجل ، خليفةً أو أميراً ، من غير الشعراء ، لا بدّ له من أن يقرض البيت أو الأبيات في الغزل بالجواري ، لأنّه يحسّ بضرورة أن يُدلي بدلْوه في هذا الميدان ولأنّ ما يقوله شعراً ويُقبَل لا يصحّ له قوله بأيّ اسلوب آخر[1] .

أمّا بالنسبة إلى الرشيد فهو ، على رغم ما بلغه من الغنى ، وما عمرت به

= كتب الأخبار ، كالعقد والأغاني والمستطرف والديارات وما إليها ، يشعر وكأنّ علاقة الرجل بالمرأة أمر سهل التحقيق ، وأنّ الكثيرين يتولّهون بالفتاة من نظرة واحدة فلا يجدون صعوبة في مقاربتها ومطارحتها ، وأحياناً نيل الأرب منها ، بشكل قد يتعدّى ما هو معروف اليوم عن المجتمعات المنفتحة . ونحن ، إذ نشكّ في صحّة بعض هذه الأخبار وكثير من تفاصيلها . نحذّر من التعميم انطلاقاً من جزء واحد . فراوي الخبر يروي وقائع سمعها تتعلّق بفئة من الناس ، من مستوى اجتماعي معيّن ، في موضوع محدّد وظروف بعينها . وحتى ، لو صحّت الجزئيّة هذه ، فإنّ من الخطأ الفاضح اعتبارها تمثّل المجتمع بأسره ، كما يخطىء من يعتقد أنّ العلاقة السريعة يمكن أن تنشب بسهولة بين الرجل والمرأة من جميع المستويات . وفي رأينا أنّ وسط هذه الأخبار لا يتجاوز محيط الجواري ممّن ترسلهنّ سيّداتهنّ في حاجاتهنّ ، خارج المنزل ، ووسط بعض الأعراب حيث تنال الفتاة بعض الحريّة وتمتهنّ اجتذاب الرجال . وقد تتعاطى فئةٌ من المترفات العبث بالرجال على سبيل التسلية والتفكهة . إنّما ضمن الحدود التي تفرضها قيم الجماعة .

1 يرى العسكري أنّ صاحب الرياسة والأبّهة ، لو خطب بذكر عشيقٍ له ووصفِ وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبّه ، وبُكاه من أجله ، لاستُهجن ذلك منه وتُنُقِّصَ به فيه . ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً . (الصناعتين ص 104) .

مقصوراته من جَوارٍ ومحظيّات ، وما كان له من نفوذٍ لا حدود له ، قد حاول ، كما رأينا ، أن يتّخذ مواقف من المرأة تعتمد رقيَّ العلاقة وسموّها ، مساواة الجاذب ، والثقة بالرجولة . لقد كان يأنف أن تساق إليه المرأة كما تساق الشاة إلى المذبح . لقد كان يأبى من يرفضه ، ويترفّع عن المرأة التي لا تستطيع أن تهبه قلبها ونفسها[1] . بل إنّه قد يحنّ عليها ويحوّل رغبته فيها إلى عطف تفيد منه[2] . وإمعاناً في الارتقاء بالعلاقة ، كان يتصنّع مواقف العشيق ويتبنّى حالات الانفعال . محاولاً التعبير عنها ليكون شعره مساعداً لجاذبه ووسيلة لإغراء المحبوبة . لكن هذا الشعر ، كما سبق لنا القول ، بقي مفتعَلاً ، ونذكّر هنا بتردّد معنى الخضوع في شعره ، وبتكرار فكرة انقلاب الدور بين المالك والمملوك ، مؤكّدين أنّ أكثر ميدان تتجلّى فيه بوادر التصنّع ، هو حديثه عن هوىً مكتوم تضجُّ في نفسه لواعجه ، ومحاولته التكتّم إذ يكنّي عن المحبوب الخفيّ المنال بسواه ممّن يضطرّ إلى خطابهم وهو لا يحبّهم . ونتساءل : أيّة صحّة وواقعيّة يمكن أن تتجلّيا في وصف نحوله حتى غدا خيالاً ، وفي وصف لوعته حتى بات قتيل الهوى ؟ بل أي معنى أشدّ افتعالاً وأكثر بُعداً عن الواقع والمعقول ، من مخاطبة الرشيد لمحظيّة ، مشيراً إلى مبلغ تمكن حبّها منه ، بقوله :

وانّك ، لو قطعتِ يدي ورِجلي ،   لقلتُ ، من الهوى ، أحسنتِ ، زيدي[3]

فإذا كان من صدقٍ في هذه الصورة ، فهو رسم الرشيد لنفسه بصورة غير مباشرة : ملكاً يؤكّد سلطانه بالسيف والسيّاف ، يقطع الأوصال ويطيح بالرؤوس ، حتى إذا ما أراد إعطاء ملامح لسلطان الهوى أخرجها على نمط سلطانه : تارة يمسك بالصولجان ويحكم القلوب ، وطوراً يلوّح بالسيف ويقطع الأطراف . وهذا كلّه

1 ترفض دنانير أن تغنّي أمامه ، بعد البرامكة ، فيأمر بصفعها ، فتغنّي بشعر حزين فيطلّقها (نهاية الأرب ج5 ص 20) .

2 تمتنع جارية زلزل عن أن تنضمّ إلى حريمه ، بعد موت مولاها ، فيشتريها ويعتقها وفاء لذكراه (الأغاني ج5 ص 206) .

3 تاريخ بغداد ج14 ص 11 .

يؤكّد لنا أنّ الرشيد ، مهما حاول مساواة نفسه بشعراء الغزل ، فإنّ شعره لن يساوي شعرهم لأنّه لا يصدر عن وجدانيّتهم الصادقة ، ولأنّ هذه الوجدانيّة بعيدة عنه إذ لا يمكن له أن يوجد في مواقف شبيهة بمواقفهم ولا أن يحسّ الانفعالات والعواطف التي تعتريهم عندما يعانون من كبت مشاعرهم : إنّه كان قادراً على التنفيس المادي عمّا يعتريه ، فأين مجال التنفيس الشعري ؟

ومع تأكيدنا ضعف القيمة الفنيّة لشعر العشق في البلاط ، لا بدّ من التنبيه إلى أنّ قيمته الاجتماعيّة والحضاريّة كبيرة ؛ وهذه القيمة هي التي حدت بنا إلى عرضه ودرسه . إنّه يمثّل ، في موضوعه وأسلوبه ، وحتى في تصنّعه وافتعاله ، جانباً من حياة البلاط أعدناه إلى الترف الناجم عن وفرة الأموال وتزايد عدد السراري تبعاً لذلك . والحافز إليه هو الترف أيضاً : إذ غدا الشعر ، بعد انتشار الثقافة الأدبيّة وتداول الجميع لنتاجها ، وسيلة تقرب[1] وحلية لا بدّ منها للعاشق المثقّف الذي أفرزه ذلك الجوّ . وسؤال أخير : لماذا نُلحق شعر العشق عند الرشيد ، من دون سائر الناس ، بأدب الترف ، مع أنّ معظم البشر يعشقون ، بمن فيهم المحروم والمحتاج ، بل لعلّ المحروم والمحتاج أعمق مشاعر في الحبّ منه ومن أبناء بلاطه ؟ والجواب أنّنا نؤكّد هذا وننطلق منه لتأييد ما ذهبنا إليه من سطحيّة العشق عند الرشيد وضعف الوجدانيّة فيه : إن هو إلاّ عبث مترف .

ولنا أن نضيف هنا أنّ هذا النمط من التعبير الأدبيّ لم يبق وقفاً على البلاط ، بل انتقل منه إلى الخارج ، مرافقاً الأعطيات الخياليّة التي صدرت عن الخليفة وكبار دولته ، والتي أمّنت للروّاد تحقيق نموذج مصغّر من جو الترف فيه ، وعلاقات غراميّة منقولة عنه ، مع عدد أقلّ من الجواري ، ومجال محدود للتنقّل .

---

1 يعطينا أبو نواس فكرة عن استخدام الشعر في تطويع المحبوبة المستعصبة :

فما زلتُ ، بالأشعار في كل مشهدٍ ... أليِّنُها ، والشعرُ من عُقَد السِحرِ
إلى أن أجابت للوصال وأقبلت ... على غيرِ ميعادٍ إليَّ مع العصرِ

(ابن منظور ص 144) .

الفصل الخامس

دور الرشيد في تنشيط الحركة الفكريّة

1 ـ تمهيد : موقع الرشيد من حركة العصر الثقافية

إذا كان عصر الرشيد قد شهد انطلاقة الحركة الفقهيّة واللغويّة ، وإذا كان هارون قد رعى شيوخ اللغة والرواية وعايش الأئمّة الكبار الذين أرسوا مذهب السنّة ، ورافق ولادة علم الكلام ومذهب الاعتزال والصوفيّة ، فقد كان معظم أقطاب هذه الحركة على علاقة بالبلاط العبّاسي : علاقة ولاء ، كما هو الأمر مع الأصمعيّ والكسائيّ واليزيديّ والأحمر النحويّ ، أو علاقة احترام متبادل كما كان الأمر مع الإمام مالك والإمام الشافعي في بلاط الرشيد ، أو علاقة تحدٍّ وصراع ، كما كان الأمر مع الإمام أبي حنيفة في بلاط المنصور والإمام أحمد ابن حنبل في بلاطي المأمون والمعتصم . أمّا شيوخ المعتزلة فقد عرف البلاط الرشيدي بعضهم كجلساء شعراء ومتأدّبين ، وإن كان رفضَهم كمتكلّمين في الدين والفقه . إلاّ أنّ موقف الرشيد المتحفّظ من علم الكلام لم يشمل سائر العلوم . فقد كانت آفاق الرشيد الفكريّة تمتدّ امتداد العلم المعروف آنذاك ، فتهيّء التربة الخصبة لنموّ هذه العلوم وازدهارها ، وتهيّء لها المناخ الملائم مع الكثير من التشجيع والتوجيه . ويبدو أنّ الحركة العلميّة الحقيقيّة بدأت ، بشكلها الجدّي ، أيّام الرشيد ، فعرفت حينها أقطاباً كباراً لها أمدّوها بالغزير من مؤلّفاتهم كما ساعدوا على إغنائها بالكثير من ترجماتهم . وفي مقدّمة هؤلاء الأقطاب نذكر جابر بن حيّان[1] وقسطا

1 جابر بن حيّان كان من كبار العلماء المؤلّفين في عدّة من الميادين ، منها الفلسفة والحِيَل والمنطق والزَيج والطبّ والهندسة والمرايا وآلات الحرب . وقد ألف للبرامكة كتاب «اسطقس» الأس الأوّل والثاني والثالث . وقد عمل في صناعة الذهب والفضّة . «كان يدبّر أكسير الكوفة =

ابن لوقا[1] والكندي[2] . وفي أيّام الرشيد تبلورت حركة الترجمة وأخذت الطابع الرسمي بعد أن أغناها ما حُمل إلى بغداد من كتب الطبّ والنجوم والحكمة والعلوم الأُخرى مع الغنائم التي أخذت «من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم»[3] ، إثر الغزوات التي كان يقوم بها الرشيد . وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ القاعدة المعروفة «الناس على دين ملوكهم» جعلت اهتمام الكثيرين من الأمراء وعليّة القوم والموسرين ينصبّ في اتّجاه اهتمامات الرشيد التي أذكاها وأجّجها ، بلا شكّ ، تأثير البرامكة فيه . فتوسّعت حركة الترجمة والتأليف والنسخ ، كما توسّعت من قبل حركة اللغة والأدب . . ومثلما رعت القصور والدور الأدباءَ والرواةَ واستقطبت الكثير من إنتاجهم وتنافست في حمايتهم ، كذلك كان الأمر مع المترجمين والمؤلّفين في الفلسفة والعلوم . هكذا ، وبمقابل يوحنا بن ماسويه

= لصحّة هوائها» أيّام المهدي (وكأن علم البيئة وتنقيتها من التلوّث ، الذي يشغل العالم اليوم ، وجد بزرة له عند ابن حيان) أمّا انقطاعه فكان إلى جعفر البرمكي ، وقيل إلى جعفر الصادق العلوي (الفهرست ص 355) .

1 قسطا بن لوقا البعلبكي كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطبّ والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى . أجاب أبا عيسى المنجّم عن رسالته في نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعمل الفردوس في التاريخ . نقل أشياء وأصلح نقولاً كثيرة . عاصر يعقوب بن إسحق الكندي . (أخبار الحكماء ص 173 والفهرست ص 250) .

2 هو يعقوب بن إسحق بن الصباح . «اشتهر في الملّة الإسلامية بالتبحّر في فنون الحكمة اليونانيّة والفارسيّة والهنديّة ، متخصّص بأحكام النجوم وأحكام سائر العلوم ، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . كان أبوه أميراً على الكوفة للمهديّ والرشيد» (أخبار الحكماء ص 239) وكان منجّم الرشيد والمأمون . وله كتاب الجفر (مقدّمة ابن خلدون ج2 ص 772) انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الفلسفة جميعها فأتقنها وحلّ مشكلات كتب الأوائل وحذا حذو أرسطوطاليس . وصنّف الكتب الجليلة الجمّة . (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 231) (وانظر ترجمة له واسم مؤلّفاته في الفهرست ص 256 وما بعد) .

3 أخبار الحكماء ص 249 .

والحجّاج بن يوسف بن مطر والفضل بن نوبخت وعلان الشعوبي وسهل بن هارون ، الذين نقلوا ونسخوا للرشيد ، كان للبرامكة نَسَخَتهم ونقلتهم ومؤلّفوهم خاصة ، منهم مثلاً سلاّم الأبرش الذي «يوجد بنقله ، السماع الطبيعيّ»[1] . ولمحمد بن خالد بن برمك فسّر أيوب وسمعان زيج بطليموس[2] . وللبرامكة كان ابن دهن ينقل من اللسان الهندي إلى العربي[3] . وخاض أمراء الهاشميّين هذا الميدان : فكان دار يشوع يفسّر لإسحق بن سليمان بن علي الهاشمي[4] . وكان في جملته أيضاً : منكه الهندي ينقل له من الهنديّة إلى العربيّة[5] . هذا فضلاً عن أسر موسرة اشتهرت باهتمامها بالترجمة والإنفاق عليها وعلى المترجمين شأن أسرة بني شاكر المنجّم[6] . . . . ولمّا كان هذا الموضوع واسعاً متشعّباً ، أُلّفت فيه الكتب . فإنّ ما يهمّنا منه مجرّد إشارة تكمّل صورة الأجواء التي عايشها الرشيد . فالأدب هو جزء من الثقافة والفكر لا ينفصل عنهما . ونحن نحاول تركيز إشارتنا هذه في النقاط التالية :

2 ـ الطابع المؤسّسي لحركة النقل والترجمة والتأليف

وهذا الطابع هو الذي يعطي قيمة لمساهمة الرشيد في الحركة . فقد أسّس الرشيد بيتَ الحكمة أو دار الحكمة أو خزانة الحكمة ، وجعلها مركزاً للترجمة والتأليف والنسخ . ولمّا كان البلاط الملكي نموذجاً يُحتذى ، وكان بين الأمراء والوجهاء من

1 الفهرست ص 243 .
2 الفهرست ص 244 .
3 الفهرست ص 245 .
4 الفهرست ص 244 .
5 الفهرست ص 245 .
6 ممّن التحق بهم كان حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة ؛ فأجروا عليهم خمسمئة دينار في الشهر للنقل والملازمة . وقد «بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحق وغيره إلى بلد الروم ، فجاؤوهم بالطرائف» (الفهرست ص 243) .

بلغت ثرواتهم مبلغاً يجعلهم يعيشون عيشة الملوك ، فإن المبادرات الملكيّة كانت دائماً تُقتبس ويكون لها أصداء في القصور والدور الأُخرى . ونحن نعتقد أنّ ظاهرة خزانة الحكمة لم تبق وقفاً على بلاط الرشيد ، بل غدت لوناً معروفاً في القصور الأُخرى ، شأن مجالس الأدب والغناء ورعاية المترجمين ؛ وكان من الطبيعي أن يتنافس أصحاب تلك القصور في إنشائها وتجهيزها وإغنائها . ومع أنّ الأخبار عن هذه المؤسسة محدودة ومختصرة ، فإنّ استقراءها بتمعّن يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ الرشيد كان عنده بيت حكمة ، والبرامكة كان لهم بيت أيضاً[1] ، ولا نستبعد أن يكون لإسحق بن سليمان بن علي الهاشمي بيت حكمة أيضاً ، ولآخرين سواه[2] . ويقول ابن النديم إنّ عليّاً بن المنجم «اتّصل بالفتح بن خاقان[3] وعمل له خزانة حكمة نقل إليها من كتبه ، وممّا استكتبه ، أكثر ممّا اشتملت عليه خزانة حكمة قطّ»[4] . والإشارة في هذا الخبر واضحة جدّاً ، سواء على صعيد تعدّد خزائن الحكمة وانتشارها ، أو على صعيد التنافس القائم بين أصحابها ، تماماً كما كان التنافس قائماً على صعيد المجالس الأدبيّة ومجالس الترفيه .

ونحاول الآن ، من استقراء الأخبار القليلة ، تحديد الأعمال والمسؤوليّات في بيت الحكمة ؛ وتتلخّص مهمّاتها في حفظ الكتب والتفسير والنقل والضبط

---

1 يقول ابن النديم عن علاّن الشعوبي إنّه «كان منقطعاً إلى البرامكة . وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة» . (الفهرست ص 105) .

2 إذا كان لإسحق مفسّر هو دار يشوع ونقلة منهم «منكه» الهندي ، وكان يقتني الكتب ويهتمّ بالترجمات ، فمن الطبيعي أن تكون عنده مقوّمات إنشاء خزانة حكمة . وكذلك آل المنجم . فإذا كان أحدهم وهو علي قد عمل خزانة الحكمة لابن خاقان وأمدّها بكتب من عنده وممّا استكتبه فلماذا لا يكون عندهم ، هم أيضاً ، خزانة حكمة ؟

3 من أولاد الملوك ، اتّخذه المتوكّل أخاً وكان يقدّمه على سائر ولده وأهله وقتل بالسيف مع المتوكّل (المرجع السابق ص 116) .

4 المرجع السابق ص 143 .

والاستنساخ والتأليف . فهي إذن مؤسّسة تأليف وترجمة ونشر ، إلى جانب حفظ المؤلّفات النادرة التي تطالها يد مالكها . وعلى هذا يكون أوّلُ أدوار هذه المؤسّسة وأبسطها البحثَ عن الكتب القيّمة واقتناءها وخزنها فيها . وقد سُجّل لغير مسؤول فيها رحلة وراء كتب العلم . وإن لم تصلنا أخبار من هذا النوع عن أيّام الرشيد فقد وصلنا عن أيّام المأمون خبر سفارة شهيرة وجهها إلى امبراطور الروم لحمل الكتب إلى بغداد . وكان من جملة أفراد البعثة : الحجّاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة . وقد «أخذوا ممّا وجدوا ما اختاروا»[1] والدور الثاني لهذه المؤسسة هو القيام بالنقل إلى العربيّة ، لذلك كان يلحق بها مترجمون وكتّاب يساعدونهم ، كما يلحق بها نسّاخ . فالرشيد وضع يوحنا ابن ماسويه «أميناً على الترجمة ورتّب له كتاباً حذّاقاً يكتبون بين يديه»[2] . أمّا الدور الثالث فهو التأليف . ويبدو أنّ بعض المختصّين بالتأليف كانوا ينقطعون إلى خزانة حكمة يخصّونها بكامل إنتاجهم ، شأن المؤلّف المتعاقد مع دار نشر لا يتعامل مع سواها . هكذا كان الخوارزمي ، مثلاً ، منقطعاً إلى خزانة الحكمة للمأمون»[3] . ومعظم مؤلّفاته في الهيئة ، (ولم يذكر له ترجمات) . . . أمّا المسؤوليّات في خزانة الحكمة فترتبط بتوزيع الأدوار . فالمسؤول الأوّل هو القيّم على الخزانة[4] ، أو هو صاحبها[5] . ومن الصعب تحديد مهمّة هذا المسؤول بالضبط ، وإن كنّا نعرف أنّه يساهم في اختيار الكتب التي تحمل إليها ، وقد يقوم بدور في الترجمات داخلها ،

1 الفهرست ص 243 .
2 أخبار الحكماء ص 249 .
3 الفهرست ص 274 .
4 «الفضل بن نوبخت ، كان في زمن هارون الرشيد وولاّه القيام بخزانة كتب الحكمة» (أخبار الحكماء 168) .
5 سهل بن هارون «صاحب خزانة الحكمة» (الفهرست 120) وسلم «صاحب بيت الحكمة» (المرجع السابق) .

إنّما لا يلزم ذلك . فسهل بن هارون مثلاً ليس في مؤلّفاته ترجمات لكتب الفلسفة والعلوم ؛ ليس فيها إلاّ أدب وقصص بعضها مقتبس عن الفارسيّة . وسعيد بن هارون ، شريك سهل في بيت الحكمة له مؤلّفات في الحكمة ولا يذكر له ترجمات ، بينما كان لسلم صاحب بيت الحكمة نُقول من الفارسيّة إلى العربيّة ، ومثله كان للفضل بن نوبخت . ونسجّل هنا وقفة استغراب أمام وظيفة مسؤول يذكر لها ثلاثة موظفين في آن واحد[1] . ويمكن أن نتصوّر دور صاحب الخزانة بمزيد من الوضوح في الخبر التالي يوافينا به ابن النديم . فحين أراد يحيى ابن خالد إخراج كتاب المجسطي إلى العربيّة ، ولم يعجبه النقل الأوّل له ، استعان بشخصين : واحد اسمه أبو حسّان والثاني هو سلم صاحب بيت الحكمة . وهذان لم ينقلا الكتاب بنفسهما بل «أحضرا النقلة المجوّدين ، فاختبرا نقلهم ، وأخذا بأفصحه واصحّه ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه»[2] . . . هكذا كان دور المسؤول الأوّل في الإشراف والتوجيه . وكان إلى جانبه مترجمون . ويبدو أنّ المترجمين لم يكونوا يلحقون بالمؤسسة بشكل دائم وانصراف تامّ ، فأحياناً يُختار المترجم حسب الطلب والحاجة . والأخبار لم تذكر تراجمة ملحقين ، إلاّ أن يكون صاحب الخزانة مؤهّلاً لهذه المهمة . والأمر نفسه يقال عن الناسخ الذي قد يعمل في غير خزانة واحدة كعلاّن الشعوبي الذي يظهر ، في الخبر الذي نقلناه سابقاً ، ناسخاً في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة[3] وقد يكون بيت الحكمة الخاص بالرشيد هو الذي تحوّل إلى المأمون ، إنّما بيت حكمة البرامكة أمر آخر .

1 ابن النديم في الفهرست ص 120 يذكر سهل بن هارون على أنّه «صاحب خزانة الحكمة» وسعيد ابن هارون على أنّه «شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة» . وسلما «صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون» .

2 الفهرست ص 268 .

3 الفهرست ص 105 والعبارة قد تعني عمله في غير خزانة أو وجوده في خزانة الحكمة الرسميّة وتلبيته طلبات النسخ التي ترد عليه من الخارج .

وعلى كلّ حال ، فالموضوع يحتمل مزيداً من البحث والاستقصاء[1] .

3 ـ الطابع المؤسّسي للحركة الطبيّة

يتجلّى ذلك في إنشاء البيمارستانات . والمعروف عن جنديسابور أنّها كانت مركزاً طبيّاً كبيراً منذ عهد سابور بن أزدشير . وكان فيها بيمارستان مشهور أيّام الرشيد[2] . لكن الاستعانة بالطبّ ظلّت ، في بغداد وسواها ، تعتمد على الطبيب الخاص والصيدلاني والعطّار المشعوذ . وكان الخليفة أو الأمراء ، إذا اعتراهم داء لم يشفه أطبّاؤهم المرافقون لهم ، استدعوا طبيباً مشهوراً من أقاصي الأرض . وبقي الأمر كذلك إلى أن ارتأى الرشيد إقامة بيمارستان في بغداد[3] . ذكر القفطي عن لسان جبرائيل ابن بختيشوع قوله : «الرشيد أمرني باتّخاذ بيمارستان . فأحضرت «دهشتك» من بيمارستان جنديسابور لأقلّده في البيمارستان الذي أمر الرشيد باتّخاذه . فامتنع من ذلك . . .»[4] ثم نصحه «دهشتك» باستخدام أحد الصبيان الذين يعملون في الأدوية منذ مدّة فيضمّه إلى طبيب من تلاميذه يقلّد البيمارستان . وتمّ ذلك بالفعل . وكان الصبي المذكور هو ماسويه[5] . ويجدر بنا التساؤل عن طبيعة مهمّة هذا البيمارستان : هل هو مجرّد مستشفى عام أم مؤسّسة طبيّة متكاملة ؟

---

1 يمكن أن يراجع في هذا الموضوع : أحمد أمين في ضحى الإسلام ج2 ص 61 و62 وكذلك : Encyclopédie de l'Islam, Paris, 1960, p. 1175.

2 أخبار الحكماء ص 93 .

3 يقول دومينيك سورديل : «راح بعض الخلفاء ، كالرشيد مثلاً ، يجتذبون إلى بغداد أطبّاء نصارى من المركز الفارسي جنديسابور ، وقاموا بإنشاء مستشفى في العاصمة كان ، بلا شكّ ، أوّل مؤسّسة من هذا النوع في العالم العربي . Arabica, p. 264, volume spécial BAGDAD, Leiden, 1962 . و«كان هذا المستشفى الأوّل في بغداد ، على معبر كرخايا في الضاحية الجنوبية الغربية» . Encyclopédie de l'Islam, Paris, 1975, p.1259 .

4 أخبار الحكماء ص 251 .

5 أخبار الحكماء ص 251 .

والواقع أنّه ،إذا أقيم على نمط بيمارستان جنديسابور ، كما تقول الأخبار ، يكون مستشفى للعلاج ومركزاً لتحضير الأدوية ومدرسة طبيّة تخرّج الأطبّاء[1] . فيبدو أقرب ما يكون إلى جامعة طبيّة من جامعات هذه الأيّام . ولا شكّ في أنّ هذا المستشفى كان عامّاً لأنّ للخاصة أطبّاءهم ، كما أسلفنا ، إنّما هذا لا يمنع أحدهم من أن يطلب طبيباً من البيمارستان لمعالجته في القصر . ويبدو أنّ هناك فرقاً بين هذا البيمارستان والآخر في جنديسابور . فنرجّح أنّ بيمارستان بغداد كان مجانيّاً[2] بينما قال «دهشتك» رئيس أطبّاء جنديسابور لجبرائيل «إنّه ليس للسلطان عنده أرزاق جارية»[3] مؤكّداً ، بذلك ، استقلالية ذلك البيمارستان . فلم يكن تابعاً للدولة ، ولم يكن أطبّاؤه يتناولون راتباً منها . إنّما كانوا يقومون بالعمل «حسبة»[4] . ونفهم من ذلك أنّهم كانوا يتناولون الأجر ممّن يعالجونهم . . والسؤال الآن هو : هل بقي البيمارستان ، الذي أسّسه الرشيد ، الوحيد في بغداد ، أم أنّ المنافسة بين أصحاب الدور والقصور ، التي قامت على مستوى المجالس الأدبيّة والترفيهيّة ، ثمّ على مستوى رعاية الترجمات وإقامة خزانة للمؤلّفات ، قد امتدّت إلى ميدان الطبّ وإنشاء البيمارستانات ؟ الواقع أنّنا التقطنا إشارة تذكر بيمارستاناً للبرامكة . فيقول ابن النديم ، متحدّثاً عن ابن دهن الهندي : «وكان إليه بيمارستان البرامكة ، نقل إلى العربي من اللسان الهندي»[5] ؛ وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أنّ البيمارستان كان يوازي خزانة الحكمة من حيث مهمة التأليف والترجمة والتفسير والنسخ . إنّما كان مختصّاً بالميدان الطبّي . ولابن النديم كلمة عن «كتاب سيسرد» فقد «أمر يحيى بتفسيره

---

1 أخبار الحكماء ص 93 .

2 نقول ذلك قياساً على مبادرة عرفت عن الوليد بن عبد الملك إذ بنى مستشفى أقام فيه أطبّاء أجرى عليهم رواتب . انظر مادّة بيمارستان في دائرة المعارف الإسلامية المذكورة أعلاه .

3 أخبار الحكماء ص 251 .

4 الفهرست ص 245 .

5 الفهرست ص 245 .

لمنكه الهندي في البيمارستان»[1] . وحين ذكر كتاب «سندستاق» . قال : «معناه كتاب صفوة النجم ، تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان»[2] .

4 ـ ازدهار صناعة الورق

قبل عصر الرشيد ، كان الرَّقُّ هو المستعمل لكتابة القرآن «لطول بقائه ، أو لأنّه موجود عندهم حينئذٍ . وبقي الناس على ذلك إلى أن وليّ الرشيد الخلافة . وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس . فأمر ألاّ يكتب الناس إلاّ في الكاغد لأنّ الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة ، فتقبل التزوير ، بخلاف الورق ، فإنّه متى محي فسد وإن كُشط ظهر كشطه»[3] . ويقول ابن خلدون : «كانت السجلاّت أوّلاً لاستنساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانيّة والإقطاعات والصكوك في الرقوق المهيّأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة الرفْه وقلّة التآليف ، صدرَ الملة ، كما نذكره ، وقلّة الرسائل السلطانيّة والصكوك مع ذلك . فاقتصروا على الكتابة في الرقّ ، تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحّة والإتقان»[4] . كما ينسب ابن خلدون صناعة الورق إلى الفضل بن يحيى فيقول : «. . . ثم طما بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل رسائل السلطان وصكوكه ، وضاق الرقّ عن ذلك ، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد ، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتّخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانيّة والعلميّة ، وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت»[5] . وإلى ذلك يشير هاملتون جب بقوله : «وما حلّت أواخر القرن الثاني حتى وجد الورق بكثرة ورخص الثمن»[6] . أمّا مصدر صناعة الورق فيبدو أنّه الصين عن طريق أسرى وقعوا

---

1 الفهرست ص 303 .

2 المرجع السابق .

3 القلقشندي – صبح الأعشى ج2 ص 475 .

4 المقدمة ج3 ص 962 .

5 المقدمة ج3 ص 962 .

6 دراسات في حضارة الإسلام ص 296 .

في أيدي العرب في عام /133هـ/[1] . ومع كل ما قدّمناه ، ليس لدينا تفاصيل عن مؤسّسات صناعة الورق وعن مالكيها وعمّا إذا كان للدولة أو للرشيد بالذات مصانع ، أو أنّ الصناعة كانت حرّة ودور الدولة في ذلك كان التشجيع واستهلاك الإنتاج في الرسائل والمؤلّفات . وأيّاً كان واقعها ، فإنّ للرشيد يداً في عملية الازدهار التي تسجّل لعصره ، سواء أعطى الأوامر هو شخصيّاً أم أعطاها وزيره يحيى البرمكي . ونحن لن نتحدّث عن أهميّة انتشار الورق في الحركة الثقافيّة فذلك واضح للعيان يعرفه الخاص والعام . إنما نودّ الإشارة إلى الدور الذي لعبته دكاكين الورّاقين إذ غدت خزائن للكتب والمراجع الأدبيّة وملقى للشعراء والأدباء[2] . ونكتفي هنا بالقول إنّ انتشار صناعة الورق ، لأوّل مرّة في الشرق العربي ، وبهذا الشكل ، وضع الثقافة على مفترق طرق ، فسهّل النسخ والتداول ، وجعل العلم والمعرفة في متناول معظم الناس .

5 ـ رعاية حركة التأليف واستقطابها

لا شكّ في أنّ العمليّة التطوريّة في البحث العلمي والاستقصاء العقلاني تأخذ أبعادها ، بشكل طبيعي ، على مرّ السنين والأيّام ، معتمدة تدرّج الخبرات التي تحصل عليها الشعوب في حياتها تلبية لحاجاتها وتحقيقاً لتصوّراتها . ولا شكّ ، أيضاً ، في أنّ احتكاك الشعب بشعب آخر ، سبقت له تجربة ثقافيّة وعلميّة متقدّمة ، يختصر كثيراً من مراحل التطوّر الطبيعي ويؤدّي إلى قفزة تكبر أو تصغر . ولا شكّ ، أخيراً ، في أنّ الجهود العلميّة تحتاج إلى كثيرٍ من النفقات لتأمين مادّة المعرفة والتجربة والقياس ، ولضمان عيش المشتغلين بها وانصرافهم إلى البحث والتأليف ، حتى تصبح مهمّة التمويل من مسؤوليّات الدولة الغنيّة حين تبلغ البحوث مرحلة متطوّرة جدّاً ، كما نشهد في أيّامنا . ولقد اهتمّ الرشيد شأن غيره من الخلفاء برعاية الحركات العلميّة ،

1 الكسندر ستبتشفيتش تاريخ الكتاب عالم المعرفة ج1 ص 235 .

2 راجع طبقات ابن المعتزّ ص 207 خبراً عن التقاء الشعراء في دكان ابن أبي شقيقة الورّاق .

وساهم ، مع وزرائه والأمراء ، في إحداث نقلة تطوريّة بما بذلوا لها من أعطيات سهّلت عملية الانصراف إلى العلم والبحث . ولكننا نلاحظ أنّ ذلك كان يتمّ بمبادرات شخصيّة ، من الرشيد والوزراء والأمراء ، مبادرات بعيدة عن أن تكون اهتماماً حكومياً رسميّاً يرصد المال ويرعى النتائج وفق مصالح الأمّة . حتى التوجيه ، الذي كان الرشيد أو سواه يعطيه للحركة ؛ بقي توجيهاً شخصيّاً يلائم ذوقه وأهواءه ، وليس توجيهاً مدروساً مبنيّاً على تقدير الحاجات . وقد يكون العذر في ذلك أنّ العصر كان يغرف من مادّة وجدت قبله ، لا يعرف مدى عمقها ، ولا يقدّر مضمونها ، بل يكتشف منها ما تقع يده عليه . فالانتقاء ظلّ تلمّساً عشوائيّاً ، وكان عليه أن يبقى كذلك فترة طويلة قبل أن يتحوّل إلى منهج مدروس . ولذلك فإنّنا نعتقد أنّ الاهتمام بالحركة ، لو اقتصر على الرشيد لما كان كافياً لرعايتها وإعطائها الأبعاد التي اتّخذتها ، والتي إنّما وصلت إليها نتيجة اتّفاق ذوي الشأن والجاه والمال ، بشكل عفوي ، أو بسبب المنافسة ، على دعم الحركة الأدبية العلميّة الثقافيّة . وهذا يعطينا صورة عن مستوى الثقافة التي باتت منتشرة بين الناس من جميع الطبقات في ذلك العصر . لقد كان لهذه الثقافة جنود وقوّاد ، وجميعهم يعملون لها عن قناعة وقصد . فهؤلاء الذين رَعوا المترجمين ، إنّما فعلوا ذلك ليحصلوا على الكتب المترجمة ويعبّوا من معين علومها ومعارفها . وهؤلاء الذين دعموا المؤلّفين فإنّهم لم يفعلوا ذلك لمجرّد اقتناء الكتب والمؤلّفات بل لأنّهم كانوا يهتمّون بموضوعاتها ويحسّون بحاجة إلى معلوماتها . هكذا ، وكما كان لكلّ منهم شعراؤه ومغنّوه ومترجموه ، وأطبّاؤه ، كان له مؤلّفون يوجّههم ويرعاهم ويثيبُهم ، ويغدو ، أحياناً موضوعاً لبعض كتبهم[1] . ولعلّ وصف «العروس» الذي كان يطلق على أيّام

1 إذا تتبّعنا أخبار المؤلّفات التي زخر بها العصر والتي يعد «الفهرست» مرجعها الأوّل والأشمل ، نجد أنّ بعض هذه المؤلّفات كتبت خصّيصاً للرشيد ، هذا فضلاً عن المؤلّفات القصصيّة أو العلميّة التي تؤلّف بإشرافه أو تُهدى إليه ليثيب عليها . كما نجد أنّ هذه العمليّة لم تكن وقفاً عليه . فقد كان البرامكة يثيبون أصحاب المؤلّفات والمترجمين ، كما وجّهت إليهم =

الرشيد يعود إلى هذه الأنوار الزاهية التي كانت تنبعث من كلّ ركن في العاصمة والملحقات ، دون أن تكون وقفاً على قصر الخلد أو قصر السلام . وكأنّ الدور والقصور ، في هذه الحقبة ، بالنخبة التي شكّلها أصحابها ، وبالنخبة التي أمّتها من الأدباء والمؤلّفين والمترجمين ، «صالونات» القرن السابع عشر في فرنسا ، تتخاطف الشعراء والمفكّرين ، وتزهو بإنتاج من ينتمي إليها منهم ، وفوقها جميعاً البلاط الملكي ، مطمح الآمال ومحطّ الأنظار .

= مؤلّفات ، شأنهم في ذلك شأن الرشيد ، من جهة ، وشأن الكثيرين من شخصيّات المجتمع ، من جهة أخرى . ويبدو أنّ معظم المؤلّفات التي وجّهت إلى الخليفة والوزراء كانت تستلهم الحكمة الفارسيّة والهنديّة لتلفت نظر المسؤول الحاكم إلى أخطاء يرتكبها دون أن يدري ، ولكي ترسّخ في نفسه أساليب العدل والاهتمام بالرعية . هكذا نسجّل ، فيما أُهدي للرشيد ، كتاب الخراج الذي ألّفه أبو يوسف القاضي مفصّلاً فيه ما غمض من موضوع الخراج الشائك المتفرّع ، مقدّماً له بنصائح في سياسة الحاكم . ونسجّل كذلك كتاب عظة هارون الرشيد لمحمد ابن الليث (الفهرست ص 315 وص 120) ورسالة مالك بن أنس إلى الرشيد (المرجع السابق ص 199) . ونضيف كتباً أُخرى ، إن لم يذكر فيها اسم الرشيد ، صراحة ، فالاحتمال كبير أن تكون ألّفت له ، ولا فائدة منها ترجى في غير ذلك . منها كتاب «آداب السلطان» للمدائني (الفهرست ص 102) وكتاب «فنون الحكم» لكلثوم العتابي (المرجع السابق ص 121) . . . أمّا البرامكة فكان دورهم يضاهي دور الرشيد ، إن لم يفقه ، نظراً لعددهم وثقافتهم وحوافزهم . فقد ألّف محمد بن الليث كتاب «يحيى بن خالد في الأدب» (المرجع السابق ص 120) وأُلّف ليحيى «كتاب في المطر» (المرجع السابق ص 317) وعمل له أبو علي الخيّاط «كتاب المنثور» (المرجع السابق ص 274) . ثمّ ألّف أبو محمد اليزيدي «كتاباً في النوادر ، لجعفر بن يحيى (المرجع السابق ص 51) وألّف له جابر بن حيّان «كتاب أغراض الصنعة» (المرجع السابق ص 356) . وإذا تتبّعنا قليلاً أعمال جابر ابن حيّان نجده يؤلّف لغير واحد من الوجهاء . فله مثلاً «كتاب» إلى علي بن يقطين «وكتاب» إلى علي بن إسحق البرمكي وكتاب «تليين الحجارة» إلى منصور بن أحمد البرمكي . . . (المرجع السابق ص 356) . ونحن لا نحاول احصاء المؤلّفات الموجّهة إلى الرشيد والأمراء ، ولكنّنا أردنا اعطاء لمحة قد تكون معبّرة .

الفصل السادس

أدب الرشيد المنثور

أولاً : الخطب

1 ـ خطبة وعْظيّة

الحمد لله ! نحمده على نِعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصرُه على أعدائه ، ونؤمن به حقّاً ، ونتوكّل عليه مفوِّضين إليه ، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه ، بعثَه على فترةٍ من الرُّسُل ، ودروس من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين يدي عذاب أليم ، فبلَّغَ الرسالة ، ونصح الأُمَّةَ ، وجاهد في الله فأدّى عن اللهِ وعدَه ووعيدَه ، حتى أتاه اليقين . فعلى النبي من الله صلاةٌ ورحمةٌ وسلام .

أوصيكم ، عباد الله ، بتقوى الله ؛ فإن في التقوى تكفير السيّئات وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنّة ، ونجاةً من النار . وأحذّركم يوماً تشخَص فيه الأبصار ، وتُبلى فيه الأسرار ، يومَ البعثِ ويوم التغابُنِ ، ويومَ التلاق ويوم التناد ، يوم لا يُستعتَب من سيّئة ، ولا يُزداد في حسنة ؛ يومَ الآزفة إذ القلوبُ لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيعٍ يُطاع ، يُعلَم فيه خائنةُ الأعين وما تخفي الصدور . واتّقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفّى كلُّ نفسٍ ما كسبت ، وهم لا يُظلمون .

عبادَ الله ، إنّكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولن تُتركوا سُدًى . حصِّنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينَكم بالورَع ، وصلاتَكم بالزكاة ؛ فقد جاء في الخبر أنّ النبي ﷺ قال : «لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دينَ لمن لا عهدَ له ، ولا صَلاةَ لمن لا زكاةَ له» . إنّكم سَفر مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء . فسارعوا إلى المغفرةِ بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهُدى بالإنابة فإنّ الله ، تعالى ذكره ، أوجب

رحمتَه للمتّقين ، ومغفرته للتائبين ، وهُداهُ للمُنيبين . قال الله ، عزّ وجلّ ، وقولُه الحق : ﴿ورحمتي وَسِعت كلَّ شيء ، فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة﴾ وقال : ﴿وإني غفّارٌ لمن تابَ وآمن وعَمِلَ صالحاً ثم اهتدى﴾ وإيّاكم والأمانيَّ ، فقد غرّت وأرْدَتْ وأوبقت كثيراً ، حتى أكذبتهم مناياهم ، فتناوشوا التوبةَ من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فأخبركم ربُّكم عن المَثُلات فيهم ، وصرّف الآيات ، وضَرَبَ الأمثال ، فرغّب بالوعْد ، وقدَّم إليكم الوعيد ؛ وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي ، جيلاً فجيلاً ، وعَهِدتُم الآباءَ والأبناءَ والأحبَّةَ والعشائرَ ، باختطاف الموت إيَّاهم من بيوتِكم ومن بين أظْهُرِكم ، لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم ؛ فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسبابُ ، فأسلمتْهم إلى أعمالهم عند الموقف والحساب والعقاب ، ليُجزَى الذين أساؤوا بما عملوا ويُجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

إنّ أحسن الحديث وأبلغَ الموعظة كتاب الله . يقول عزّ وجلّ ؛ ﴿وإذا قُرِىء القرآن فاستمعوا له وأنصِتوا لعلَّكم تُرحمون﴾ . أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، إنّه هو السميع العليم .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل هو الله أحد . اللهُ الصمد . لم يلِدْ . ولم يُولَدْ . ولم يكن له ، كُفُواً أحد﴾ آمُرُكم بما أمركم اللهُ به ، وأنهاكم عمّا نهاكم اللهُ عنه . واستغفر اللهَ لي ولكم[1] .

2 ـ خطبة في مجلس العائلة

شبّت الحرب في خراسان إذ شقّ أهلها عصا الطاعة حين عَنُفَ عليهم العمال أيّام المهدي . فخرج الخليفة إلى مجلس خلائه وبعث إلى نفر من لُحمته ووزرائه يستنصحهم . حضر المجلس جماعة من مواليه وأهل بيته كما حضرها وليّا عهده الهادي والرشيد . وتكلّم كُلٌّ في رأي عارضاً التشدّد أو الأخذ باللين والحسنى . فأشار

1 العقد الفريد ج4 ص 102 ، 103 ، 104 .

موسى الهادي مثلاً «أن يُعصَبوا بشدّةٍ لا لين فيها . . .» ورأى الفضل أن تُرسَل لهم الجيوش ويعطوا مطالبهم المحقّة بشأن عدل العمّال .

قال هرون :

«خلطتَ الشدّة ، أيّها المهديُّ ، باللين ، فصارت الشدّةُ أَمَرَّ فِطامٍ لما تكره . وعاد اللينُ أهدى قائد إلى ما تحبّ . ولكنّي أرى غيرَ ذلك» .

قال المهدي :

لقد قلتَ قولاً بديعاً خالفتَ به أهل بيتك جميعاً . والمرءُ مُتَّهمٌ بما قال ، وظنين بما ادّعى حتى يأتي ببيّنة عادلة وحجّة ظاهرة . . قال هارون :

«أيّها المهديّ ، إنّ الحرب خدعة ، والأعاجم قومٌ مَكَرَة ، وربّما اعتدلت الحالة بهم واتّفقت الأهواء منهم ، فكان باطنُ ما يُسرّون على ظاهر ما يُعلنون . وربّما افترقت الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلب على محجوبة تُبطَنُ واستسرَّ بمدخولة لا تُعلن . والطبيب ، الرفيق بطبّه ، البصير بأمره ، العالم بمقدَّم يده وموضع مَيْسَمِه ، لا يتعجّل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء . فالرأي للمهديّ ، وفّقه الله ، أن يَفِرَّ باطنَ أمرهم فَرَّ المُسِنَّة ، ويمخَضَ ظاهرَ حالهم مخضَ السقاء بمتابعة الكتب ، ومظاهرة الرسل ، ومُوالاة العيون ، حتى تُهتَك حجبُ عيوبهم وتُكشَف أغطيةُ أمورهم ؛ فإن انكشف الحالُ له ، وأفضت الأمورُ به إلى تغيير حال ، أو داعيةِ ضلال اشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجالُ إليه ، وامتدّت الأعناقُ نحوه ، بِدِينٍ يعتقدونه ، وإثمٍ يستحلّونه ، عَصَبَهم بشدّةٍ لا لين فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفو منها . وإن انفرجت الغيوب ، واحتُضرت الستور ، ورُفعت الحُجُب ، والحالُ فيهم مَريعة ، والأمور بهم معتدلةٌ عن أرزاق يطلبونها ، وأعمال ينكرونها ، وظُلاماتٍ يدّعونها وحقوقٍ يسألونها ، بماتَّةِ سابِقَتِهم ، ودالّةِ مناصحتهم ، فالرأي للمهديّ ، وفّقه الله ، أن يتّسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عمّا كرهوا ، ويَشعبَ من أمرهم ما صَدَعوا ، ويرتقَ من فتقِهم ما فتقوا ، ويولّيَ عليهم مَن أحبّوا ، ويداوي بذلك مَرَضَ قلوبهم وفسادَ أمورِهم ، فإنّما المهديُّ ، من أُمَّته وسوادِ أهل مملكته ؛ بمنزلة الطبيب الرفيق ،

والوالدِ الشفيق ؛ والراعي الحَدْب الذي يحتال لمرابِضِ غنمه ، وضوالٍّ رعيّته ، حتى يبرىء المريضةَ من داء علَّتِها ، ويَرُدَّ الضالّة إلى أنَسِ جماعتها .

ثم إنّ خراسان ، بخاصّةٍ ، لهم دالّةٌ محمولة ومأتّةٌ مقبولة ، ووسيلةٌ معروفة ، وحقوق واجبة ، لأنّهم أيدي دولته ، وسيوفُ دعوته ، وأنصارُ حقّه ، وأعوانُ عدله ؛ فليس من شأن المهديّ الاضطغانُ عليهم ، ولا المؤاخذة لهم ، ولا التوعُّرُ بهم ، ولا المكافأةُ بإساءتهم ، لأنّ مبادرةَ حسم الأمور ضعيفةً قبل أن تقوى ، ومحاولةَ قطْع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلُظ أحزمُ في الرأي ، وأصحُّ في التدبير من التأخير لها ، والتهاون بها ، حتى يلتئم قليلُها بكثيرها ، وتجتمع أطرافُها إلى جمهورها . . .

قال المهدي : ما زال هارون يقعُ وقع الحيا ، حتى خرجَ خروج القِدْحِ ممّا قال ، وانسلّ انسلال السيف فيما ادّعى . . .[1]

---

1 العقد الفريد ج1 ص 201 .

الفصل السابع

كُتُب للرشيد بخطّ يده

لمّا عزم الرشيد على عزل عليّ بن عيسى بن ماهان عن ولاية خراسان ، استدعى هرثمة بن أعين واختلى به وأعطاه تعليماته ، وحمّله كتابين ، أحدهما بعزل عليّ وثانيهما بعهده لهرثمة .

1 ـ ذكر الطبري في أخبار عام 191

«كتب إلى عليّ بن عيسى بن ماهان كتاباً بخطّه ، نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا ابن الزانية ، رفعتُ من قَدرِك ، ونوَّهتُ باسمك ، وأوطأتُ سادة العرب عَقِبَك ، وجعلتُ أبناءَ ملوك العجم خَوَلكَ وأتباعك ، فكان جزائي أن خالفتَ عهدي ، ونبذتَ وراء ظهرك أمري . حتى عِثتَ في الأرض ، وظلمتَ الرعية ، وأسخطتَ الله وخليفَتَه ، بسوءِ سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك . وقد ولّيتُ هرثمة بن أعين ، مولاي ، ثغرَ خراسان وأمرتُه أن يشدّ وطأته عليك وعلى ولدك وكتّابك وعمّالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ، ولا حقّاً لمسلم أو معاهد إلاّ أخذكم به حتى تردَّه إلى أهله . فإن أبيتَ ذلك ، وأباه ولدُك وعُمّالُك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصبّ عليكم السياط ، ويُحِلَّ بكم ما يُحَلُّ بمن نكث وغيّر ، وبدّل وخالف ، وظلم وتعدّى وغشَم ، انتقاماً لله ، عزّ وجلّ ، بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً . فلا تعرّض نفسَكَ للتي لا شَوَى لها ؛ واخرج ممّا يُلزِمك طائعاً أو مكرهاً[1] .

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 327 .

2 ـ وكتب عهدَ هرثمة بخطّه[1]

هذا ما عَهِد هارون الرشيد ، أمير المؤمنين ، إلى هرثمة بن أعيَن حين ولاّه ثغر خراسان وأعماله وخراجه . أَمَرَهُ بتقوى الله وطاعتِهِ ورعايةِ أمر الله ومراقبتِهِ ؛ وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله ، فيُحلّ حلالَهُ ويحرِّم حرامه ، ويقف عند متشابَهِه ، ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله ، أو يردّه إلى إمامه ليُريَه الله ، عزّ وجلّ ، فيه رأيَه ويعزم على رشده ؛ وأمره أن يستوثق من الفاسق عليّ بن عيسى وولده وعمّاله وكتّابه ، وأن يشدَّ عليهم وطأته ويُحلّ بهم سطوتَه ، ويستخرج منهم كلّ مال يصحّ عليهم من خراج أمير المؤمنين وفيء المسلمين ؛ فإذا استنظف ما عندهم وقِبَلَهم من ذلك ، نظر في حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحقّ كل ذي حقّ حتى يَردّوه إليهم . فإن ثبتت قِبَلَهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوقٌ للمسلمين ، فدافعوا بها وجحدوها ، فله أن يَصبَّ عليهم سوطَ عذاب الله وأليمَ نقمته حتى يبلغ بهم الحالَ ، التي ، إن تخطّاها بأدنى أدب (أي تأديب) تلفتْ أنفسُهم وبطُلت أرواحُهم . فإذا خرجوا من حقّ كل ذي حقّ ، أشخصهم كما تُشخَص العُصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب ، وغلظ الملبس ، مع الثقات من أصحابه ، إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله .

فاعمل يا أبا حاتم بما عهدتُ إليك ، فإنّي آثرتُ اللهَ وديني على هواي وإرادتي ، فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك . ودبّر ، في عمّال الكُور الذين تمرّ بهم في صعودك ، ما لا يستوحشون معه إلى أمرٍ يُريبهم وظنٍّ يُرعبهم . وابسُط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ، ومَن ولاّك الله أمره ، إن شاء الله .

هذا عهدي وكتابي بخطّي ، وأنا أُشهد اللهَ وملائكتَه وحَمَلةَ عرشه وسكّان سماواته . وكفى بالله شهيدا . . . وكتب أمير المؤمنين بخطّ يده لم يحضره إلاّ الله وملائكته .

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 327 .

الفصل الثامن
أقوال في مواقف

1 ـ بين الرشيد وعبد الملك بن صالح ، وهو من أبناء عمّ الخليفة معروف بجلالة القدر وحسن الأدب والمروءة والفصاحة وكان يُتّهم بالطمع في الخلافة ، قامت مواقف اتّهام ودفاع .

«دخل عبد الملك بن صالح يوماً على الرشيد ، فلم يلبَث في مجلسه أن التفت الرشيد وقال متمثّلاً :

أُريــدُ حياتَــهُ ويُريــدُ قَتــلي عَذيــرَكَ مــن خَليلِكَ من مُرادِ

ثم قال[1] :

أما والله لكأنّي أَنظرُ إلى شؤبوبها[2] قد هَمَعَ[3] ، وعارِضِها قد لَمَع ، وكأنّي بالوعيدِ قد وقع ، فأقلعَ عن براجمَ[4] بلا معاصم ، وجماجمَ بلا غلاصم[5] . فمهلاً ، مهلاً بني

---

1 العقد الفريد ج2 ص 152 . وزهر الآداب ج3 ص 678 (وفيه «. . . كأني بالوعيد قد أورى ، بل أدمى . . . سَهُل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر ، وألقت إليكم الأمور أثناء أزمّتها ، فنذارِ لكم نذراً قبل . . .») .

2 الشؤبوب : الدفعة من المطر .

3 همع : سال وانصبّ . ويقصد شؤبوب الفتنة المتوقعة من عبد الملك ومؤيّديه من بني العبّاس .

4 البراجم : مفاصل الأصابع .

5 الغلاصم : جمع غلصمة وهي الموضع الناتيء في الحلق . وقصد بذلك قطع الأيدي والرؤوس تأديباً .

هاشم ، فبي ، واللهِ يسهُلُ لكم الوَعْرُ ، ويصفو لكم الكَدر ، وألقت إليكم الأمور مَقَاليدَ أَزِمَّتِها ؛ فالتداركَ ، التداركَ قبل حُلولِ داهيةٍ خَبوطٍ باليد ، لَبوطٍ بالرِّجل» .

2 ـ كتب إليه يحيى بن خالد من الحبس يستعطفه لكبر سنّه ولبراءته من ذنب اقترفه غيره . فردّ عليه الرشيد من كتاب[1] :

إنّ أميرَ المؤمنين لم يأتِ على ولدِكَ اللعين ، ومن رأيه تركُ الباقين ؛ ولم يأمر بحبسك وهو يريد بقاءَ نفسك ؛ إنّما أخّرك وإيّاهم لتعالج البؤسَ بعد النعيم ، ثم تصيرَ إلى العذاب الأليم . فأبشِرْ أيّها المخادع الزنديق ، والمخالِفُ الفِسِّيق ، بما أعدّ لك أمير المؤمنين من تبديد شملك وخمول ذكرك وإطفاء أمرك ، فتوقّعْه صباحاً ومساءً» .

3 ـ قال الرشيد للحسن بن عمران ، وقد أُدخل عليه يَرسُفُ في قيوده[2] :

«ولّيتُك دمشق وهي جنّةٌ مونِقة ، تحيط بها غُدُرٌ كاللّجين ، فَتَكِفُ على رياضٍ كالزّرابي ، وكانت بيوتَ أموال . فما بَرِح بها التعدّي حتى تركتَها أجرَدَ من الصخرِ وأوحشَ من القفْر» .

4 ـ كتب نقفور ، ملك الروم إلى الرشيد[3] :

«من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب .

أمّا بعد ،

فإنّ الملكة التي كانت قبلي أقامتكَ مقامَ الرُّخّ ، وأقامت نفسها مقام البيدق[4] ، فحملتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقاً بحمل أمثالها إليها ، لكن ذاك لضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي ، فارددْ ما حصل قِبَلَك من أموالها ، وافتدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك . . .

---

1 غرر الخصائص الواضحة ص 409 .

2 زهر الآداب ج3 ص 683 .

3 تاريخ الطبري ج8 ص 308 .

4 الرخ والبيدق من أحجار الشطرنج .

فلمّا قرأ الرشيد الكتاب استفزّه الغضب . . . فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون ، أمير المؤمنين ، إلى نقفور ، كلب الروم . قد قرأتُ كتابك يا ابن الكافرة . والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام» .

5 ـ زار الرشيد الفضلَ بن عياض في كوخه ، ودخل إليه بعد إلحاح في الاستئذان ، طلباً لوعظه . فتحدّث معه زمناً ، وحين علم الفضلُ حقيقةَ زائره أمعن فيه وفي العبّاسيين انتقاداً وذكراً للعيوب والمثالب . فقال له الرشيد[1] :

«يا أبا الحسن ، أما لك ذنوب ؟ . . قال الفضل : بلى . فقال الرشيد : «فما جعلك أحقّ بأن ترجو المغفرة منّي ، وأنا على دين يقبل الله فيه الحسنات ويعفو عن السيّئات ؟ ومع ذلك ، فإنّي واللهِ ما كنتُ لأُخيَّر بين شيء وبين الله إلاّ اخترتُ الله تعالى على ما سواه ؛ الله الشاهد على قولي والمطّلع على نيّتي وضميري ، وكفى به شهيداً . وأنا ، مع هذا ، أَلِي من الإصلاح بين الناس ، والجهادِ في سبيل الله ، والأمرِ بالمعروف ، والنهْيِ عن المنكَر ، ما لا تليه أنت . فما جعلك أحقّ أن ترجو المغفرة منّي ؟ فسكت الفضل ساعة ثم قال : ما ظلمك من حَجَّكَ» .

6 ـ كان الرشيد جعل مستقرّه في الرقّة . وحين عاد من خراسان حيث التقى علي ابن عيسى دخل مدينة السلام ، لكنّه طوى بغداد ولم ينزلها ومضى من فوره متوجّهاً إلى الرقّة .

وذُكر عن بعض قوّاد الرشيد أنّ الرشيد قال ، لما ورد بغداد[2] :

«واللهِ إنّي لأطوي مدينةً ما وُضعتْ بشرقٍ ولا غربٍ مدينةٌ أيمنُ ولا أيسرُ منها . وإنّها لوطني ووطن آبائي ، ودارُ مملكة بني العبّاس ما بقوا وحافظوا عليها . وما رأى أحد من آبائي سوءًا ولا نكبةً منها ، ولا سيء بها أحد منهم قطّ . ولنعم الدار هي .

1 الإمامة والسياسة ج2 ص 295 .

2 تاريخ الطبري ج8 ص 317 .

7 ـ مدح ربيعة الرقي العبّاس بن محمد بن علي ، أحد أعمام الرشيد ، بقصيدة جيّدة ، فأثابه عليها بدينارين . فلمّا علِم الرشيد بذلك ثارت ثائرته على عمّه ، مع إجلاله له وتقديره وقال[1] :

«سوأة لك ! أية حال قعدتْ بك عن إثابته ؟ أقلّة المال ؟ فوالله ، لقد موّلتُكَ جهدي . أم انقطاعُ المادة عنك ؟ فوالله ما انقطعت . أم أصلك ؟ فهو الأصل لا يُدانيه شيء . أم نفسُك ؟ فلا ذنب لي . فوالله لم تبخل بك إلاّ نفسُك ، حتى فضحتَ آباءك وأجدادك ، وفضحتَني ونفسك» .

8 ـ أتاه يوماً رجل من الزهّاد فقال : يا هارون ، إتّقِ الله . فأخذه ، فخلا به ، وقال :

«يا هذا ، أنا شرٌّ أم فرعون ؟ قال : بل فرعون . قال : فأنت خير أم موسى ؟ قال : موسى . قال : أفما تعلم أن الله تعالى ، لما بعثه وأخاه إليه قال : «فقولاً له قولاً ليّنا» ، وأنت قد جبهتَني بأغلظ الألفاظ ؟ فما بأدب الله تأدّبتَ ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت . . .»[2] .

---

1 الأغاني ج16 ص 193 .

2 خلاصة الذهب المسبوك ص 113 .

الفصل التاسع

من وصايا الرشيد

1 ـ قال الرشيد للأصمعي حين كلّفه تأديب ولده[1] :

«إعلم أنّ ولد الرجل مهجةُ قلبه ، وثمرةُ فؤاده . وهو ذا أسلّمُ إليك ابني محمداً بأمانة الله ، فلا تعلّمهُ ما يُفسد عليه دينه ، فلعلّ أن يكون للمسلمين إماماً» .

* * *

2 ـ كان يحيى (البرمكي) قد ولّى رجلاً بعضَ أعمال الخراج . فدخل به إلى الرشيد ليراه ويوصيه . فقال (الرشيد) ليحيى بن خالد وابنه جعفر : أوصياه . فقال له يحيى : «وَفِّرْ واعْمُرْ» . وقال له جعفر : «أَنصِفْ وانتصِفْ» . وقال له الرشيد : إعدِلْ ، وأَحْسِنْ»[2] .

* * *

3 ـ قال الأصمعي : لما عزم الرشيد على تأنيسي قال لي ، في أوّل يوم أحضرني للأنس والمحادثة[3] :

يا عبد الملك ، أنت أحفظ منّا ، ونحن أعقل منك . لا تعلّمنا في الملا ، ولا تُسْرِع إلى تذكيرنا في خلوة . واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ؛ فإذا بلغتَ بالجواب

---

1 الفرج بعد الشدّة ج3 ص 163 .

2 الوزراء والكتّاب ص 233 ؛ وتاريخ الطبري ج8 ص 352 .

3 أسرار الحكماء ص 94 .

قدر استحقاقه فلا تزد . وإيّاك والبِدارَ إلى تصديقنا وشدّة التعجّب ممّا يكون مِنّا . وعلّمنا من العِلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر ، وفي أعطاف الخطب ، وفواصل المخاطبات . ودعنا من رواية حوشيّ الكلام وغرائب الأشعار . وإيّاك وإطالة الحديث ، إلاّ أن نستدعيَ ذلك منك . ومتى رأيتنا صارفين عن الحقّ ، فأرجِعنا إليه ما استطعت ، من غير تقرير بالخطأ ، ولا إضجار بطول الترداد» .

فقال الأصمعيّ : يا أمير المؤمنين . إنّي إلى حفظ هذا الكلام أحوج منّي إلى كثير من البِرّ .

4 ـ وصيّته للأحمر اللغوي مؤدّب ولده الأمين[1] .

قال الأحمر : بعث إليّ الرشيد لتأديب ولده محمد الأمين . فلمّا دخلت قال : «يا أحمر ، إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصيِّرْ يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة[2] . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين .

أقرئه القرآن ، وعرّفه الآثار[3] ، وروِّه الأشعار ، وعلّمه السُّنَن ، وبصّرْه مواقع الكلام وبدئه ، وامنعه الضحك ، إلاّ في أوقاته . وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلاّ وأنت مغتنمٌ فيها فائدةً تفيده إيّاها ، من غير أن يخرق بك[4] فتُميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه . وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أَبَىء فعليك بالشدّة والغلظة» .

---

1 مروج الذهب ج3 ص 270 . ومقدّمة ابن خلدون ج4 ص 1244 .

2 كذا في مروج الذهب . وفي المقدمة «طاعته لك واجبة» .

3 كذا في مروج الذهب ، وفي المقدّمة : «عرّفه الأخبار» .

4 كذا في مروج الذهب ، وفي المقدّمة : «من غير أن تحزنه» .

الفصل العاشر
أقوال مأثورة للرشيد

1 ـ قال الرشيد يوماً لبنيه : «ما ضرَّ أحدَكم لو تعلَّم من العربية ما يصلح به لسانَه ؟ أيُسَرُّ أحدُكم أن يكون لسانُه كلسان عبدِه وأَمَتِهِ ؟»[1] .

* * *

2 ـ تُوفي عمرو بن مطرِّف بمكّة ، وصلّى عليه الرشيد فقال :

«يرحمك الله ، فوالله ما عَرَضَ لك أمران : أحدُهما لله ، والآخرُ لك ، إلاّ اخترتَ ما هو للهِ على ما هو لك»[2] .

* * *

3 ـ قال الرشيد : «النوادر تَستحدّ الأذهان وتفتّق الآذان»[3] .

* * *

4 ـ إضافة إلى التصدير في الكتب مسجَّلة للرشيد :

«كان التصدير ينتهي إلى قول : فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو . إلى أن أفضتِ الخلافةُ إلى الرشيد فأمر أن يُزاد فيه : «وأسألُهُ أن يصلّي على محمد ، عبده

---

1 صبح الأعشى ج1 ص 168 .

2 الوزراء والكتّاب ص 265 والفهرست ص 127 .

3 ثمرات الأوراق بهامش المستطرف ج2 ص 160 .

ورسوله ، ﷺ» . فكتب بذلك إلى هذا الوقت . فكانت هذه من أفضل مناقب الرشيد[1] .

* * *

5 ـ عند مرور الرشيد بـ«رنبويه» ، في طريقه إلى خراسان ، توفي الكسائي اللغوي ومحمد بن الحسن الفقيه . فقال الرشيد :

«خَلَّفتُ الفقه والنحو برنبويهِ»[2] .

6 ـ كان الرشيد في بعض غزواته ، فألحّ عليه الثلج ليلة . فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ، أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنَصَب ووعثاء السفر ، فيما الرعية قارّة ، وادعة ، نائمة ؟ فقال الرشيد :

«للرعيّة المنام ، وعلينا القيام . ولا بُدّ للراعي من حراسة الرعيّة وتَحمُّلِ الأذيَّة»[3] .

* * *

1 أدب الكتّاب ج1 ص 40 ؛ والنجوم الزاهرة ج2 ص 103 .
2 الورقة ص 26 .
3 غرر الخصائص الواضحة ص 101 .

الفصل الحادي عشر

توقيعات للرشيد

1 ـ لمّا نُكِبَ البرامكة ، كتب يحيى إلى الرشيد :

«إن كان الذنب ، يا أمير المؤمنين ، خاصّاً ، فلا تَعُمّ بالعقوبة ، فإن لي سلامة البريء ومودَّةَ الوليّ» . فوقّع في حاشية كتابه : «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»[1] .

* * *

2 ـ وقّع إلى صاحب خراسان : «داوِ جرحَكَ لا يَتَّسِعْ» ، وإلى عامله في مصر : «إيّاك أن تخرّب خِزانتي وخِزانة أخي يوسف ، فيأتيكَ منّي ما لا قِبَل لك به ، ومن الله أكثرُ منه[2] . . .» .

* * *

3 ـ وقّع في قِصّة رجل من البرامكة : «أنبَتَتْهُ الطاعة ، وحصدتْهُ المعصية»[3] .

* * *

4 ـ إلى عامله على فارس : «كنْ مني على مثل ليلةِ البَيات» .

وإلى عامل خراسان : «إنّ الملوك يؤثَر عَنهمُ الحزمُ» .

---

1 الوزراء والكتّاب ص 253 .

2 العقد الفريد ج4 ص 213 .

3 العقد الفريد ج4 ص 213 .

وإلى خزيمة بن خازم ، إذ كتب إليه إنّه وَضَع فيهم السيفَ حين دخل أرض أرمينيا : «لا أُمَّ لك ، تقتُلُ بالذنبِ من لا ذنبَ له ؟»[1] .

* * *

5 ـ وقّع في قصّة محبوس : «من لجأ إلى الله نجا» .

وفي قصّة متظلّم : «لا يُجاوَزُ بك العدلُ ، ولا يُقَصَّر بك دون الإنصاف»[2] .

* * *

6 ـ وقّع في كتاب إلى صاحب السّند ، إذ ظهرت العصبية : «كلُّ من دعا إلى الجاهلية تَعَجَّلَ إلى المنيّة» .

وإلى عامله على خراسان : «كلُّ من رَفَعَ رأسَهُ ، فأَزِلْهُ عن بدنه»[3] .

* * *

7 ـ وفي رقعة متظلم من عامله على الأهواز ، وكان بالمتظلّم عارفاً : «قد ولَّيناكَ موضعَه ، فتنكَّبْ سيرتَه»[4] .

* * *

8 ـ وفي كتاب بكّار الزُّبيريّ إليه يخبره بسرّ من أسرار الطالبيّين : «جزى اللهُ الفضلَ خيرَ جزاء في اختياره إيّاك ، وقد أثابك أمير المؤمنين مئة ألف بِحسنِ نِيَّتِك» .

ـ وإلى محفوظ صاحب خراج مصر : «يا محفوظ ، اجعل خراج مصر خرجاً ، وأنت أنت»[5] .

1 العقد الفريد ج4 ص 214 .
2 العقد الفريد ج4 ص 214 .
3 العقد الفريد ج4 ص 214 .
4 العقد الفريد ج4 ص 214 .
5 العقد الفريد ج4 ص 214 .

ـ وإلى صاحب المدينة : «ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن ، فإنّهم أطالوا ليلي بالسُّهاد ، ونَفَوا عن عيني لذيذَ الرُّقاد[1] .

* * *

9 ـ وقّع إلى السنديّ بن شاهك : «خَفِ اللهَ وإمامَك ، فهما نجاتُك» .

ـ وإلى سليمان بن أبي جعفر ، في كتاب ورد عليه منه يذكر فيه وثوب أهل دمشق : «استحييتُ لشيخٍ ولدَهُ المنصور أن يهربَ عَمَّن وَلَدَتْهُ كندةُ وطيّىء . فهلاّ قابلتَهم بوجهك ، وأبديت لهم صفحتَك ، وكنتَ كمروان ابن عمّك إذ خرج مُصلِتاً سيفَه متمثّلاً ببيت الجحّاف بن حُكيم :

متقلّديـــنَ صفائحـــاً هنديّـــةً يتركْنَ مَنْ ضَرَبوا كمَنْ لم يُولَدِ

فجالَدَ به حتى قُتل ! للهِ أُمٌّ ولَدَتْهُ وأَبٌ أَنْهضَهُ»[2] .

* * *

10 ـ كتب متملّك الروم إلى هرون الرشيد : «إنّي متوجّةٌ نحوك بكلّ صليب في مملكتي ، وكلّ بطلٍ في جُندي» .

فوقّع في كتابه : «سيَعلمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقبى الدار»[3] .

* * *

11 ـ كتب إليه يحيى بن خالد من الحبس ، حين أحسّ بالموت : «قد تقدم الخصمُ إلى موقف الفصل ، وأنتَ بالأثر ، واللهُ الحكَمُ العَدْل ، وستُقَدَّمُ فتعلَم» . فوقّع فيه الرشيد : «الحكَمُ الذي رضيتَهُ في الآخرةِ لك هو أعدى الخصوم عليك ،

---

1 العقد الفريد ج4 ص 214 .

2 العقد الفريد ج4 ص 214 .

3 العقد الفريد ج4 ص 215 .

وهو من لا يُرَدُّ حكمُهُ ، ولا يُصرَفُ قضاؤه»[1] .

* * *

12 ـ حُكي أنّ بعض العمّال بعث إلى الرشيد بعبد أسود . فقلب كتابه ووقّع فيه : «أمّا بعد ، فإنّك لو وجدتَ عدداً أقلَّ من الواحد أو لوناً شرّاً من السواد ، لبعثتَ به إلينا . والسلام»[2] .

* * *

1 العقد الفريد ج4 ص 69 ، 215 ؛ والإمامة والسياسة ج2 ص 324 .
2 صبح الأعشى ج2 ص 13 .

الفصل الثاني عشر

دعاء للرشيد

ذكر الطبري عن الجوزجانيِّ – وكان مجاوراً بمكّة أربعين سنة – أنّ بعض الحجَبَة حدّثه أنّ الرشيد ، لمّا حجّ ، دخل الكعبة وقام على أصابعه وقال :

«يا من يملك حوائجَ السائلين ، ويعلم ضمير الصامتين ، فإنّ لكلّ مسألة منك ردّاً حاضراً وجواباً عتيداً ، ولكلّ صامت منك عِلْماً محيطاً ناطقاً بمواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة . صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، واغفر لنا ذنوبنا ، وكفِّر عنّا سيّئاتنا ، يا من لا تَضُرُّه الذنوب ، ولا تخفى عليه العيوبُ ، ولا تنقصه مغفرة الخطايا .

يا مَن كَبَس الأرضَ على الماء ، وسَدَّ الهواءَ بالسماء ، واختار لنفسه الأسماء ، صَلِّ على محمد ، وخِرْ لي في جميع أمري . يا مَن خَشَعت له الأصوات بألوان اللغات ، يسألونك الحاجات ، إن من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفّيتني وصرتُ في لحدي ، وتَفَرَّق عنّي أهلي وولدي . اللهمّ لك الحمد حمداً يفضُل على كل حمد ، كفضلك على جميع الخلق .

اللهمّ صلِّ على محمد صلاة تكون له رضاً ، وصلِّ على محمد صلاةً تكون له حرزاً ، وأجزِهِ عنّا خير الجزاء في الآخرة والأولى .

اللهمّ ، أحْيِنا سعداء ، وتَوفَّنا شهداء ، واجعلنا سعداء مرزوقين ، ولا تجعلنا أشقياء محرومين[1] .

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 355 .

الفصل الثالث عشر

الرشيد يحدّث

1 ـ «قال عمرو بن بحر الجاحظ : حدّثنا أبو يوسف القاضي قال : تغدّيت عند الرشيد ، فسقطت من يدي لقمة وانتثر ما كان عليها من الطعام . فقال : يا يعقوب ، خذ لقمتك ، فإنّ المهدي حدّثني عن أبيه المنصور ، عن أبيه محمد بن علي ، عن أبيه عليّ بن عبد الله بن عبّاس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من أكل ما سقط من الخوان ، فرُزق أولاداً ، كانوا صِباحاً»[1] .

* * *

2 ـ قال الرشيد في خطبة :

* «حدّثني مبارك فضالة ، عن الحسن ، عن أنس ، قال : قال النبي ﷺ : «اتّقوا النارَ ، ولو بِشِقٍّ تمرة» .

* «حدّثني محمد بن علي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عبّاس ، عن علي بن أبي طالب قال : قال النبي ﷺ : «نظّفوا أفواهكم ، فإنّها طريق القرآن»[2] .

* * *

1 تاريخ بغداد ج12 ص 214 .

2 تاريخ الخلفاء ص 350 .

الفصل الرابع عشر

تعليقات للرشيد

1 ـ يذكر ابن الأثير ، في معرض كلامه على بيتي أبي نواس :

شرابُك في السراب إذا عطشنا   وخبزُك عند مُنقطــعِ الترابِ
ومــا رَوَّحتنا لتــذُبَّ عنّا   ولكنْ خفتَ مرزيــةَ الذبابِ

«يُحكى عن الرشيد هارون ، رحمه الله ، أنّه قال : لم يُهجَ بادٍ ولا حاضرٌ بمثل هذا الهجاء»[1] .

* * *

2 ـ بلغ الرشيدَ بيتان لأبي العتاهية يهجو بهما سلماً الخاسر وينعته بالبخل ، فقال :

«لعمري ، إنّ الحرص لمفسدة للدين والدنيا ، وما فتّشتُ عن حريصٍ قطٌّ مغيَّبَه إلاّ انكشف لي عمّا أذمُّه»[2] .

* * *

3 ـ كتب محمد بن كثيِّر إلى الرشيد : «يا أمير المؤمنين ، لولا حَظٌّ كرم الفعل في مطالع السؤال ، لألهى المَطَلُ قلوبَ الشاكرين ، ولَصَرف عيونَ الناظرين إلى حسن المحبّة ، فأي الحالين يبعد قولك عن مَجاز فعلك ؟» . . . فقال هارون الرشيد :

«هذا الكلام لا يحتمل الجواب ، إذ كان الإقرارُ بهِ يمنع من الاحتجاج عليه»[3] .

* * *

---

1 المثل السائر ص 127 . مُرْزية : مخفَّفة عن (مرزئة) وهي المصيبة .

2 الأغاني ج19 ص 222 .

3 زهر الآداب ج4 ص 1049

ترجمته
من كتب الأدب والتراجم

– I –

ترجمته من كتاب «الوزراء والكتّاب»[1]

لمّا تقلّد هارون الخلافة دعا يحيى بن خالد ، وكان يُخاطبه بالأبوّة ، وعلى ذلك أجراه في خلافته ، فقال له : يَا أَبَةِ ، أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك ، وحُسن تدبيرك ، وقد قلّدتُك أمر الرعية ، وأخرجته من عُنقي إليك ، فاحكم بما تَرى ، واستعمل مَنْ شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنّي غير ناظر معك في شيء . فكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوساً عامّاً في كلّ يوم ، إلى انتصاف النهار ، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم ، لا يُحجب أحد ، ولا يُلْقي لهم سِتْر . وقام يحيى بالأمور ، وكان يعرض على الخيزُران ، ويُورد ويُصْدِر عن أمرها ، واحتفر القاطول ، واستخرج نهراً سمّاه أبا الجيل ، وأنفق عليه عشرين ألفَ ألفِ درهم ؛ وقلّد ثابت بن موسى ديوان العراقين وخراج الشام ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ، وتقدّم بحمله من مصر إليهم ، وأجرى على المُهاجرين والأنصار ، وعلى وُجوه أهل الأمصار ، وعلى أهل الدّين والآداب والمُروءات ، واتّخذ كتاتيب لليتامى . وكانت الدواوين كلُّها إلى يحيى بن خالد مع الوزارة ، سوى ديوان الخاتَم ، فإنّه كان إلى أبي العبّاس الطوسي . وكان يحيى أوّلَ من أُمِّرَ من الوزراء ، وكان أوّل من زاد في الكتب : «وأسأله أن يصلّي على محمد عبده ورسوله» ، وأنشأ في ذلك كتاباً ، وذكر فيه فَضْل الأنبياء عليهم السلام .

وكان الرشيد ساخطاً على إبراهيم بن ذكوان الحرّاني ، فحبَسه وقبض أموالَه ، فحبسه يحيى في داره ، وكفّه عنه ، وتلطّف إلى أن استكتبه لمحمد بن سليمان بن أبي جعفر ، وكان يلي البصرة ، فأشخصه .

1 الوزراء والكتّاب 2 117 وما بعدها .

وأمرت الخيزُران أن يُقْتَل من كان تَسرّع إلى خلع الرشيد ، ودعا إلى بيعة جعفر ابن الهادي ، فقال لها يحيى : أَوَ خَيْرٌ من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : يُرْمَى في بُحور الأعداء ، فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدّفع عنها شغل ، وإن أصابهم العدوّ كنتِ قد استرحت منهم ، فأذنت له في ذلك ، فتخلّص القوم جميعاً .

وكانت الكتب التي تُنفذ من ديوان الخراج تُؤرّخ باسم يحيى بن خالد ، ولم تكن تنفذ إلاّ عن الخليفة ، وكان أبو العبّاس الطوسي يتعقد في ختم الكتب ، فشكا يحيى إلى الرشيد تأخّر الكتب ، فأمره أن يكاتب العمّال عن نفسه ، وأمر كاتبَه أن يكتب عنه في المهم ، وأن يؤرّخ الكتب باسم الكاتب . قال الفضل بن مروان : وأحسِب الكاتب كان منصور بن زياد ، وقَرَّب يحيى بن خالد منصورَ بن زيادَ هذا واختصّه ، حتى كان الناس ربّما توسّلوا به في حوائجهم .

وكان من كتّابه يوسف بن سليمان ، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن ، ويحيى بن سليمان ، ومحمد بن أعين ، وعبد الله بن عَبْدَة .

وحُكِي أنّ أصحاب الحوائج كانوا يُكثرون القعود على دُكّانٍ ، على باب يحيى بن خالد ، وكان يحيى إذا رآهم وقف عليهم ، ولقيهم ببشر وطَلاقة ، وأنّه خرج يوماً مبكّراً ، فلم يَرَ منهم أحداً ، فأَنْشد متمثّلاً :

وليس أَخو الحاجاتِ مَنْ بات نائماً ... ولكنْ أخوها من يَبِيت على وَجَلْ

وكان يحيى بن خالد يقول : العجب للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كلّ الإساءة لوجد من يُزَكّيه ، ويشهد بأنّه محسن .

وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل ، فقال في كتابه : «شكري لك على إخراجي ممّا أُحبّ الخروج منه ، شكرُ من نال الدخول فيه بك» .

وطالب يحيى أبا عُبيد الله معاويةَ بن عبد الله وزير المهدي بالدخول في جملته ، ومشاركته في نعمته ، وقلّده ديوان الرسائل ، وديوان الخاتمَ ، وديوان الزّمام ، فأبى

ذلك ، وقال : قد كَبِرت سِنّي ، ولا حاجة لي إلى العمل ، فتركه وقال : هذا يظنّ أنّ الأمور لا تتمّ إلاّ به !

وفي يحيى يقول مروان بن أبي حفصة :

إذَا بلَّغَتْنا العِيسُ يَحيى بنَ خالدٍ أَخَذْنا بحبل اليُسرِ وانقطَع العُسرُ
سَمَتْ نحوَه الأبصارُ مِنّا ودُونَهُ مَفَاوِزُ تَغْتال النِّياقَ بها السَّفرُ
فإن نَشْكرِ النُّعْمى التي عَمّنا بها فَحُقٌّ علينا ما بقينا له الشُّكرُ

وفيه يقول أبو قابوس عمر بن سليمان الحِيرِيّ :

رأيت يحيى ، أتمّ اللهُ نعمتَهُ ، عليه يأتي الذي لم يَأْتِهِ أَحَدُ
ينسى الذي كان من معروفِهِ أبداً إلى الرجالِ ولا يَنْسَى الذي يَعِدُ

وكان يحيى يقول لولده : لا بدّ لكم من كتّاب وعمّال وأعوان ، فاستعينوا بالأشراف ، وإيّاكم وسِفْلَةَ الناس ، فإن النعمة على الأشراف أبقى ، وهي بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم أكثر .

وكان ليحيى ابن يقال له إبراهيم ، وكان جميلاً ، وكان يقال له لجماله دينار آل بَرْمك ، فتوفي وسنه تسعَ عشرة سنة ، ووجِد عليه يحيى ، واغتمّ به .

– II –

ترجمته من كتاب

«خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك»[1]

اسمه هرون بن محمد المهدي ويُكنى أبا جعفر وأُمّه الخيزُران . وُلد بالرّي لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة تسع وأربعين ومائة في خلافة المنصور ، وقيل وُلد في أوّل يوم المحرم سنة خمسين ومائة . وكان الفضل بن يحيى البرمكيّ وُلد قبله بسبعة أيّام ، فجُعلت أُمّ الفضل ظئراً له ، وهي زينب بنت منير ، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل . وكان الرشيد أبيض طويلاً سميناً جميلاً جعداً ، ولم يمت حتى وخطه الشيب . قال الصّولي : وكان به حَوَل في فرد عين لا يبين إلاّ لمن تأمّله . وسمع الحديث من مالك بن أنس وإبراهيم بن سعد الزهري ، وأكثر حديثه عن آبائه . روى عنه أبو يوسف القاضي والشافعي . وكان يحبّ الحديث وأهله .

تزوّج زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، وكنيتها أُمّ جعفر . وأعرس بها في سنة خمس وستّين ومائة في خلافة أبيه المهدي ببغداد فولدت الأمين . وتزوّج أَمَةَ العزيز أُمّ ولدِ موسى أَخيه . وتزوّج عبّاسة بنت سليمان بن المنصور . ومات الرشيد عن أربع ضرائر : أم جعفر وأم محمد وعبّاسة والعثمانيّة . وأولاده محمد الأكبر ، وهو الأمين أمّه زبيدة . وعبد الله المأمون ، أمّه أم ولد يقال لها مراجل ، والقاسم ، وأمّه أم ولد يقال لها قصف ، ومحمّد المعتصم ، وأمّه أم ولد يقال لها ماردة . وكان له أولاد غير هؤلاء ، وكان له عدّة بنات .

بُويع الرشيد بالخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه الهادي . أخرجه هرثمة بن

---

1 خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك ، ص 107 وما بعدها .

أعين ليلاً وأقعده للمبايعة ، وكانت ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة .

ولما جلس للخلافة سلم عليه بالخلافة عمّه سليمان بن المنصور وعمّ أبيه العبّاس ابن محمد وعمّ جدّه المنصور عبد الصمد بن علي . واستدعى الرشيد يحيى بن خالد بن برمك ، وكان قد حبسه الهادي لميله إلى هرون وعزم على قتله وقتل هرون ، فحضر يحيى فقلّده الوزارة . وكانت الخيزران هي الناظرة في الأُمور ، وكان يحيى يُصدر الأُمور إلى هرون عن رأيها . وكان الرشيد يقول ليحيى بن خالد : يا أبي .

قال الصولي : كان يحيى يساير الرشيد يوماً فقام رجل فقال : يا أمير المؤمنين عطبت دابتي . فقال : يُعطى خمسمائة درهم . فغمزه يحيى . فلمّا نزل قال : يا أبتاه أومأت إليّ بشيء وقت ما أمرت بالدراهم فما هو ؟ فقال : مثلك لا يَجري هذا المقدار على لسانه ، إنّما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، عشرة آلاف ألف . قال : فإذا سُئلت مثل هذا كيف أقول ؟ فقال : تقول : تُشترى له دابة ، يُفعل به فعل نظرائه . ولمّا بُويع الرشيد خرج فوصل إلى كرسيّ الجسر ، فدعا الغوّاصين ، فقال لهم : كان المهديّ أهدى لي خاتماً شراؤه مائة ألف درهم . فدخلت عليّ أُمّي وهو في يدي . فلمّا انصرفت لحقني سليمان الأسود فقال : يأمرك أمير المؤمنين أن تعطيني الخاتم . فرميت به في هذا الموضع . فغاصوا فأخرجوه ، فسرّ به غاية السرور . وكان الهادي قد خلع الرشيد وبايع لابنه جعفر . وكان خزيمة بن خازم في خمسة آلاف من مواليه عليهم السلاح تلك الليلة . فهجم ، فأخذ جعفر من فراشه وقال : لأضربَنَّ عنقك أو تخلعها . فلمّا كان من الغد ، ركب الناس إلى باب جعفر . فأتى به خزيمة ، فأقامه على الباب في العلوّ ، والأبواب مغلقة ، فنادى جعفر : يا معشر الناس ، من كان في عنقه لي بيعة فقد جعلته في حِلٍّ منها ، والخلافة لعمّي هرون الرشيد ، لا حَقَّ لي فيها .

وعن عمرو بن بحر ، قال : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جِدّ وهَزْل : وزراؤه البرامكة لم يُرَ مثلهم سخاءً وشرفاً . وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمه عم أبيه العبّاس بن محمد

صاحب العباسيّة ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنْبه الناس وأشدّهم تعاظماً ، ومغنّيه إبراهيم الموصليّ أوحد عصره ، وعَوّاده زلزل ، وزوجته أمّ جعفر أرغب الناس في الخير وأسرعهم إلى كلّ بِرّ ومعروف وهي التي أدخلت الماء للحرم بعد امتناعه ، إلى أشياء من المعروف . ومن كبار قوّاده المعلّى وليّ البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين وغير ذلك وإليه ينسب نهر المعلّى .

وكان الرشيد يحبّ العلم ويؤثره ويستفيد . فنال علماً كثيراً ، وله فطنةٌ قويّة . قال الأصمعي : دخلت على هرون الرشيد ، ومجلسه حافل ، فقال : يا أصمعي ، ما أغفلك عنّا وأجفاك لحضرتنا ؟ فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما لاقتني البلاد بعدك حتى أتيتك . فأمرني بالجلوس فجلست . فلمّا تفرّق الناس ، فلم يبق غيري وغيره ومَن بين يديه من الغلمان ، قال : يا أبا سعيد ما معنى قولك : ما لاقتني ؟ قلت ما أمسكتني ، وأنشدته :

كَفّاكَ : كَفٌّ لا تُليقُ درهماً ، جُوداً ، وأُخرى تَجْنِ بالسيفِ الدِّما

فقال : أحسنت ؛ هكذا وَقِّرنا في الملا وعلِّمنا في الخلاء ، وأمر له بخمسة آلاف درهم .

قال الأصمعي تأخّرت عن الرشيد ثم جئته ، فقال : كيف كنت يا أصمعي ؟ قلت : بتّ والله ، بليلة النابغة . فقال : إنا لله ؛ وأنشد :

فَبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقش ، في أنيابها السُّمُّ ناقعُ

فعجبتُ من ذكائه وفطنته لِما قصدت .

وقال سعيد بن مسلم : كان الرشيد فهمُهُ فوق فهم العلماء : أنشده العمانيّ في وصف فرس :

كأنّ أذنيه ، إذا تشَوَّفا ، قادمةً أو قلماً مُحَرَّفا

فقال الرشيد : دَعْ كأنّ وقل تَخالُ أذنيه . وكان الرشيد يتواضع لأهل العلم والدين .

قال أبو معاوية الضرير : أكلتُ مع الرشيد طعاماً يوماً من الأيّام . فصَبّ على يديّ

رجلٌ لا أعرفه . فقال هرون : يا أبا معاوية ، تدري من يَصبّ على يدك ؟ قلت : لا . قال : أنا . فقلتُ : أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إجلالاً للعلم . فقلت : أكرمك الله . وأجَلَّك ، يا أمير المؤمنين . وقال أبو معاوية الضرير : حدّثتُ الرشيد بهذا الحديث ، يعني قول النبي ﷺ : «وددتُ أنّي أُقتلُ في سبيل الله ، ثم أحيا ثم أُقتلُ» . فبكى هرون حتى انتحب . ثم قال : يا أبا معاوية ، ترى لي أن أغزو ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، مكانُك في الإسلام أكثر ، ومقامُك أعظم ، ولكنْ تُرسل الجيوش . قال أبو معاوية : وما ذكرتُ النبي ﷺ إلاّ قال : صلّى الله على سيّدي وسلّم .

قال أبو معاوية : دخلتُ على هرون الرشيد . فقال لي : يا أبا معاوية ، هَمَمْتُ أنّه من يُثبتُ خلافةَ عليّ بن أبي طالب فعلتُ به وفعلتُ به . فسكتّ . فقال لي : تكلّم . فقلتُ إن أذنتَ لي تكلّمتُ . فقال : تكلّم . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قالت تيم : منّا خليفة رسول الله . وقالت عديّ : منّا خليفة خليفة رسول الله . وقالت بنو أميّة منّا خليفة الخلفاء . فأين حظّكم ، يا بني هاشم من الخلافة ؟ والله ما حظّكم منها إلاّ عليّ ابن أبي طالب . فقال : واللهِ يا أبا معاوية ، لا يبلغني أنّ أحداً لم يُثبتْ خلافة عليّ بن أبي طالب ، إلاّ فعلتُ به كذا وكذا .

وقال ابن البَرّاء : كان الرشيد يحجّ عاماً ويغزو عاماً . وحجّ بالناس ستّ مرّات . فقال فيه داود بن رزين :

بِهرونَ لاحَ البَدْرُ في كلّ ظُلمةٍ وقامَ بِهِ ، في عدلِ سيرتِهِ ، النَّهجُ
إمـامٌ بـذاتِ الله أصبحَ شُغْلُهُ وأكثرُ مـا يُعنى بـه الغزوُ والحَجُّ
تَضيقُ عُيونُ الناس عنْ نُورِ وجهِهِ ، إذا مـا بـدا للناسِ منظرُهُ البَلْجُ
وإنَّ أمينَ اللهِ هرونَ بالنَّدى يُنيلُ الذي يَرجوهُ أضعافَ ما يَرجو

وقال أبو مُعلّى الكِلابيّ :

فَمَنْ يَطلبْ لِقاءكَ أو يُرِدْهُ ، فَبِالحَرَمَـينِ ، أو أقصـى الثُّغورِ
ففـي أرضِ العَـدُوِّ عَلَى طِمِرٍّ وفي أرضِ الثَّنِيَّـةِ فـوقَ كُورِ

وأَلَحّ عليه في بعض غزواته الثّلجُ . فقال له بعض أصحابه : أما ترى يا أمير

المؤمنين ما نحن فيه من الجهد . والرّعيّةُ وادعة ؟ فقال : اسكتْ ، على الرّعيّةِ ، المَنامُ ، وعَلينا القيام . ولا بُدّ للراعي من حراسة رعيّته . فقال بعض الشعراء في ذلك :

غَضِبَتْ لِغَضْبَتِكَ القواطعُ والقَنَا لما نَهَضْـتَ لِنُصْرَةِ الإسلامِ
ناموا إلى كَنَفٍ ، لِعدلِكَ ، واسعٍ وسهرتَ تَحرُسُ غفلـةَ النُّوّامِ

وكان الرشيدُ إذا حجّ يحجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم . وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة بالنفقة التامّة والكسوة الظاهرة . وكان يصلّي كلّ يوم مائة ركعة ، إلى أن فارق الدنيا ، إلاّ أن تَعرض له علّة . وكان يتصدّق في كلّ يومٍ من صلب ماله بألف درهم بقدر زكاته . وكان يقتفي أخلاق المنصور ويطلب العمل بها . وكان لا يضيع عنده إحسان محسن . وكان يميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المِراءَ في الدين ، ويحبّ الشعراء والشعر والمدح ، لا سيّما من شاعر فصيح .

ودخل عليه يوماً مروان بن أبي حفصة فأنشده :

وسُرَّتْ بهرونَ الثّغورُ وأُحكمتْ بـه مِـن أُمورِ المسلمينَ المَرائِرُ
وما انفَكّ معقوداً بنصرٍ لِواؤُهُ لـه عسكرٌ عنه تَشَظّى العساكرُ
فكَمْ مِلكٍ في الرّومِ أعطاهُ جزيةً على الرُّغمِ ، قسراً عن يدٍ ، وهْوَ صاغرُ
إلى وجهِهِ تسمو العيونُ وما سَمَتْ إلى مثلِ هرونَ العيونُ النواظرُ
ترى حوله الأملاكَ من آلِ هاشمٍ كما حَفَّتِ البدرَ النُّجومُ الزواهرُ
إذا فقـدَ الناسُ الغمامَ تتابعتْ عليهمْ بِكَفَّيكَ الغُيوثُ المواطرُ
على ثقـةٍ ألقت إليـك أمورَهـا قُريشٌ ، كَما ألقى عصاهُ المُسافرُ
فطـوراً يَهُزّونَ القواطعَ والقَنا وطوراً بأيديهِمْ تُهَزُّ المَخاصِرُ
لِيَهنِكُمُ المُلْكُ الذي أصبحتْ بكُمْ أسِرَّتُـهُ مختالـةً والمنابـرُ
أبوكَ وَلِيُّ المُصْطَفى ، دونَ هاشمٍ وإنْ رَغِمَتْ من حاسِدِيكَ المَناخِرُ

فأعطاهُ عشرةَ آلاف دينار ، وكساه ، وأمر له بعشرةٍ من رقيق الروم وحمله على برذون .

وللرشيد أشعارٌ حِسان . منها قولُهُ في ثلاث جَوارٍ :

مَلَكَ الثّلاثُ الغانياتُ عِناني ... وحَلَلْنَ من قلبي بكلّ مكانِ
ما لي تُطاوعني البَريَّةُ كُلُّها ... وأُطيعُهُنَّ وهُنَّ في عصياني ؟
ما ذاكَ إلاّ أنَّ سُلطانَ الهَوَى ، ... وبِهِ قَوينَ ، أعَزُّ مِنْ سُلطاني

وكان الرشيدُ طيّبُ النفس ، فَكِهاً ، يُحبّ المزاح . وكان ، مع حبّه اللهو ، كثيرَ البكاء من خشية الله ، مُحِبّاً للمواعظ . قد وعظه الفُضيل بن عياض وابن السمّاك والعمري وغيرهم .

قال منصور بنُ عَمّار : ما رأيتُ أغزرَ دمعاً ، عند الذّكر ، من ثلاثة : الفُضيل بن عياض ، وأبو عبد الرحمن الزاهد ، وهرون الرشيد . وكان نقش خاتمه (كن من الله على حذر) . وكان طلقَ الوجهِ ، حسنَ الرَّأي والتدبير ، لَيِّنَ الجانبِ ، وكان يجلسُ مع النَّاسِ على الطعام ، ويبذُلُ الصِّلاتِ ، ويزور الصالحين . وقال يوماً لمروانَ بن أبي حفصة : صِفني بما فِيَّ . فقال : أعفِني يا أمير المؤمنين . فقال : لا بدّ . فقال : والله ، إنّك من أعدَلِ الناس وأجودِ الناس وأكسَلِ الناس . فقال : كيف تقول ذلك ، وقد صيّرتُ حركاتي غزواً وجهاداً ؟ فقال ما كَسَلُكَ من هذا ، ولكن أن تأمر لي بألف دينار وما تفعل ، وما أرى يمنعك إلاّ الكسل . فضحك وأمر له بخمسمائة دينار . فقال : وأعجب من هذا أنّك أعييت وحططتَ في نصف الطريق .

ذكر أولاده

وهم : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون ، ومحمد المعتصم . وكلّهم ولّوا الخلافة . وأبو سليمان ، وأبو علي محمد ، وأبو أيوب محمد ، وكان فاضلاً وله شعر حسن ، وأبو أحمد محمد ، وأبو عيسى محمد ، وأبو يعقوب محمد ، وأبو أحمد محمد ، والسينيّ الزاهد الذي يُزار ، وصالح وولاّه أخوه المأمون البصرة وحجّ بالناس ، والقاسم ، وأبو محمد ، وأروى ، وأمّ سلمة ، وخديجة وأمّ جعفر ، وأمّ القاسم ، وريطة ، وحمدونة ، وسكينة ، وأمّ محمد ، وأمّ علي ، وأم حسن ، وأم عَزّام ، وهي زوجة محمد بن علي بن

موسى الرضى ، وأم أبيها ، وأم الفضل ، وأم حبيب ، ونادرة ، وفاطمة ، وغالية ، وأبو إسحق وحجّ وولاّه أخوه المأمون الشام ، وعليّ وحجَّ بالناس . وكلّ واحدة من بناته تعدّ عشرة من الخلفاء ، وكلّ لها محرم : هرون أبوها ، والهادي عمّها ، والمهديّ جدّها ، والمنصور جَدّ أبيها ، والسفّاح عمّ جدّها ، والأمين والمأمون والمعتصم إخوتها ، والواثق والمتوكّل أبناء أخيها .

ذكر قضاته وحجابه

وَزَرَ له يحيى بن خالد البرمكي وإبناه الفضل وجعفر . وعزلهم واستوزر الفضل بن الربيع آخر أيّامه . واستقضى أبا يوسف يعقوب صاحب أبي حنيفة ، ثم الواقديّ . واستحجب بشّار بن ميمون مولاه ومحمد بن خالد بن برمك .

وأتاه يوماً رجلٌ من الزُّهّادِ فقال : يا هرون ، إتّقِ الله . فأخذه ، فَخَلا به ، وقال : يا هذا ، أنا شَرٌّ أَم فرعون ؟ قال : بل فرعون . قال : فأنت خيرٌ أم موسى ؟ قال : موسى . قال : أفما تعلم أنّ الله تعالى ، لمّا بعثه وأخاه قال : فقولا له قولاً ليّناً . وأنت قد جبهتَني بأغلظِ الألفاظ ؟ فما بأدبِ الله تَأَدّبتَ ، ولا بأخلاقِ الصّالحين أخذت . قال : أخطأتُ وأنا أستغفر الله . قال غَفَرَ الله لك . وأمر له بعشرين ألف درهم فأبى أن يأخذها وانصرف .

وفي هذه السنة مات الربيعُ بن يونس بن محمد بن فروة . واسم أبي فروة كيسان مولى أبي جعفر المنصور . قال الصولي : لم يزل الربيع وزيرَ المنصور حتى توفّي المنصور بمكّة ، وأخذ الربيع للمهدي البيعة . فشكر المهدي له ذلك وجعله حاجبه ولم يستوزرْه . وقد ذكروا أنّهم لم يَرَوا في الحجابة أعرف من الربيع ومن ولده الفضل : حجب لهرون الرشيد ولمحمد الأمين ، وابنُه عبّاس بن الفضل حجب للأمين ؛ فعبّاس حاجب بن حاجب بن حاجب . وقد مدحهم أبو نواس فقال :

سادَ الملوكَ ثلاثةٌ ما منهمُ ... إن حصّلوا إلاّ أغَرُّ قَريعُ
عَبّاس عَبّاسٌ إذا احتدَمَ الوَغَى ... والفَضلُ فَضْلٌ والرَّبيعُ ربيعُ

- III -

ترجمته من «مقدمة ابن خلدون»[1]

ومن الحكايات المدخولة للمؤرّخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصّة العبّاسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ، وأنّه لِكَلَفِهِ بمكانهما من معاقرته إيّاهما الخمر ، أذِن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وأنّ العبّاسة تَحيّلت عليه في التماس الخلوة به ، لما شغفها من حبّه حتى واقعها ، زعموا في حالة سكر ، فحملت ووُشي بذلك للرشيد ، فاستُغضب .

وهيهات ذلك من منصب العبّاسة في دينها وأبويها وجلالها ، وأنها بنت عبد الله ابن عبّاس ليس بينها وبينه إلاّ أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملّة من بعده . والعبّاسة بنت محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ، بن عبد الله ترجمان القرآن ، بن العبّاس عمّ النبيّ ﷺ ، ابنة خليفة أخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبويّة وصحبة الرسول وعمومته وإمامة الملّة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها ، قريبة عهد ببداوة العُرُوبيّة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش . فأين يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فُقد من بيتها ، أو كيف تَلْحُمُ نسبَها بجعفر بن يحيى وتدنّس شرفها العربي بمولى من موالي العجم ، بمَلَكة جدّه من الفرس أو بولاء جدّها من عمومة الرسول وأشراف قريش . وغايته أن جذبت دولتهم بضَبْعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقّتهم إلى منازل الأشراف . وكيف يسوغ من الرشيد أن يُصْهِرَ إلى موالي الأعاجم على بُعد همته ، وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمّل في ذلك نظر المنصف ، وقاس العبّاسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه ، لاستنكف لها

1 مقدمة ابن خلدون ، ج1 ص 229 وما بعدها .

عن مثله مع مولى من موالي دولتها ، وفي سلطان قومها ، واستنكره . ولَجَّ في تكذيبه . وأين قدر العبّاسة والرشيد من الناس ؟ .

وإنّما نكبَ البَرامكةَ ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرّف في أمور ملكه . فعظمت آثارهم وبَعُد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخِطَطَها بالرؤساء من وُلدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . ويقال إنّه كان بدار الرشيد من وُلد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون وليَّ عهدٍ وخليفةً ، حتى شبّ في حجره ودرج من عشّه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبتِ . فتوجّه الإيثار من السلطان إليهم وعظمت الدالَّةُ منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقُصِرَت عليهم الآمال ، وتخطّت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء . وسُيِّرت إلى خزائنهم في سبيل التزلّف والاستمالة أموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء ، وطوقوهم المنن ، وكَسَبوا من بيوتات الأشراف المعدَم وفكّوا العاني ، ومُدِحوا بما لم يُمدح به خليفتهم ، وأسْنَوا لعُفاتهم الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك ؛ حتى آسفوا البطانةَ ، وأحقدوا الخاصة ، وأغَصُّوا أهل الولاية ، فكُشِفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبّت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقاربُ السِّعايةِ ، حتى لقد كان بنو قحْطَبة أخوالُ جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم تعطفهم ، لما وقر في نفوسهم من الحسد ، عواطف الرحم ، ولا وزعتهم أواصر القرابة . وقارَن ذلك عند مخدومهم نواشيء الغيرة والاستنكاف من الحَجْرِ والأنفة ، وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالَّةِ ، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة . كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، أخي

محمد المهدي الملقّب بالنفس الزكية الخارج على المنصور . ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطّه ، وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره الطبري ، ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره . فحبسه مدّة ، ثم حملته الدالَّة على تخلية سبيله ، والاستبداد بحلّ عقاله ، حُرْماً لدماء أهل البيت بزعمه ، ودالَّةً على السلطان في حكمه . وسأله الرشيد عنه لما وُشي به إليه ، ففطن ، وقال : أطلقته ؛ فأبدى له وجه الاستحسان وأَسَرَّها في نفسه . فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه ؛ حتى ثُلَّ عرشُهم ، وأُلقيتْ عليهم سماؤهم ، وخُسِفَت الأرض بهم وبدارِهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً للآخِرين أيّامُهم . ومن تأمّل أخبارهم ، واستقصى سِيرَ الدولة وسِيَرَهُم ، وجد ذلك محقَّقَ الأثر ، ممهَّدَ الأسباب .

وانظر ما نقله ابن عبد ربّه في مفاوضة الرشيد عمّ جدّه داود بن علي في شأن نكبتهم ، وما ذكره في باب الشعراء من كتّاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم ، تتفهمْ أنّه إنّما قتلتهم الغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمَن دونه . وكذلك ما تحيّل به أعداؤهم من البطانة فيما دسّوه للمغنين من الشعر احتيالاً على إسماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم ، وهو قوله :

ليت هنداً أنجزَتْنا ما تَعِدْ ... وشَفَتْ أنفسَنا ممّا نَجِدْ
واستَبَدَّت مرَّةً واحِدةً ... إنّما العاجزَ مَنْ لا يستبِدّ

وأنّ الرشيد لمّا سمعها قال : «أي والله إنّي عاجز» ، حتى بعثوا بأمثال هذه كامن غيرته ، وسلّطوا عليهم بأس انتقامه . نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .

وأمّا ما تموّه به الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر ، واقتران سُكره بسكر النَّدْمان ، فحاش لله ما علمنا عليه من سوء . وأين هذا من حال الرشيد وقيامِه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السمَّاكِ والعُمَريِّ ، ومكاتبتِه سفيان الثوري ، وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكّة في طوافه ، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات

الصلوات وشهود الصبح لأوّل وقتها . حكى الطبري وغيره أنّه كان يصلّي في كلّ يوم مائة ركعة نافلة ، وكان يغزو عاماً ويحجّ عاماً . ولقد زجر ابنَ أبي مريم مُضْحِكَه في سمره حين تعرّض له بمثل ذلك في الصلاة لمّا سمعه يقرأ «وما لي لا أعبد الذي فطرني» ، وقال والله ما أدري لِمَ ؟ فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم التفت إليه مُغْضَباً ، وقال : يا ابن أبي مريم في الصلاة أيضاً ؟ ! إيّاك إيّاك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما .

وأيضاً فقد كان من العلم والسذاجة بمكانٍ لقرب عهده من سلفه المنتحلين لذلك ، ولم يكن بينه وبين جدّه أبي جعفر بعيدُ الزمن ، إنّما خلفه غلاماً . وقد كان أبو جعفر بمكانٍ من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها . وهو القائل لمالك حين أشار عليه بتأليف الموطّأ : «يا أبا عبد الله إنّه لم يبق على وجه الأرض أعلمُ منّي ومنك ، وإنّي قد شغلتني الخلافة فضعْ أنت للناس كتاباً ينتفعون به ، تجنب فيه رُخَص ابن عباس ، وشدائد ابن عمر ، ووَطِّئْه للناس توطئة» . قال مالك : «فوالله لقد علّمني التصنيف يومئذٍ» . ولقد أدركه ابنه المهديّ أبو الرشيد هذا وهو يتورّع عن كسوة الجديد لعياله من بيت المال . ودخل عليه يوماً وهو بمجلسه يباشر الخيّاطين في إرقاع الخُلْقان من ثياب عياله ، فاستنكف المهديّ من ذلك ، وقال يا أمير المؤمنين ، عَلَيَّ كسوة العيال عامنا هذا من عطائي ، فقال له لك ذلك ولم يصدّه عنه ، ولا سمح بالإنفاق من أموال المسلمين . فكيف يليق بالرشيد ، على قرب العهد من هذا الخليفة وأُبُوَّتِه ، وما ربي عليه من أمثال هذه السير في أهل بيته ، والتخلّق بها ، أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها ؟ وقد كانت حالة الأشراف من العرب الجاهليّة في اجتناب الخمر معلومة ، ولم يكن الكَرْمُ شجَرَتَهم ، وكان شربها مذمّة عند الكثير منهم ؛ والرشيد وآباؤه كانوا على ثَبَجٍ من اجتناب المذمومات في دينهم ودنياهم ، والتخلّق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب .

وانظر ما نقله الطبري والمسعودي في قصّة جبريل بن بختيشوع الطبيب حين أُحْضِر له السمك في مائدته فحماه عنه ؛ ثم أمر صاحب المائدة بحمله إلى منزله ؛ وفطن الرشيد وارتاب به ، ودسّ خادمه حتى عاينه يتناوله ؛ فأعدّ ابن بختيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أقداح : خلط إحداها باللحم المعالج بالتوابل

والبقول والبوارد والحلوى ؛ وصبَّ على الثانية ماء مثلّجاً ؛ وعلى الثالثة خمراً صرفاً . وقال في الأوّل والثاني : هذا طعام أمير المؤمنين ، إن خلط السمك بغيره أو لم يخلطه ؛ وقال في الثالث : هذا طعام ابن بختيشوع ، ودفعها إلى صاحب المائدة . حتى إذا انتبه الرشيد ، وأحضره للتوبيخ ، أحضر الأقداح الثلاث ، فوجد صاحب الخمر قد اختلط وامّاع وتفتّت ، ووجد الآخَرَيْن قد فسدا وتغيّرت رائحتهما . فكانت له في ذلك معذرة . وتبيّن من ذلك أنّ حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته . ولقد ثبت عنه أنّه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع .

وإنّما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ؛ وفتاويهم فيها معروفة ؛ وأمّا الخمر الصِّرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها ، ولا تقليدِهِ الأخبار الواهية فيها . فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرماً من أكبر الكبائر عند أهل الملّة .

- IV -

ترجمته من كتاب العقد الفريد[1]

ثم بُويع أخوه أبو محمد هارون الرشيد في اليوم الذي تُوفّي فيه أخوه يومَ الجمعة لأربعَ عشرةَ ليلةً خلت من شهر ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة . وفي هذه الليلة وُلد عبد الله المأمون . ولم يكن في سائر الزمان ليلةٌ وُلد فيها خليفة وتُوفّي فيها خليفة وقام فيها خليفة غيرها . وكان مولد الرشيد في المُحرم سنة ثمان وأربعين ومائة . وتُوفِّي في جُمادى الأولى سنةَ ثلاث وتسعين ومائة ودُفنَ بطُوس . وصلّى عليهِ ابنُه صالح . فكانت خلافتُه ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستّةَ عشر يوماً . وكانت سنُّه ستّاً وأربعين سنة وخمسة أشهر . ولّما أفضتْ إليه الخلافةُ سلّم عليه عمُّه سليمان بن المَنصور ، والعبَّاس بن محمد عمُّ أبيه : وعبدُ الصمد بن عليّ عمّ جدّه ، فعبدُ الصمد عمُّ العبّاس ، والعبّاس عمُّ سليمان ، وسليمانُ عمُّ هارون .

وكان الرشيد أبيضَ جسيماً طويلاً جميلاً . قد وخَطه الشيب . نقش خاتمه «لا إله إلاّ الله» ، وخاتم آخر «كن من الله على حذر» . وتزوَّج زُبيدة ، واسمُها أَمَة العزيز ، وتُكنى أُمَّ الواحد ، وزُبيدة لقب لها . وهي ابنة جعفر بن المَنصور ، أولدها محمداً الأمين ؛ ثم مراجل ، فأولدها عبد الله المأمون ؛ ومماردة ، أولدها محمداً المعتصم : ونادر ، ولدت له صالحاً ؛ وشجا ، ولدت له خديجة ولبابة ؛ وسريرة ، ولدت محمداً ؛ وبَربريّة ، ولدت له أبا عيسى ، ثم القاسم ، وهو المؤتمن ، وسُكينة ، وحث ، فولدت له إسحاق وأبا العبّاس .

---

1 العقد الفريد ، ص 117 وما بعدها .

- V -
ترجمته من كتاب
«الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك»[1]

هارون الرشيد

ابن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس – رضي الله عنهم – .

بُويع بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ليلة الجمعة النصف من ربيع الأوّل – وقيل لأربع عشرة خلت منه – سنة سبعين ومائة ، فأقام في الخلافة ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوماً ، يغزو سنة ويحجّ سنة ، فحجّ تسع حجج ؛ ولم (72ب) يحجّ بعده خليفة من بغداد .

فأوّل ما حجّ وهو خليفة سنة سبعين وقسَّم في أهل الحرمين عطاءً كثيراً ؛ وقيل إنّه غزا أيضاً فيها بنفسه .

وحَجَّ ثانياً في سنة ثلاث وسبعين ، وأحرم من بغداد .

وحَجَّ بالناس سنة أربع وسبعين ، وقسَّم في الناس مالاً كثيراً .

ثم حَجَّ في سنة سبع وسبعين ؛ وخرج عليه الوليد بن طريف الشاري – أحد الخوارج من بني تغلب – بنصيبين ، وأخذ أرمينية ، وحصر خِلاط ، وعاث في بلاد الجزيرة ، فسيَّر إليه الرشيدُ يزيدَ بن مزيد بن زائدة الشيباني – وهو ابن أخي معن بن زائدة – على العسكر ، فلم يزل يحاربه حتى قتله ؛ وفيه تقول أخته ليلى بنت طريف ترثيه بالأبيات المشهورة التي منها قولها :

---

1 الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك ، ص 47 وما بعدها .

فيا شَجَرَ الخابورِ مَا لَكَ مُورِقاً   كأَنَّكَ لم تجزعْ على ابن طَرِيفِ

الأبيات

فاعتمر الرشيدُ في شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة . وشكر الله تعالى على قتل الوليد ، وعاد إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحجّ ، فحجّ بالناس ، ومشى من مكّة إلى منى إلى عرفات ، وشهد المشاعر كلّها ماشياً ، ورجع على طريق البصرة ؛ ولا يُعرف من ملوك الدنيا مَلِكٌ حجّ ماشياً سوى ملكين : هرقل بن هرقل بن انتونيس – من أهل صلوقيا – حجَّ من حمص إلى إيليا – التي هي بيت المقدس – ماشياً ، ووافاه كتابُ رسول الله – ﷺ – في سفرته هذه يدعوه إلى الإسلام – كما وقع في الصحيحين وغيرهما – ؛ والملك الثاني هارون الرشيد .

وذكر محمد بن حزم في كتاب «جمهرة الأنساب» أنّ موسى الهادي بن محمد المهديّ كان له أمّ ولد تسمّى «أَمَةَ العزيز» ، تزوّجها أخوه هارون من بعده ، وهي التي كان حلف الرشيد لأخيه بالمشي إلى الكعبة أن لا يتزوّجها ؛ فلمّا مات الهادي تزوّجها ، ومشى راجلاً من بغداد إلى مكّة – وهو خليفة – فولدت له عليّاً ، وكان أقبح الناس صورة .

ولّما دخل الرشيد مكّة وهو خليفة كان يُطرحُ له الرملُ حول البيت ومقدار عرضه ذراعان ، ويُرَشُّ بالماء ؛ ويقوم الحرس بينه وبين الناس ، وكان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً ، ولا يُطيق ذلك أحد ممّن كان معه ؛ وكان إذا سعى شَمَّر إزاره وجعل له ذنبين ، فكان يفتن من يراه .

وكذلك حَجَّتْ زبيدة أُمّ جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر – زوج هارون الرشيد – ماشية أيضاً ، وكانت حجّة عظيمة ، غير أنّ ذكرها ليس من شرط هذا الجزء ، فلذلك تركت ذكرها .

وحَجَّ الرشيد أيضاً بالناس في سنة إحدى وثمانين ومائة .

وحَجَّ في سنة ستّ وثمانين ومائة من الأنبار ، ومعه ابناه عبد الله المأمون ومحمد

الأمين ، فبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاث أعطيات ، أُعطى هو عطاء ، وكلٌّ من ولديه عطاءً ، وسار إلى مكّة فأعطى أهلها ألفَ ألفَ دينار وخمسين ألف دينار ؛ وكان قد ولّى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ، وجعله وليَّ عهده ؛ وضم إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق ، وعهد إليه بعد الأمين ؛ ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، ولقّبه المؤتمن ، وضمَّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم ؛ فجمع بمكّة القضاة والفقهاء ، وكتب كتاباً أشهدهم فيه على الأمين بالوفاء للمأمون وكتب كتاباً أشهدهم فيه على المأمون بالوفاء للأمين ، وعلّق الكتابين بالكعبة ؛ وقد ذكرت خبر ذلك مبسوطاً في ترجمة المأمون من «تاريخ مصر الكبير المُقفّى» ، فإنّه قدم مصر في سنة سبع عشرة ومائتين ؛ وفي عَوْدِ الرشيد من هذه الحجّة نكب البرامكة النكبة المشهورة بالأنبار سلخ المحرم سنة سبع وثمانين ومائة .

ثمّ حَجَّ الرشيد سنة ثمان وثمانين راجلاً ، وقَسَّمَ أموالاً كثيرة ؛ وهي آخر حجّة حَجَّها .

وكان إذا حَجَّ حَجَّ معه مائةٌ من الفقهاء وأبنائهم ، فإذا لم يحجّ أَحَجَّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الطاهرة الفاخرة ؛ ولم يُرَ خليفةٌ قبله أكثرَ عطاءً منه ؛ وقيل لوقيل للدنيا : متى أيام شبابك ؛ لقالت : أيّام هارون الرشيد .

ومن فضائل الرشيد ما أخرجه الحافظ أبو نعيم في «كتاب الحلية» : «حدثنا سليمان بن أحمد – يعني الطبراني – ، حدثنا محمد بن زكريا الغلابي ، حدثنا أبو عمر الحرميّ النحويّ ، حدثنا الفضل بن الربيع ، قال : حَجَّ أمير المؤمنين – يعني هارون الرشيد – فأتاني ، فخرجتُ مسرعاً ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليَّ أتيتُك ، فقال : ويحك ، قد جالَ في نفسي شيء ، فانظر لي رجلاً أسأله ، فقلت : ههنا سفيان ابن عُيَيْنَة ؛ فقال : إمض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعتُ البابَ ؛ فقال : مَنْ ذا ؟ قلتُ : أَجِبْ أمير المؤمنين . فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليَّ أتيتُك ؛ فقال لـه : خذ لما جئناك له – رحمك الله – فحدَّثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دين ؟ قال : نعم ، قال : أبا عبّاس ، اقضِ دينه .

فلمّا خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبُك . انظر لي رجلاً أسأله ؛ قلت : ههنا عبد الرزّاق بن همّام ، قال : إمض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعتُ الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليَّ أتيتك ، فقال : خذ لما جئناك له فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دَيْنٌ ؟ قال : نعم ، قال : أبا العبّاس ، اقضِ دينَه .

فلمّا خرجنا ، قال : ما أغنى عنّي صاحبك شيئاً ، انظر لي رجلاً أسأله ، قلت : ههنا الفُضَيْل بن عياض ؛ قال : إمضِ بنا إليه ، فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلّي ، يتلو آية من القرآن يردّدها ، فقال : اقرع الباب ، فقرعتُ الباب ؛ فقال : من هذا ؟ قلتُ : أجب أمير المؤمنين ، قال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ! أما عليك طاعة ؟ أليس قد رُوي عن النبي - ﷺ - أنّه قال : «ليس للمؤمن أن يذلَّ نفسه» ؛ فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة ، فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه ، فقال : يا لها من كفّ ! ما ألينها إن نجتْ غداً من عذاب الله عزّ وجلّ ؛ فقلت في نفسي : ليكلّمنَّه الليلة بكلام من قلب تقيّ ؛ فقال له : خذ لما جئناك له - رحمك الله - ؛ فقال :

إنّ عمر بن عبد العزيز لّما ولي الخلافة دعا سالمَ بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظي ، ورجاء بن حَيْوَة ، فقال لهم : إنّي قد ابتليتُ بهذا البلاء فأشيروا عليَّ ، فَعَدَّ الخلافةَ بلاءً ، وعددتَها أنت وأصحابُك نعمةً ؛ فقال له سالم بن عبد الله ، إن أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموت ؛ وقال له محمد بن كعب : إن أردتَ النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً ، فوقّر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنّن على ولدك ؛ وقال له رجاء بن حَيْوَه : إن أردتَ النجاة من عذاب الله تعالى فأحبَّ للمسلمين ما تحبُّ لنفسك ، واكره لهم ما تكرهُ لنفسك ، ثم مت إذا شئت ، وإنّي أقول لك بأنّي أخاف عليك أشدّ الخوف يوم تَزِلُّ فيه الأقدام ، فهل معك - رحمك الله - مثل هذا ، أو من يشير عليك بمثل هذا ؟

فبكى هارون بكاءً شديداً حتى غُشي عليه ؛ فقلتُ له : ارفق بأمير المؤمنين . قال : يا ابن الربيع ، تقتله أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ؟

ثم أفاق هارون فقال له : زدني - رحمك الله - ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، بلغني أنّ عاملاً لعمر بن عبد العزيز شُكي إليه ، فكتب إليه عمر : «يا ابن أخي ، أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد ، وإيّاك أن ينصرف بك من عند الله إلى عذاب الله ، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء» ؛ فلمّا قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن العزيز ، فقال له : ما أقدمك ؟ فقال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله .

فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال له : زدني - رحمك الله - ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ العبّاس - عمّ المصطفى ﷺ - قال : «يا رسول الله ، أمِّرني على إمارة» ، فقال له النبي - ﷺ - : «إنّ الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل» .

فبكى هارون بكاءً شديداً ، وقال : زدني - رحمك الله - ؛ قال : يا حسنَ الوجه ، أنت الذي يسألك الله - عزّ وجلّ - عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار ، فإيّاك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غشّ لأحد من رعيّتك ، فإنّ النبيّ - ﷺ - قال : «من أصبح لهم غاشّاً لم يرح رائحة الجنّة» .

فبكى هارون ، وقال له : عليك دين ؟ قال : نعم ، دَيْنٌ لربّي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن لم أُلهم حجّتي ؛ قال : إنّما أعني دينَ العباد ؛ قال : إنّ ربِّي - عزَّ وجلَّ - لم يأمرني بهذا ، وإنّما أمرني أن أصدقَ وعده وأطيع أمره ، فقال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ ؛ ما أُرِيدُ مِنهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينِ﴾ ؛ فقال له : هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك ، وتقوَّ بها على عبادتك ؛ فقال : سبحان الله ، أنا أدلّك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا ؟ سلَّمك الله ووفَّقك .

ثم صمتَ فلم يكلّمنا ؛ فخرجنا من عنده ؛ فلمّا صرنا على الباب قال هارون : أبا

عبّاس ، إذا دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا ، هذا سيِّدُ المسلمين .

فدخلتْ عليه امرأة من نسائه فقالت : «يا هذا ، قد ترى ما نحن فيه من ضيق ، فلو قبلتَ هذا المال فتفرّجنا به ؟» فقال لها : «مَثَلي ومَثَلكم كمثَل قومٍ كان لهم بعير يأكلون من كسبه ، فلمّا كبر نحروه فأكلوا لحمه» ؛ فلمّا سمع هارون الرشيد هذا الكلام قال : «ندخل فعسى أن يقبل المال» ، فلمّا عِلم الفُضَيْل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة ، فجاء هارون فجلس إلى جنبه ، فجعل يكلّمه فلا يجيبه ، فبينا نحن كذلك إذ خرجت جاريةٌ سوداء فقالت : «يا هذا ، قد آذيت الشيخ منذُ الليلة ، فانصرف رحمك الله» ؛ فانصرفنا .

حدثنا إبراهيم بن عبد الله ، حدثنا محمد بن إسحق قال : حدّثني إسماعيل بن عبد الله أبو النضر ، حدثنا يحيى بن يوسف الزَمّي ، عن الفضيل بن عياض – رحمه الله – قال : «لمّا دخل عليّ هارون أمير المؤمنين ، قال : أيكم هو ؟ فأشاروا إلى أمير المؤمنين ؛ فقال : أنت هو يا حسنَ الوجه ؛ لقد كُلِّفتَ أمراً عظيماً ، إنّي ما رأيت أحداً أحسن وجهاً منك ، فإن قدرت أن لا تسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار فافعل ؛ فقال لي عظني ، فقلت : ماذا أعظك ؟ هذا كتاب الله تعالى بين الدفّتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه ، وماذا عمل بمن عصاه ؛ وقال : إنّي رأيت الناس يُعرَضون على النار عرضاً شديداً ، ويطلبونها طلباً حثيثاً ؛ أمّا والله لو طلبوا الجنّة بمثلها أو أيسر لنالوها ؛ فقال : عد إليّ ، فقال : لو لم تبعث إليَّ لم آتك ؛ وإن انتفعتَ بما سمعتَ منّي عدتُ إليك .

– VI –
ترجمته من «سير أعلام النبلاء»[1]

الخليفة ، أبو جعفر هارون ، بن المهدي محمد ، بن المنصور أبي جعفر عبد الله ، ابن محمد ، بن علي ، بن عبد الله بن عبّاس الهاشمي العبّاسي .

استُخلِفَ بعهدٍ مَعقودٍ له بعد الهادي من أبيهما المَهدي في سنة سبعين ومئة بعد الهادي .

روى عن أبيه وجدِّه ، ومُبارك بن فَضالة .

روى عنه : ابنُه المأمون وغيره .

وكان من أنبل الخلفاء ، وأحشم الملوك ، ذا حَجٍّ وجهادٍ ، وغزوٍ وشجاعةٍ ، ورأيٍ .

وأُمُّه أُمُّ ولد ، اسمها خيزُران .

وكان أبيضَ طويلاً ، جميلاً ، وسيماً ، إلى السِّمَن ، ذا فصاحةٍ وعلمٍ وبَصَرٍ بأعباء الخلافة ، وله نظرٌ جيّدٌ في الأدب والفقه ، قد وَخَطَه الشَّيْب .

أَغْزاه أبوه بلاد الروم ، وهو حدَث في خلافته .

وكان مولده بالرَّي في سنة ثمان وأربعين ومئة .

قيل : إنّه كان يصلِّي في خلافته في كلّ يومٍ مئة ركعة إلى أن مات ، ويتصدَّق بألف ، وكان يحبُّ العلماءَ ، ويُعظِّم حُرُمات الدِّين ، ويُبغض الجِدال والكلام ،

---

1 سير أعلام النبلاء ، ج9 ص 286 وما بعدها .

ويبكي على نفسه ولهوِه وذنوبِه ، لا سيَّما إذا وُعِظ .

وكان يحبُّ المديح ، ويُجيز الشُّعراء ، ويقول الشعر .

وقد دخل عليه مرّة ابن السمَّاك الواعظ ، فبالغ في إجلاله ، فقال : تواضُعُك في شرفك أشرف من شرفك ، ثم وعظَه ، فأبكاه .

ووعظه الفُضَيل مرّةً حتى شَهِقَ في بكائه .

ولّما بلغه موتُ ابن المبارك ، حَزِن عليه ، وجلس للعزاء ، فعزَّاه الأكابر .

وكان يَقتفي آثار جدّه إلاّ في الحِرص .

قال أبو معاوية الضرير : ما ذكرتُ النبي ﷺ بين يدي الرشيد إلاّ قال : صلّى الله على سيِّدي ، ورويتُ له حديثه : «وَدِدتُ أنِّي أُقاتلُ في سبيل الله ، فأُقْتَل ، ثم أحيى ثمَّ أُقتل» فبكى حتى انتحب .

وعن خُرَّزاذ العابد قال : حدَّث أبو معاوية الرشيد بحديث : «احْتَجَّ آدَمُ وموسى» . فقال رجلٌ شريف : فأين لَقِيه ؟ فغضب الرشيد ، وقال : النِّطعَ والسيف ، زنديقٌ يطعن في الحديث ، فما زال أبو معاوية يُسكِّنه ويقول : بادرةٌ منه يا أمير المؤمنين ، حتى سكن .

وعن أبي معاوية الضرير قال : صبَّ على يديَّ بعد الأكل شخصٌ لا أعرفه ، فقال الرشيد : تدري مَن يصبُّ عليك ؟ قلتُ : لا ، قال : أنا ، إجلالاً للعلم .

وعن الأصمعي : قال لي الرشيدُ وأمر لي بخمسة آلاف دينار : وقِّرْنا في الملأ ، وعلِّمنا في الخلاء ، سمعها أبو حاتم من الأصمعي .

قال الثعالبي في «اللطائف» : قال الصُّولي : خلَّفَ الرشيد مئة ألف ألف دينار .

وقال المسعودي في «مروجه» : رامَ الرشيدُ أَنْ يُوصِل ما بين بحر الروم وبحر القُلْزُم ممّا يلي الفَرَما فقال له يحيى البرمكي : كان يختطفُ الرومُ الناس من الحرم ، وتدخل مراكبهم إلى الحجاز .

وعن إسحاق الموصِلّي أنَّ الرشيد أجازه مرّةً بمئتي ألف درهم .

قال عبد الرزّاق : كنت مع الفُضَيل بمكّة ، فمرَّ هارون ، فقال الفُضَيل : الناس يكرهون هذا ، وما في الأرض أعزُّ عليَّ منه ، لو مات لرأيت أموراً عِظاماً .

قال يحيى بن أبي طالب : حدّثنا عمّارُ بن ليث الواسطي ، سمعتُ الفُضَيل بن عياض يقول : ما من نفسٍ تموت أشدَّ عليّ موتاً من أميرِ المؤمنين هارون ، ولوَدِدتُ أنَّ اللهَ زاد من عُمُري في عمره . قال : فكَبُر ذلك علينا ، فلمّا مات هارون ، وظهرت الفِتَن ، وكان من المأمون ما حمل الناس على خلق القرآن ، قلنا : الشيخ كان أعلم بما تكلَّم .

قال الجاحظ : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره ، وزراؤه البرامكة ، وقاضيه القاضي أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حَفصة ، ونديمه العبّاس بن محمد عمّ والده ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس ، ومُغنِّيه إبراهيم الموصِليّ ، وزوجته زبيدة .

قيل : إنَّ هارون أعطى ابن عُيينة مئة ألف درهم ، وأعطى مرّةً أبا بكر بن عيّاش ستّة آلاف دينار .

ومحاسنه كثيرة ، وله أخبار شائعة في اللَّهو واللَّذات والغِناء ، الله يسمح له .

قال ابن حزم : أُراه كان يشرب النبيذ المختلفَ فيه ، لا الخمر المتّفقَ على حُرمتها ، قال : ثم جاهر جهاراً قبيحاً .

قلت : حجَّ غير مَرّةٍ ، وله فتوحات ومواقف مشهودة ، ومنها فتحُ مدينة هِرَقْلة ، ومات غازياً بخُراسان ، وقبرُه بمدينة طوس ، عاش خمساً وأربعين سنة ، وصلَّى عليه ولده صالح ، توفِّي في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومئة .

وَزَرَ له يحيى بن خالد مدّةً ، وأحسن إلى العَلَوية ، وحجَّ سنة (173) ، وعزل عن خراسان جعفر بن أشعث بولده العبّاس بن جعفر ، وحجَّ أيضاً في العام الآتي ، وعقد بولاية العهد لولده الأمين صغيراً ، فكان أقبح وَهْنٍ تمَّ في الإسلام ، وأرضى الأمراء بأموالٍ عظيمة ، وتحرَّك عليه بأرض الدَّيلم يحيى بن عبد الله بن حسن الحسني ، وعَظُم أمره ، وبادر إليه الرافضة ، فتنكَّد عيش الرشيد واغْتَمَّ ، وجهَّز له الفضل بن يحيى

وزيره في خمسين ألفاً ، فخارت قوى يحيى ، وطلب الأَمان ، فأجابه ولاطفه ، ثم ظفر به ، وحبسه ، ثم تعلَّل ومات ، ويقال : نالَه من الرشيد أربع مئة ألف دينار .
وثار بالشام أبو الهندام المُرِّي .

واصطدمتْ قيس ويمن ، وقُتل خلقٌ ، فولَّى موسى بن يحيى البرمكي ، فجاء ، وأصلح بينهم .

وفي سنة (175) ولّى خراسان الغِطريف بن عطاء ، وولّى مصر جعفراً البرمكي ، واشتدَّت الحرب بين القَيسيَّة واليمانيّة بالشَّام ، ونشأ بينهم أَحقاد وإِحَنٌ إلى اليوم . وافتتح العسكر مدينة دَبَسَةَ .

وفي سنة (177) عُزل جعفر عن مصر ، ووُلِّيَ أخوه الفضل خراسان مع سِجِستان والرَّي ، وحَجَّ الرشيد .

وفي سنة ثمان وسبعين ومئة هاجت الحَوْفُ بمصر ، فحاربهم نائب مصر إسحاق ، وأمدَّه الرشيد بهرثمة بن أعين ، ثم وليها هرثمة ، ثم عُزل بعبدِ الملك بن صالح العبّاسي .

وهاجت المغاربة فقتلوا أميرهم الفضل بن رَوح المُهَلَّبي ، فسار إليهم هرثمة ، فهذَّبهم .

وثار بالجزيرة الوليد بن طريف الخارجي ، وعظُم ، وكَثُرت جيوشه ، وقتل إبراهيم بن حازم الأمير ، وأخذ إرمينية ، وعدل عن الخبر .

وغزا الفضل بجيشٍ عظيم ما وراء النهر ، ومهَّد الممالك ، وكان بطلاً شجاعاً جواداً ، ربّما وصل الواحد بألف ألف ، ووِلّي بعده خُراسان منصور الحِمْيَري ، وعظُم الخطْب بابن طريف ، ثم سار لحربه يزيد بن مَزيد الشَّيباني ، وتحيَّل عليه حتى بيَّته ، وقتله ، ومزَّق جموعه .

وفي سنة 179 اعتمر الرشيد في رمضان ، واستمرَّ على إحرامه إلى أَنْ حَجَّ ماشياً من بطنِ مكَّة .

وتفاقم الأمر بين قيسٍ ويمن بالشام ، وسالت الدماء .

واستوطن الرشيد في سنة ثمانين ومئة الرَّقَّة ، وعَمَرَ بها دار الخلافة ، وجاءت الزَّلْزلة التي رمت رأس منارة الاسكندرية .

وخرجت المُحَمِّرة بجُرجان .

وغزا الرشيد ، ووغل في أرض الروم ، فافتتح الصّفْصاف ، وبلغ جيشُه أنقره .

واستعفى يحيى وزيره ، وجاور سنة . ووثبتِ الروم ، فسَمَلوا ملكهم قسطنطين وملَّكوا أُمَّه .

وفي (183) خرجت الخَزَرُ ، وكانت بنتُ ملكهم قد تزوَّج بها الفضل البرمكي ، فماتت ببرْذَعَة ، فقيل : قُتِلت غِيلة ، فخرج الخاقان من باب الأبواب ، وأوقع بالأُمَّة ، وسَبَوا أزيدَ من مئة ألف ، وتمَّ على الإسلام أمرٌ لم يُسْمع بمثله ، ثم سارت جيوش هارون ، فدفعوا الخَزَرَ ، وأغلقوا باب أرمينية الذي في الدَّرْبَنْد .

وفي سنة (185) ظهر بعبَّادان أحمد بن عيسى بن زيد بن علي العَلَويّ ، وبناحية البصرة ، وبُويع ثم عَجَزَ وهرب ، وطال اختفاؤه أزيدَ من ستين عاماً .

وثار بخُراسان أبو الخصيب ، وتمكَّن ، فسار لحربه عليٌّ بن عيسى بن ماهان ، فالتقوا بنَسا ، فقُتل أبو الخصيب ، وتمزَّقت عساكره .

وحجَّ سنة ستّ وثمانين ومئة الرشيد بولديه : الأمين والمأمون ، وأغنى أهل الحرمين .

وفي سنة سبعٍ وثمانين ومئة قتل الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي ، وسجن أباه وأقاربه ، بعد أَنْ كانوا قد بلغوا رتبةً لا مزيد عليها . وفيها انتقض الصُّلح مع الروم ، وملَّكوا عليهم نِقفُور ، فيُقال : إنّه من ذُرّيَّة جَفْنَة الغسَّاني ، وبعث يتهدَّد الرشيد ، فاستشاط غضباً ، وسار في جيوشه حتى نازله في هِرقلة ، وذلَّتِ الروم ، وكانت غزوة مشهودة .

وفي سنة ثمان وثمانين ومئة كانت الملحمة العظمى ، وقُتل من الروم عدد كثير ،

وجُرح نقفور ثلاث جراحات ، وتمَّ الفِداءُ حتى لم يبقَ في أيدي الروم أسيرٌ .

وفي سنة تسعين خلع الطاعة رافع بن الليث ، وغلب على سمرقند ، وهزم عسكر الرشيد وفيها غزا الروم في مئة ألف فارس ، وافتتح هِرقلة ، وبعث إليه نقفور بالجزية ثلاث مئة ألف دينار .

وفي سنة (191) عَزَلَ والي خُراسان ابن ماهان بهرثمة بن أَعْيَن ، وصادر الرشيد ابن ماهان ، فأدَّى ثمانين ألف ألف درهم ، وكان عاتياً متمرِّداً عَسوفاً . وفيها أوّل ظهور الخُرَّميَّة بأذَرْبيجان .

وسار الرشيد في سنة اثنتين وتسعين مئة إلى جُرجان ليُهذِّب خُراسان ، فنزل به الموت في سنة ثلاث وتسعين ومئة .

وخلَّف عِدَّة أولاد ، فمنهم تسعة بنين اسمهم محمد ، أَجلُّهم الأمين ، والمعتصم ، وأبو عيسى الذي كان مليح زمانه ببغداد ، وله نظمٌ حسن ، مات سنة تسعٍ ومئتين ، وأبو أيوب ، وله نظمٌ رائق ، وأبو أحمد كان ظريفاً نديماً شاعراً ، طال عمره إلى أن مات في رمضان سنة أربع وخمسين ومئتين ، وأبو علي توفِّي سنة 231 ، وأبو العبّاس ، وكان بليداً مُغفَّلاً ، دمَّنوه مدّة في قول : أعظم الله أجركم ، فذهب ليعزِّي فأُرْتج عليه ، وقال : ما فعل فلان ؟ قالوا : مات ، قال : جيد ، وإيش فعلتم به ؟ قالوا : دفنّاه ، قال : جيد . وأبو يعقوب وتوفِّي سنة 223 ، وتاسعهم أبو سليمان ، ذكره ابن جرير الطبري .

– VII –

ترجمته من «تاريخ اليعقوبيّ»[1]

وولي هارون الرشيد بن محمد المهديّ ، وأُمَّه الخيزُران ، في اليوم الذي توفي فيه أخوه موسى ، وهو لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة 170 ، ومن شهور العجم في أيلول .

وولد المأمون في الليلة التي استخلف فيها الرشيد ، فبشّر به ، فلذلك سمّاه المأمون ، وولد محمد بن هارون بعد ستّة أشهر ، ووجّه موسى بن عيسى في الليلة التي ولي فيها ليقيم الحجّ للناس ، ثم بدا له في الخروج ، فخرج هو ، فلحقه في الطريق ، فأقام الحجّ وأعطى أهل مكّة والمدينة عطايا كثيرة ، وفرّق فيهم أموالاً ، ثم انصرف ، فصار إلى قبر المهديّ بماسبذان ، فتصدّق عنده بأموال عظيمة ، وجعلها رسماً في كلّ سنة .

وولّى الفضل بن يحيى خراسان ، فشخص إليها وقد خالف أهلُ الطالقان ، فافتتح الطالقان ، وزحف صاحب الترك في خلق عظيم ، ولقي عسكر الفضل ، والتحمت بينهما الحرب ، فضرب وجه صاحب الترك فاستنام واستباح الفضلُ عسكره ، وغنم أمواله ، وفيه يقول الشاعر :

للفَضْلِ يــوْمُ الطّالِقانِ وقَبْلَهُ يــوْمٌ أناخَ بـــه على خاقانِ
ما مِثْلُ يومَيْه اللّذيــن توَالَيا في غَزْوَتَيْنِ تواليــا يوْمانِ

وكان يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن قد هرب إلى خُراسان ، ودخل أرض

---

1 تاريخ اليعقوبي ، ج2 ص 407 وما بعدها .

الديلم ، فكتب هارون إلى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدّده ، فطلبه ، فلمّا رأى يحيى ذلك طلب الأمان من الفضل ، فآمنه وحمله إلى الرشيد ، فحبسه فلم يزل محبوساً حتى مات .

وقيل إنّ الموكّل به منعه من الطعام أيّاماً ، فمات جوعاً .

وخبّرني رجل من موالي بني هاشم قال : كنت محبوساً في الدار التي فيها يحيى بن عبد الله ، فكنت إلى جانب البيت الذي هو فيه ، فربّما كلّمني من خلف حائط قصير ، فقال لي يوماً : إنّي قد مُنعت الطعام والشراب منذ تسعة أيّام ، فلمّا كان اليوم العاشر دخل الخادم الموكّل به ، ففتّش البيت ، ثم نزع عنه ثيابه ، ثم حلّ سراويله ، فإذا بأُنبوبة قصب شدّها في باطن فخذه ، فيها سمن بقر كان يلحس منه الشيء بعد الشيء يقيم برمقه ، فلمّا أخذها لم يزل يفحص برجله حتى مات .

فحدّثني أبو جميل قال : خرجت إلى البصرة في أيّام المأمون ، فركب معنا في السفينة خادم ، فكان يخبرنا أنّه من خدم الرشيد ، ثم حدّثنا بحديث يحيى بن عبد الله ، وأنّه الذي تولّى قتله بمثل ما تقدّم ذكره ، فلمّا كان في الليل قام إليه رجل كان في السفينة ، فدفعه في الماء ، والسفينة تسير ، فغرّقه .

وبايع هارون لابنه محمد بالعهد من بعده ، سنة 175 ، ومحمد ابن خمس سنين ، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة ، وأخرج محمداً إلى القوّاد ، فوقف على وسادة ، فحمد الله وصلّى على نبيّه ، وقام عبد الصمد بن عليّ فقال : أيّها الناس لا يغرنّكم صغر السنّ ، فإنّها الشجرة المباركة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجعل الرجل من بني هاشم يقول في ذلك حتى انقضى المجلس ، ونثرت عليهم الدراهم والدنانير وفأر المسك وبيض العنبر .

واستعمل هارون على السند سالماً اليونسيّ ، مولى اسماعيل بن عليّ ، مكان الليث مولى أمير المؤمنين ، فأحسن السيرة ، ولم يلبث أن ولّى إسحاق بن سليمان بن عليّ الهاشميّ ، وقدم البلد ، وكان عفيفاً ، ثم عزله وولّى طيفور بن عبد الله بن منصور الحميريّ ، فهاجت بين اليمانية والنزاريّة حرب ، فوجّه جابر بن الأشعث الطائي على

غربيّ النهر ومكران ، ثم ولّى سعيد بن سلم بن قتيبة ، فوجّه أخاه كثير بن سلم ، فأساء السيرة ، وكان مذموماً ، وصيّر الرشيد السند إلى عيسى بن جعفر بن المنصور ، فبعث إليها محمد بن عديّ الثعلبيّ ، فلمّا قدم بدأ بالعصبيّة والتحامل وضرب القبائل بعضها ببعض ، وخرج من المنصورة يريد الملتان ، فلقيه أهلها فقاتلوه فهزموه ونهبوا ما معه من السلاح ، وفرّ منهزماً لا يلوي على شيء حتى صار إلى المنصورة والتحمت العصبية بين اليمانية والنزاريّة واتصلت ، فولّى الرشيد عبد الرحمن . . . . ثم ولّى أيّوب بن جعفر بن سليمان ، ثم ولّى داود بن يزيد بن حاتم المهلّبيّ سنة 184 ، فوجّه إليها أخاه المغيرة ، فرفعت النزاريّة رؤوسهم ، وعزموا على أن يقسموا البلاد أرباعاً : ربعاً لقريش ، وربعاً لقيس ، وربعاً لربيعة ، ويخرجوا اليمانية .

ولّما قدم المغيرة أغلق أهل المنصورة الأبواب ومنعوه الدخول ، إلاّ أن يعاهدهم ألاّ يستعمل فيهم العصبيّة ، أو يخرجوا جميعاً عن المدينة ويدخلها ، فخرج من به رمق ودخلها المغيرة ، فتحامل على النزاريّة ، فقاتلوه فهزموه ، وسار داود بن يزيد لّما بلغه الخبر حتى قدم البلد ، فجرّد فيهم السيف ، فقتل من النزاريّة خلقاً عظيماً ، وصار إلى المنصورة ، فأقام يقاتلهم عشرين يوماً ، ولم تزل الحروب بينهم عدّة شهور ، ففتحها ، ثم سار إلى سائر مدن السند ، فلم يزل يفتح ويخرب إلى أن استقامت له البلاد .

وولّى هارون سليمان بن أبي جعفر دمشق ، فوثب به أهلها بسبب القلّة البلّور التي كانت في محرابهم ، فأخرجوه وانتهبوا كلّ ما كان معه .

وخرج رجل من بني مرّة يقال له عامر بن عمارة ، ويكنّى أبا الهيذام ، بحوران من أرض دمشق ، فقتل اليمانيّة ، وذلك في سنة 176 ، فوجّه إليهم الرشيد السنديّ وجماعة من القوّاد ، فقُتل أبو الهيذام وفرّق جمعه .

وخرج هارون يريد الشأم ، فلمّا بلغه قتل أبي الهيذام مضى إلى الثغر ، فأغزى هرثمة بن أعين بلاد الروم ، وأمر ببناء طرسوس في سنة 171 ، فأحكم بناءها ، وجعل لها خمسة أبواب ، وحولها سبعة وثمانين برجاً ، ولها نهر عظيم يشقّ في وسطها ، عليه القناطر المعقودة ، وكان ابتداء بنائها على يد أبي سليمان مولاه ، ثم

انصرف إلى العراق يريد الحجّ ، واستخلف على الشأمات والجزيرة جعفر بن يحيى بن خالد ، فظهرت العصبيّة بحمص ، فصعد جعفر بن يحيى منبرها ، فخطب وحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على محمد ، وقال : يا أهل الشأم ! أحذّركم عواقب البطر ، ووبال ما لا يُشكر من النعم ، وملمّة كلّ خطب يدفع إلى ندم ، فإنّ السعيد من سعد بغيره ، والشقيّ من شقي بنفسه ، واتّعظ به غيره ، والمغبون مَن غبن عقله ، والمفتون من فتن في دينه ، والمحزوم من حزم حظّه من ربّه ، والخاسر من باع آخرته بدنياه وآجله بعاجله ، وإنّما يخشى الله من عباده العلماء ، ولم يعظ الله من عباده إلاّ أولي البهاء . . في كلام كثير .

وخرج الوليد بن طريف الحروريّ بالجزيرة سنة 179 ، وكان عبد الملك بن صالح يتولاّها ويتولّى بعض الشأم ، فحصره الوليد بالرّقّة ، فوجّه الرشيد موسى بن خازم التميميّ في جيش ، فهزمه الوليد ، فوجّه بمعمّر بن عيسى العبديّ ، فكانت بينهما وقائع ، ثمّ مات وهو في محاربته ، فتوجّه إليه يزيد بن مزيد الشيبانيّ ، فواقعه يوماً واحداً ، ثم قال له في اليوم الثاني : أبرز ، يا وليد ، ولا يُقتل الناس بيني وبينك ! فبرز له ، فقتله يزيد ، واحتزّ رأسه ، وبعث به إلى الرشيد ، وتفرّق أصحابه ، ثم اجتمعت طائفة منهم مع رجل يقال له خُراشَة ، فمالوا نحو الجزيرة ممّا يلي ديار ربيعة .

ولم يزل يزيد بن حاتم المهلّبيّ على إفريقية منذ أيّام المنصور إلى أيّام الرشيد ، ثم توفي ، واستخلف على إفريقية ابنه داود بن يزيد بن حاتم ، فلم يقم فيهم بالعدل ، وقاتلوه ، فهزموه ، فولّى الرشيد روح بن حاتم المهلّبيّ ، فقدم البلد ، فسكّنهم ، ثم مات ، فولّى الرشيد نصر بن حبيب المهلّبيّ ، ثم عزله ، وولّى الفضل بن روح ، فثار عليه عبد الله بن الجارود ، واجتمع معه أهل المغرب ، فحاربوه فقتلوا عساكره ، وظفروا به ، فحبسوه وأصحابه .

وغلب على البلد عبد الله بن الجارود ، فطلب الأمان ، وسأل أن يقضى له حوائج سمّاها ، فأجابوه إلى كلّ ما سأل ، وانصرفوا إلى الرشيد بخبره .

ووجّه الرشيد هرثمة بن أعين إلى الشأم ومصر والمغرب يتقرّاها ويصلحها ، فلم يزل يمرّ ببلد بلد فيصلح ما يريد إصلاحه ، حتى صار إلى مصر في سنة 179 ، وقد كانوا وثبوا على عاملهم ، وصار هرثمة إلى المغرب ، فلمّا بلغ طرابلس من أرض المغرب أعطى جندها أرزاقهم الفائتة وآمنهم جميعاً ، حتى قدم القيروان سنة 179 ، فآمن الناس وسكّنهم .

وخرج عليه قوم في ناحية من النواحي ، فوجّه إليهم جيشاً ، ففرّقهم ، وأقام هرثمة حتى أصلحها ، ثم عاد إلى مصر ، فأقام بها حتى استقامت أحوالها ، وحمل من رأى حمله منها ثم انصرف .

وولّى الرشيد إفريقية محمد بن مقاتل العكّيّ ، فثار عليه تمّام بن تميم التميميّ حتى حصره في القيروان ، ثم فتح أهل القيروان الباب لتمّام ، فدخل المدينة ، وطلب محمد بن مقاتل الأمان ، فآمنه ، وخرج ابن مقاتل إلى العراق وتغلّب تمّام على البلد ، ثم ثار عليه أهل خُراسان وأهل الشام ، فحاربوه ، فانهزم منهم .

وقدم إبراهيم بن الأغلب ، فولاّه أهل المغرب عليهم ، فضبط عليهم ، وبلغ الرشيد ذلك ، فكتب إليه بعهده على إفريقية ، وبعث إليه بالعهد مع يحيى بن موسى الكنديّ .

وكان إبراهيم بن الأغلب بن سالم أحد الجند الذين أُخرجوا من مصر إلى إفريقية ، وكان يتولّى شرطة صاحب إفريقية ، فلمّا توفّي ابن مقاتل واستخلف إبراهيم على البلد ضبطه وحسنت طاعة أهله ، وكان يحمل إلى صاحب إفريقية من مصر ، في كلّ سنة ، ستّمائة دينار ، فكتب إبراهيم بن الأغلب إلى الرشيد يعلمه أنّه يقوم بالبلد بغير مال ، فولاّه إيّاه ، فدام أمره وأمر ولده إلى هذه الغاية .

وكان الرشيد ولّى اليمن العبّاس بن سعيد مولاه ، فضجّ منه أهل اليمن ، وحكي عنه مذاهب قبيحة ، فصرفه الرشيد ، وولّى مكانه إبراهيم بن محمّد ابن إبراهيم الإمام ، ثم صرفه ، وولّى عبد الله بن مصعب الزبيريّ ، ثم صرفه ، وولّى أحمد بن إسماعيل بن عليّ مكانه ، ثم صرفه ، وولّى حماداً البربريّ مولاه فجار على أهل اليمن وغلظ عليهم .

ووثب الهيصم بن عبد المجيد الهمدانيّ باليمن سنة 179 ، وغلب عليها ، فكان معقله بجبل يقال له مِسْوَر ، وكان معه عمر بن أبي خالد الحميريّ مقيماً بعَشّتان ، وكان معه الصبّاح بناحية يقال لها حَراز ، فلقوا حَماداً البربريّ ، فكانت بينهما وقائع قُتل فيها نيف وعشرون ألفاً من الناس ، وأسر حمّاد عمر بن أبي خالد ، فوجّه به إلى الرشيد ، واتّصلت الحرب بينه وبين الهيصم تسع سنين ، ثم صار إلى حمّاد رجل من أهل البلد ، فأعلمه أن الهيصم قد نزل من قلعته وصار إلى قرية من القرى متنكّراً يتجسّس الأخبار ، فوجّه معه إلى تلك القرية بقائد يقال له حراد ، فأخذ الهيصم ، فقال الهيصم : والله إن القتل لشيء ما أنكره ، وما خُلقت الرجال إلاّ للموت والقتل . فحمله حماد على جمل ، وأدخله إلى صنعاء ، ثم وجّه به إلى الرشيد ، فأنشده في شعر طويل :

فشفاءُ مـا لا تشْتهيـ ـهِ النفسُ تعجيلُ الفراق

فدعا بالهيصم فأمر بضرب عنقه ، وانحرف حمّاد البربريّ إلى صبّاح ، فضرع صبّاح إلى الأمان فأعطاه الأمان ، وقيل : لم يعطه إيّاه ، ولكنّه أسره ، ووجّه به إلى الرشيد مع ستّمائة رجل من أصحاب الهيصم ، فضرب أعناقهم جميعاً ، وصلب الهيصم وصبّاحاً معاً ، وأقام حمّاد البربريّ على اليمن ثلاث عشرة سنة ، وسام أهلها سوءَ العذاب ، حتى صاح قوم منهم بالرشيد ، وهو بمكّة : نحن نعوذ بالله وبك ، يا أمير المؤمنين ! اعزل عنّا حمّاداً البربريّ إن كنت تقدر . فقال : لا ولا كرامة .

وكان حمّاد عبداً لهارون فأعتقه في أوّل خلافته ، ثم عزل الرشيد حماداً ، واستعمل مكانه عبد الله بن مالك ، فلم يزل في البلد محمود السيرة جميل المذهب ، حتى توفي هارون .

- VIII -

ترجمته من كتاب

«التنبيه والإشراف» للمسعوديّ[1]

وبُويع الرشيد هارون بن المهدي ، ويكنى أبا جعفر وأُمُّه الخيزُران أُمّ أخيه الهادي ، في الوقت الذي توفي فيه الهادي ، وبايع لابنه محمد بن زبيدة بالعهد بعده ثم لعبد الله المأمون بعد محمد ، وولاّه الرَّيّ وخُراسان ، وما اتصل بذلك ، وأخذ عليهما العهود والمواثيق بالوفاء ، وكتب عليهما بذلك كتابين علّقهما في الكعبة ، ثم بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ، وجعل أمر القاسم للمأمون إذا صار الأَمر إليه ، فإن رأى إقراره أَقرَّه وإن رأى خلعه خلعه .

وتوفي بقرية يقال لها سناباذ من طوس من أرض خُراسان يوم السبت لأَربع خلون من جمادى الآخرة سنة 193 ، وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة اشهر ، فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وستّة عشر يوماً .

وكان تام الخلقة جميلاً ، طويلاً أبيض مسمّناً ، قد وخّطه الشيب ، له وفرة إذا حجّ حلقها .

وكان كامل الأخلاق سمحاً شجاعاً ، كثير الحجّ والجهاد ؛ حجّ في خلافته ثماني حجج وغزا ثماني غزوات ، وتسلّط على الأُمور بعد مدّة من خلافته ، فأفسد الصنائع ، وأحبّ جمع الأَموال واستوزر البرامكة يحيى بن خالد بن برمك وابنيه جعفر والفضل ، ثم نكبهم في صفر سنة 187 ، وقتل جعفراً ، وذلك لسبع عشرة

---

1 التنبيه والإشراف ، ص 229 .

سنة خلت من خلافته . ودفع خاتم الخلافة بعد إيقاعه بهم إلى علي بن يقطين ، وغلب عليه الفضل بن الربيع ، وإسماعيل بن صبيح إلى أن مات .

وكان صبيح أبو إسماعيل مولى عتاقة لسالم الأفطس ، وسالم الأفطس مولى عتاقة لبني أميّة . واختلّت أموره بعد البرامكة ، وبان للناس قبحُ تدبيره وسوء سياسته .

وكان نقش خاتمه «بالله يثق هارون» .

– IX –

ترجمته من كتاب «تاريخ الخلفاء»[1]

الرشيد هارون أبو جعفر بن المهديّ محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس .

استخلف بعهد أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربَعَ عشرةَ بقيت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة .

قال الصولي : هذه الليلة وُلد له فيها عبدُ الله المأمون ، ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة وقام خليفة وولد خليفة إلاّ هذه الليلة ، وكان يكنى أبا موسى فتكنَّى بأبي جعفر .

حدث عن أبيه وجدّه ، ومبارك بن فضالة ، وروى عنه ابنُه المأمون وغيره ، وكان من أميز الخلفاء وأجلّ ملوك الدنيا ، وكان كثير الغزوِ والحجّ ، كما قال فيه أبو المعالي الكلابي .

فمن يَطْلُبْ لقاءَكَ أو يُرِدْهُ فبالحرمينِ أو أَقْصَى الثغورِ
ففي أرضِ العدوِّ على طِمِرٍّ وفي أرضِ التَرَفُّهِ فوقَ كُورِ

مولده بالرَّيّ – حين كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان – في سنة ثمان وأربعين ومائة .

وأُمُّه أمّ ولد ، تسمّى الخيزُران ، وهي أمّ الهادي ؛ وفيها يقول مروان بن أبي حفصة :

يا خيزرانُ هَنَاكِ ثم هَنَاكِ أمسى يَسوسُ العالمينَ ابناكِ

---

1 تاريخ الخلفاء ، ص 336 وما بعدها .

وكان أبيض ، طويلاً ، جميلاً ، مليحاً ، فصيحاً ، له نظر في العلم والأدب .

وكان يصلّي في خلافته في كلّ يوم مائة ركعة إلى أن مات ، لا يتركها إلاّ لعلّة ، ويتصدَّق من صُلبِ ماله ، كلّ يوم ، بألف درهم .

وكان يحبّ العلم وأهله ، ويعظم حُرُماتِ الإسلام ، ويبغض المِرَاءَ في الدين ، والكلام في معارضة النص .

وبلغه عن بشْرٍ المَريسي القولُ بخلق القرآن . فقال : لئن ظفرت به لأضربنَّ عنقه .

وكان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه ، سيّما إذا وعظ ، وكان يحبّ المديح ، ويجيز عليه الأموال الجزيلة ، وله شعر .

دخل عليه مرّة ابن السمّاك الواعظ ، فبالغ في احترامه ، فقال له ابن السمّاك : تواضُعُكَ في شرفك أشرفُ من شرفك ؛ ثم وعظه فأبكاه .

وكان يأتي بنفسه إلى بيت الفُضَيل بن عياض .

قال عبد الرزّاق : كنت مع الفضيل بمكّة ، فمرَّ هارون ، فقال فضيل : الناس يكرهون هذا ، وما في الأرض أعَزُّ عَلَيَّ منه ، لو ماتَ لرأيتَ أموراً عظاماً .

قال أبو معاوية الضرير : ما ذكرتُ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بين يدي الرشيد إلاّ قال : صلّى الله على سيّدي ، وحدّثته بحديثه صلّى الله عليه وآله وسلّم «وددتُ أنّي أُقاتلُ في سبيل الله فأُقتَل ، ثم أحيى فأُقتَل» فبكى حتى انتحب .

وحدَّثته يوماً حديث «احتج آدم وموسى» وعنده رجل من وجوه قريش ؛ فقال القرشي : فأين لقيه ؟ فغضب الرشيد ، وقال : النطعَ والسيفَ ، زنديق يطعن في حديث النبيّ عليه الصلاة والسلام .

قال أبو معاوية : فما زِلْتُ أُسَكِّنه ، أقول : يا أمير المؤمنين كانت منه نادرة ، حتى سكن .

وعن أبي معاوية أيضاً قال : أكلت مع الرشيد يوماً ، ثم صبَّ على يديَّ رجل لا أعرفه ؛ ثم قال الرشيد : تدري مَنْ يصبّ عليك ؟ قلت : لا ؛ قال : أنا ، إجلالاً للعلم .

وقال منصور بن عمّار : ما رأيت أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة : الفضيل بن عياض ، والرشيد ، وآخر .

قال عُبَيد الله القواريري : لما لقي الرشيد الفضيل قال له : يا حَسَنَ الوجه ، أنت المسؤول عن هذه الأمّة ؟ حدّثنا ليث عن مجاهد (وتَقَطَّعَتْ بهم الأسباب) ؛ قال : الوُصْلَة التي كانت بينهم في الدنيا ، فجعل هارون يبكي ويشهق .

ومن محاسنه أنّه لمّا بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء ، وأمر الأعيان أن يعزّوه في ابن المبارك .

قال نفطويه : كان الرشيد يقتفي آثار جدّه أبي جعفر ، إلاّ في الحرص ؛ فإنّه لم يُرَ خليفة قبله أعْطَى منه : أعطى مرَّة سفيان بن عيينة مائة ألف ، وأجاز إسحاق الموصليّ بمائتي ألف ، وأجاز مروان بن أبي حفصة مرَّة على قصيدة خمسَة آلاف دينار ، وخِلْعَةً ، وفرساً من مراكبه ، وعشرة من رقيق الروم .

وقال الأصمعي : قال لي الرشيد : يا أصمعي ما أغفلك عنّا وأجفاك لنا ! قلت : والله يا أمير المؤمنين ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك ؛ فسكت ؛ فلمّا تفرّق الناس قال : ما لاقتني ؟ قلت :

كَفَّاكَ : كَفٌّ ما تليق درهماً جوداً ، وأُخرى تعطي بالسيف الدما

فقال : أحسنت ، وهكذا فكنْ ، وقِّرْنَا في الملا ، وعلّمنا في الخلا ، وأمر لي بخمسة آلاف دينار .

وفي مروج المسعوديّ قال : رام الرشيد أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم ممّا يلي الفَرَمَا ؛ فقال له يحيى بن خالد البرمكي : كان يختطف الرومُ الناسَ من المسجد الحرام ، وتدخل مراكبُهم إلى الحجاز ، فتركه .

وقال الجاحظ : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لغيره : وُزَرَاؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف رحمه الله ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، ونديمه العبّاس بن محمد عمّ أبيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، أَنْبَهُ الناس وأعظمهم ، ومغنّيه إبراهيم الموصليّ ، وزوجته زبيدة .

وقال غيره : كانت أيّام الرشيد كلُّها خير كأنّها من حُسْنها أعراس .

وقال الذهبي : أخبار الرشيد يطول شرحها ، ومحاسنة جمّة ؛ وله أخبار في اللهو واللذّات المحظورة والغناء ، سامحه الله ! .

مات في أيّامه من الأعلام : مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة ، والقاسم بن مَعْنٍ ، ومُسْلم بن خالد الزنجي ، ونوح الجامع ، والحافظ أبو عَوَانة اليشكري ، وإبراهيم بن سعد الزهري ، وأبو إسحاق الفَزَاري ، وإبراهيم بن أبي يحيى شيخ الشافعي ، وأسد الكوفي من كبار أصحاب أبي حنيفة ، وإسماعيل بن عيّاش ، وبشر بن المفضل ، وجرير بن عبد الحميد ، وزياد البَكَّائي ، وسليم المقرىء صاحب حمزة ، وسيبويه إمام العربية ، وضيغم الزاهد ، وعبد الله العمري الزاهد ، وعبد الله بن المبارك ، وعبد الله بن إدريس الكوفي ، وعبد العزيز بن أبي حازم ، والدراوردي ، والكسائي شيخ القرّاء والنحاة ، ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ؛ كلاهما في يوم ، وعليٌّ بن مسهر ، وغُنْجَار ، وعيسى بن يونس السبيعي ، والفضيل بن عياض ، وابن السمّاك الواعظ ، ومروان بن أبي حَفْصة الشاعر ، والمُعافى بن عمران الموصلّي ، ومعتمر بن سليمان ، والمفضّل بن فضالة قاضي مصر ، وموسى بن ربيعة أبو الحكم المصري أحد الأولياء ، والنعمان بن عبد السلام الأصبهاني ، وهشيم ، ويحيى بن أبي زائدة ، ويزيد بن زُرَيْع ، ويونس بن حبيب النحوي ، ويعقوب بن عبد الرحمن قارىء المدينة ، وصعصعة بن سلام عالِم الأندلس أحد أصحاب مالك ، وعبد الرحمن بن القاسم أكبر أصحاب مالك ، والعبّاس بن الأحنف الشاعر المشهور ، وأبو بكر بن عيّاش المقرىء ، ويوسف بن الماجشون ، وخلائق آخرون كبار .

ومن الحوادث في أيّامه : في سنة خمس وسبعين افترى عبد الله بن مصعب الزبيري على يحيى بن عبد الله بن حسن العلويّ أنّه طلب إليه أن يخرج معه على الرشيد ، فباهَلَه يحيى بحضرة الرشيد وشبك يده في يده ، وقال : قل : اللهمَّ إن كنتَ تعلم أنّ يحيى لم يَدْعُني إلى الخلاف والخروج على أمير المؤمنين هذا فكِلْني إلى حَوْلي

وقُوَّتي وأسحتني بعذابٍ من عندك ، آمين رب العالمين ، فتلجلج الزبيري وقالها ، ثم قال يحيى مثل ذلك وقاما ، فمات الزبيري ليومه .

وفي سنة ستّ وسبعين فتحت مدينة دبسة على يد الأمير عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح العبّاسي .

وفي سنة تسع وسبعين اعتمر الرشيد في رمضان ، ودام على إحرامه إلى أن حجَّ ، ومشى من مكّة إلى عرفات .

وفي سنة ثمانين كانت الزلزلة العظمى ، سقط منها رأس منارة الإسكندرية .

وفي سنة إحدى وثمانين فتح حصن الصفصاف عنوة ، وهو الفاتح له .

وفي سنة ثلاث وثمانين خرج الخَزَرُ على أرمينية ، فأوقعوا بأهل الإسلام ، وسفكوا ، وسَبَوْا أزْيَدَ من مائة ألف نسمة ، وجرى على الإسلام أمر عظيم لم يسمع قبله مثله .

وفي سنة سبع وثمانين أتاه كتاب من ملك الروم «نقفور» بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة «ريني» ملكة الروم .

وصورة الكتاب : من «نقفور» ملك الروم ، إلى «هارون» ملك العرب : أمّا بعد ؛ فإنّ الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرخِّ وأقامت نفسها مقام البَيْدَق ، فحملت إليك من أموالها أحمالاً ، وذلك لضعف النساء وحمقهنَّ ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل ، قِبلَك من أموالها ، وإلاّ فالسيف بيننا وبينك .

فلمّا قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضباً حتى لم يتمكّن أحد أن ينظر إلى وجهه دون أن يخاطبه ، وتفرَّق جلساؤه من الخَوْف ، واستعجم الرأي على الوزير ، فدعا الرشيد بدواة ، وكتب على ظهر كتابه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأتُ كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه ، لا ما تسمعه» .

ثم سار ليومه ، فلم يزل حتى نازل مدينة هرقل ، وكانت غزوة مشهورة وفتحاً

مبيناً ، فطلب نقفور المُوَادعة ، والتزم بخراج يحمله كل سنة ، فأجيب .

فلمّا رجع الرشيد إلى الرَّقَّةِ نقض الكلب العهد لإياسه من كرَّة الرشيد في البرد ، فلم يجترىء أحد أن يبلغ الرشيد نَقْضَه ، بل قال عبد الله بن يوسف إلتيمي :

نقضَ الذي أعطيتَـــهُ نقفور فعليه دائـــرةُ البَوَارِ تدورُ
أَبْشِرْ أميرَ المؤمنـــين فإنّه غُنْمٌ أتاكَ بـــه الإلهُ كبيرُ

وقال أبو العتاهية أبياتاً ، وعُرِضت على الرشيد : فقال : أَوَ قد فَعَلَها ؟ فكرَّ راجعاً في مشقّة شديدة حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى بلغ مراده ، وحاز جهاده .

وفي ذلك يقول أبو العتاهية :

ألا نادت هِرَقْلَةُ بالخرابِ من المَلِكِ الموفَّقِ للصّوابِ
غدا هارونُ يُرعِـــدُ بالمنايا ويُبرِقُ بالمذكَّرةِ العِضابِ
وراياتٍ يحـــلُّ النصرُ فيها تَمُرُّ كأنَّها قِطَعُ السَّحابِ

وفي سنة تسع وثمانين فَادَى الرومَ حتى لم يبق بممالكهم في الأسْرِ مسلم .

وفي سنة تسعين فتح هِرَقْلَةَ ، وبثَّ جيوشه بأرض الروم ، فافتتح شراحيل بن مَعْنٍ ابن زائدة حصن الصقالبة ، وافتتح يزيد بن مخلد ملقونية ، وسار حميد بن معيوف إلى قبرس ، فهدم وحرق ، وسبى من أهلها ستّة عشر ألفاً .

وفي سنة اثنتين وتسعين توجَّهَ الرشيد نحو خُراسان ، فذكر محمد بن الصباح الطبري أنّ أباهُ شيّع الرشيد إلى النهروان ، فجعل يحادثه في الطريق إلى أن قال :

يا صباح لا أحسبك تراني بعدها ؛ فقلت : بل يردُّكَ الله سالماً ، ثم قال : ولا أحسبك تَدْري ما أجِدُ ؛ فقلت : لا واللهِ ؛ فقال : تعالَ حتى أرِيَكَ ؛ وانحرف عن الطريق ، وأومأ إلى الخواصّ فتنحّوْا ؛ ثم قال : أمانة الله يا صباح أن تكتم عَلَيَّ ، وكشف عن بطنه فإذا عصابة حرير حوالي بطنه ، فقال : هذه علّة أكتمها الناسَ كلَّهم ، ولكلِّ واحد من ولديَّ عَلَيَّ رقيبٌ ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل بن

بختيشوع رقيب الأمين ، ونسيت الثالث ، ما منهم أحد إلاّ ويُحْصي أنفاسي ، ويَعُدُّ أيّامي ، ويستطيل دهري ، فإن أردتَ أن تعرف ذلك فالساعَةَ أدعو ببرذون ، فيجيئون به أعْجَفَ ليزيد في علّتي ، ثم دَعا ببرذون فجاؤوا به كما وصف ، فنظر إليَّ ثم ركبه ، وودّعني وسار إلى جرجان ، ثم رحل منها في صفر سنة ثلاث وتسعين وهو عليل إلى طُوسَ ، فلم يزل بها إلى أن مات .

وكان الرشيد بايع بولاية العهد لابنه محمد في سنة خمس وسبعين ، ولَقَّبه الأمين ، وله يومئذٍ خمس سنين ، لحرص أُمّه زُبَيْدَة على ذلك ، قال الذهبي : فكان هذا أوّلَ وَهْنٍ جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة ، ثم بايع لابنه عبد الله من بعد الأمين في سنة اثنتين وثمانين ، ولَقَّبه المأمون ، وولاّه ممالك خُراسان بأسرها ، ثم بايع لابنه القاسم من بعد الأخوين في سنة ستّ وثمانين ، ولقّبه المؤتمن ، وولاّه الجزيرة والثغور وهو صبي ، فلمّا قَسَّمَ الدنيا بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء : لقد ألقى بأسَهُمْ بينهم ، وغائلة ذلك تَضُرُّ بالرعيّة ، وقالت الشعراء في البيعة المدائح ، ثم إنّه عَلّقَ نسخة البيعة في البيت العتيق ، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلّي :

خيرُ الأمــورِ مَغَبَّةً وأحقُّ أمــرٍ بالتَّمامِ
أمرٌ قضى أحكامَهُ الـ ـرحمنُ في البيتِ الحرامِ

وقال عبد الملك بن صالح في ذلك :

حُبُّ الخليفــةِ حُــبٌّ لا يَدينُ لهُ عاصي الإلهِ وشارٍ يُلْقِحُ الفِتَنا
الله قَلَّــدَ هارونــاً سياستَــهُ لمّا اصطفاهُ فأحيا الدينَ والسُّننا
وقَلَّــدَ الأرضَ هــارونٌ لرأفتــه بنــا أمينــاً ومأمونــاً ومؤتَمنا

قال بعضهم : وقد زَوَى الرشيد الخلافَةَ عن ولده المعتصم ؛ لكونه أمّيّاً ، فساقها الله إليه ، وجعل الخلفاءَ بعده كلَّهم من ذريّته ، ولم يجعل من نسل غيره من أولاد الرشيد خليفةً ، وقال سَلْم الخاسر في العهد للأمين :

قُلْ للمنازلِ بالكثيبِ الأغْفَرِ أُسْقِيتِ غاديَةَ السحابِ الممطرِ
قد بايع الثقلانِ مَهديَّ الهُدَى لمحمدِ بنِ زُبَيْدَةَ ابنةِ جعفرِ
قد وَفَّقَ اللهُ الخليفةَ إذْ بنى بيتَ الخلافة للهِجانِ الأزْهَرِ
فهُوَ الخليفةُ عن أبيهِ وجَدِّهِ شَهِدَا عليــه بمنظَرٍ وبمخبرِ

فَحَشَتْ زبيدةُ فاهُ جوهراً باعه بعشرين ألفَ دينارٍ .

فصل
في نبذ من أخبار الرشيد ، عفا الله عنه !

أخرج السِّلَفِي في الطيوريّات بسنده عن ابن المبارك قال : لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي ، فراودها عن نفسها ، فقالت : لا أصلُح لك ، إنّ أباك قد طافَ بي ، فشُغفَ بها ، فأرسل إلى أبي يوسف ، فسأله : أعندك في هذا شيء ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أَوَ كلّما ادَّعَت أَمَةٌ شيئاً ينبغي أن تصدّق ، لا تصدّقْها فإنّها ليست بمأمونةٍ ؛ قال ابن المبارك : فلم أدرِ ممّن أعجب : مِنْ هذا الذي قد وضع يده في دماءِ المسلمين وأموالهم يتحرّج عن حرمة أبيه ، أو مِن هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين ، أو من هذا فقيه الأرض وقاضيها ! قال : اهتِكْ حرمَةَ أبيك ، واقض شهوتك ، وصيّرهُ في رقبتي .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن يوسف قال : قال الرشيد لأبي يوسف : إنّي اشتريت جارية وأريد أن أطأها الآن قبل الاستبراء ، فهل عندك حيلة ؟ قال : نعم ، تهبها لبعض ولدك ، ثم تتزوّجها .

وأخرج عن إسحاق بن راهويه قال : دعا الرشيد أبا يوسف ليلاً فأفتاه ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فقال أبو يوسف : إنْ رأى أمير المؤمنين أمَرَ بتعجيلها قبل الصبح ، فقال : عجّلوها ، فقال بعض من عنده : إنّ الخازن في بيته والأبواب مُغْلقة ، فقال أبو يوسف : فقد كانت الأبواب مُغْلَقة حين دعاني ، فَفُتِحَتْ .

وأسند الصولي عن يعقوب بن جعفر قال : خرج الرشيد في السنة التي وليّ

الخلافَةَ فيها حتى غزا أطراف الروم ، وانصرف في شعبان ؛ فحجّ بالناس آخر السنة ، وفرّق بالحرمين مالاً كثيراً ، وكان رَأَى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في النوم ، فقال له : إنّ هذا الأمر صائر إليك في هذا الشهر ؛ فاغْزُ وحُجَّ ووسِّعْ على أهل الحرمين ، ففعل هذا كلّه .

وأسند عن معاوية بن صالح عن أبيه قال : أوّل شعر قاله الرشيد أنّه حجّ سنة وليّ الخلافة ، فدخل داراً ، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر قد كتب على حائط :

ألا يا أميرَ المؤمنين أما ترى فديتُكَ هِجْرَانَ الحبيب كبيرا

فدعا بدواة ، وكتب تحته بخطّه :

بلى والهَدَايا الْمُشْعَرَاتِ وما مشى بمكّةَ مرفوعُ الأظلِّ حسيرا

وأخرج عن سعيد بن مسلم قال : كان فَهْمُ الرشيد فَهْمَ العلماءِ ، أنشده العُمَانيّ في صفة فرس :

كأنَّ أذنيـــهِ إذا تشوّقـــا قَادِمَـــةً أو قلمـــاً محرّفا

فقال الرشيد : دع كأن وقل : تخال أذنيه ، حتى يستوي الشعر .

وأخرج عن عبد الله بن العبّاس بن الفضل بن الربيع قال : حلف الرشيد أن لا يدخل إلى جارية له أيّاماً ، وكان يحبّها ، فمضت الأيّام ولم تسترضِهِ ، فقال :

صَدَّ عَنِّـــي إذ رآني مفتَتَنْ وأطالَ الصبرَ لمـــا أن فَطَنْ
كان مملوكي فأضحى مالكي إنّ هذا مـــن أعاجيبِ الزَّمَنْ

ثم أحضر أبا العتاهية ، فقال : أجزهما ، فقال :

عِـزَّةُ الحـــبِّ أرَتْهُ ذِلَّتي في هواهُ ، ولــه وجهٌ حَسَنْ
فلهـــذا صِرْتُ مملوكاً لــه ولهـــذا شاع مـــا بي وَعَلَنْ

وأخرج ابن عساكر عن ابن عليّة قال : أخذ هارون الرشيد زنديقاً ، فأمر بضرب

عنقه ، فقال له الزنديق : لِمَ تضرب عنقي ؟ قال له : أريح العباد منك ، قال : فأين أنت من ألف حديث وضعتُها على رسول اللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّها ما فيها حرف نَطَقَ به ؛ قال : فأين أنت يا عدوَّ الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً ؟

وأخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال : كنّا عند الرشيد ، فقال : بلغني أنّ العامّة يظنّون فيَّ بُغْضَ علي بن أبي طالب ، ووالله ما أُحبّ أحداً حبّي له ، ولكن هؤلاء أشدّ الناس بغضاً لنا ، وطَعْناً علينا ، وسعياً في فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إيّاهم ما حَوَيْناه ، حتى إنّهم لأَمْيل إلى بني أمية منهم إلينا . فأمّا ولده لصلبه فهم سادة الأهل ، والسابقون إلى الفضل ، ولقد حدّثني أبي المهديّ عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه عن ابن عبّاس أنّه سمع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول في الحسن والحسين : «من أحبّهما فقد أحبّني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني» وسمعه يقول : «فاطمة سيّدة نساء العالمين ، غير مريم بنة عمران وآسية بنة مزاحم» .

روى أنّ السمّاك دخل على الرشيد يوماً ، فاستسقى ، فأُتي بكوز ، فلمّا أخذه قال : على رِسْلِكَ يا أمير المؤمنين ، لو مُنعْتَ هذه الشّربةَ بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنِصف ملكي ، قال : اشرب هنـأك الله تعالى ، فلمّا شربها قال : أسألك : لو مُنعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها ؟ قال : بجميع ملكي ، قال : إنّ مُلْكاً قيمتُه شربةُ ماءٍ وبَوْلَة لجديرٌ أن لا يُنافَسَ فيه ، فبكى هارون بكاءً شديداً .

وقال ابن الجوزي : قال الرشيد لشيبان : عظني ، قال : لأَن تصحَبَ مَنْ يخوّفك حتى يدركك الأمن خيرٌ لك من أن تَصْحَبَ من يؤمّنك حتى يدركك الخوف ؛ فقال الرشيد : فَسِّرْ لي هذا ، قال : من يقول لك : أنت مسؤول عن الرعية فاتّق الله أنْصَحُ لك ممّن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيّكم عليه الصلاة والسلام ، فبكى الرشيد حتى رحمه مَنْ حوله .

وفي كتاب الأوراق للصولي بسنده : لمّا وليّ الرشيد الخلافة واستوزر يحيى بن خالد قال إبراهيم الموصلّي :

أَلَمْ تَرَ أنَّ الشمسَ كانت مريضةً ... فلمّا أتى هارونُ أشرق نورُها
تلبَّستِ الدنيـا جمـالاً بمُلْكِـهِ ... فهارونُ واليها ، ويحيى وزيرُها

فأعطاه مائة ألف درهم ، وأعطاه يحيى خمسين ألفاً .

ولداود بن رزين الواسطي فيه :

بهارونَ راحَ النورُ في كلّ بلدةٍ ... وقامَ بـه في عدلِ سيرتِـهِ النَّهجُ
إمامٌ بذاتِ اللهِ أصبحَ شُغلُهُ ... فأكثرُ مـا يُعْنَى بـه الغزوُ والحجُّ
تضيقُ عيونُ الخَلقِ عن نورِ وَجْهِهِ ... إذا مـا بـدا للناسِ منظرُهُ البَلْجُ
تفسَّحتِ الآمالُ في جودِ كفِّهِ ... فأعطى الذي يرجوه فوق الذي يرجو

قال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ما أعلم أنّ لملِكٍ رحلة قطّ في طلب العلم إلاّ للرشيد ، فإنّه رحَل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله ، قال : وكان أصول الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين ، قال : ثم رحَلَ لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيّوب إلى الإسكندريّة ، فسمِعه علي بن طاهر بن عوف ، ولا أعلم لهما ثالثاً .

ولمنصور النمريّ فيه :

جعـل القُـرَانَ إمامـهُ ودليلَـهُ ... لمـا تخيَّرهُ القُـرَانُ ذِمَـاما

وله فيه من قصيدة :

إنّ المكارمَ والمعـروفَ أوديـةٌ ... أحَلَّـكَ اللهُ منهـا حيـث تَجْتمعُ

ويقال : إنّه أجازه عليها بمائة ألف

وقال الحسين بن فهم : كان الرشيد يقول : مِنْ أحبّ ما مُدِحْتُ به إليّ :

أبو أمينٍ ، ومأمـونٍ ، ومؤتمـنٍ ... أكرِم بـه والداً بـرّاً ومـا وَلَدا

وقال إسحاق الموصلّي : دخلت على الرشيد ، فأنشدته :

وآمرةٍ بالبخل قلت لها : اقْصِري   فذلك شيءٌ ما إليه سبيلُ
أرى الناسَ خِلاّنَ الجوادِ ، ولا أرى   بخيلاً لــه في العالمــينَ خليلُ
وإنّي رأيتُ البُخلَ يُزْرِي بأهلِهِ   فأكرمتُ نفسي أن يقالَ : بخيلُ
ومن خير حالاتِ الفتى لو علمتِهِ   إذا نال شيئاً أن يكونَ يُنيلُ
عطائي عطاء المُكْثِرينَ تَكَرُّما   وما لي كما قــد تعلمــين قليلُ
وكيفَ أخافُ الفقرَ أو أُحرَمُ الغِنى   ورأيُ أميرِ المؤمنـــينَ جميلُ

فقال : لا كيف إن شاء الله ، يا فضل أعْطِهِ مائة ألف درهم ، لله درّ أبياتٍ يأتينا بها ! ما أجْوَدَ أصولها ، وأحسن فصولها ! فقلت : يا أمير المؤمنين كلامُك أحْسَنُ من شعري ، فقال : يا فضل أعطه مائة ألف أُخرى .

وفي الطيوريّات بسنده إلى إسحاق الموصلّي قال : قال أبو العتاهية لأبي نُوَاس : البيت الذي مدحت به الرشيد لوددت أنّي كنت سبقتك به إليه :

قد كنتُ خِفتُكَ ثم آمنني   من أن أخافَكَ خَوْفُكَ اللهَ

وقال محمد بن علي الخُراساني : الرشيد أوّل خليفة لعب بالصَّوَالجة والكرة ، ورمى النشّاب في البرجاس ، وأوّل خليفة لعب الشطرنج من بني العبّاس .

وقال الصولي : هو أوّل من جعل للمغنِّين مراتب وطبقات

ومن شعر الرشيد يرثي جاريته هيلانة أورده الصولي :

قاسيتُ أوْجاعــاً وأحزانــا   لما استخَصَّ الموتُ هيلانا
فارقتُ عيشي حين فارقتُها   فما أُبالي كيف ما كانا
كانت هي الدّنيا ، فلمّا ثَوَتْ   في قبرِها فارقْتُ دنيانا
قد كثُرَ الناس ، ولكنّني   لستُ أرى بَعْدَكِ إنسانا
واللهِ لا أنساكِ ما حرَّكتْ   رِيحٌ بأعلى نجدٍ اغصانا

وله أيضاً ، أنشده الصولي :

يا ربّـــةَ المنزلِ بالفَرْكِ وربّـــةَ السلطـــانِ والمُلْكِ
تَرَفَّقِـــي باللهِ في قتلِنـــا لسنا من الدّيلَـــمِ والتُّركِ

مات الرشيد في الغزو ، بطُوسَ من خُراسان ، ودُفن بها في ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وله خمس وأربعون سنة ، وصلّى عليه ابنه صالح .

قال الصولي : خَلَّفَ الرشيد مائة ألف ألف دينار ، ومن الأثاث والجواهر والورِقِ والدوابّ ما قيمته مائة ألف ألف دينار وخمسة وعشرون ألف دينار .

وقال غيره : غلط جبريل بن بختيشوع على الرشيد في عِلَّتِهِ في علاج عالجه به كان سبب منيته ، فهمَّ أن يفصل أعضاءهُ ، فقال : أنْظِرْني إلى غد ، فإنّك تصبح في عافية ، فمات ذلك اليوم ؛ وقيل : إنّ الرشيد رأى مناماً أنّه يموت بطوس ، فبكى وقال : أحفروا لي قبراً ، فَحُفِرَ له ، ثم حُمِلَ في قبّةٍ على جمل ، وسيق به حتى نظر إلى القبر ، فقال : يا ابن آدم تصير إلى هذا ؟ وأمر قوماً فنزلوا فختموا فيه ختمة ، وهو في محفة على شفير القبر ؛ ولمّا مات بُويع لولده الأمين في العسكر – وهو حينئذٍ ببغداد – فأتاه الخبر ، فصلّى بالناس الجمعة ، وخطب ، ونَعَى الرشيد إلى الناس ، وبايعوه ، وأخذ رَجاء الخادمُ البردة والقضيب والخاتم ، وسار على البريد في اثنى عشر يوماً من مَرْوَ ، حتى قدم بغداد في نصف جمادى الآخرة ، فدفع ذلك إلى الأمين ، ولأبي الشيص يرثي الرشيد :

غَرَبَتْ في الشَّرقِ شمسٌ فلهـــا عينـــيَ تدمَـعْ
مـــا رأينا قطُّ شمساً غَرَبَتْ مـــن حيث تَطلَعْ

وقال أبو نُواس جامعاً بين العزاء والهناء :

جرت جَوَارٍ بالسَّعدِ والنَّحسِ فنحنُ في مأتمٍ وفي عرسِ
القلبُ يبكي والعينُ ضاحكةٌ فنحنُ في وَحْشَةٍ وفي أُنْسِ

يُضحِكُنا القائمُ الأمينُ ويُبـ ـكينا وفاةُ الإمامِ بالأمسِ
بَدْرانِ بدرٌ أضحى ببغدادَ في الـ ـخُلْدِ وبدرٌ بطوسَ في الرّمْسِ

وممّا رواه الرشيد من الحديث – قال الصولي : حدّثنا عبد الرحمن بن خلف ، حدّثني جدّي الحصين بن سليمان الضبّي ، سمعتُ الرشيد يخطب فقال في خطبته : حدّثني مباركُ بن فضالة ، عن الحسن ، عن أنس قال : قال النبي ﷺ : «اتّقوا النارَ ولو بِشِقِّ تمرة» .

حدّثني محمد بن علي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عبّاس ، عن عليّ بن أبي طالب قال : قال النبي ﷺ : «نَظِّفوا أفواهَكُمْ ؛ فإنّها طريقُ القرآنِ» .

– X –

ترجمته من كتاب

«الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة»[1]

بويع بالخلافة سنة سبعين ومائة .

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحجّ سنة ويغزو سنة ، كذلك مدّة خلافته إلاّ سنين قليلة . قالوا : وكان يصلّي في كلّ يوم مائة ركعة ، وحجّ ماشياً ولم يحجّ خليفة ماشياً غيره ، وكان إذا حجّ حجّ معهُ مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجّ أحجّ ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة . وكان يتشبّه في أفعاله بالمنصور إلاّ في بذل المال ، فإنّهُ لم يُرَ خليفة أسمحَ منهُ بالمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخَّر ، وكان يحبّ الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ، وكان يحبّ المديح لا سيّما من شاعر فصيح ، ويجزل العَطاءَ عليه .

قال الأصمعيّ : صنع الرشيدُ طعاماً وزخرف مجالسَه وأحضر أبا العتاهية وقال له : صِف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا : فقال أبو العتاهية :

عِشْ ما بدا لكَ سالماً   في ظِلِّ شاهقةِ القصورِ

فقال الرشيد : أحسنت ، ثم ماذا ؟ فقال :

يُسْعَى عليك بما اشتهيـ   ـتَ لدى الرَّواح أو البُكورِ

1 الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة ، ص 193 وما بعدها .

فقال : حسن ، ثم ماذا ؟ فقال :

فإذا النفـــوسُ تَقَعْقَعَتْ في ظِلِّ حشرَجةِ الصّدورِ
فهنـــاكَ تعلـــمُ مُوقِناً ما كنتَ إلاّ في غرُورِ

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أميرُ المؤمنين لتسرّه فحزنته ! فقال الرشيد : دعهُ فإنّه رآنا في عمًى فكَرِه أن يزيدنا منهُ . وكان الرشيدُ يتواضع للعلماء . قال أبو معاوية الضرير ، وكان من علماء الناس : أكلتُ مع الرشيد يوماً فصبّ على يدي الماء رجل ، فقال لي : يا أبا معاوية ! أتدري مَن صبّ الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين أنت تفعلُ هذا إجلالاً للعلم ؟ قال : نعم .

في أيّامه خرج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن .

شرح كيفيّة الحال في خروج يحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب ،

كان يحيى بن عبد الله قد خاف ممّا جرى على أخويه النفس الزكيّة وإبراهيم قتيل باخَمْرَى ، فمضى إلى الدَّيلم فاعتقدوا فيه استحقاق الإمامة وبايعوه ، واجتمع إليه الناس من الأمصار وقويت شوكته ، فاغتمّ الرشيد لذلك وندب إليه الفضلَ بن يحيى في خمسينَ ألفاً وولاّه جرجان وطبرستان والرَّيّ وغير ذلك ، فتوجّه يحيى بالجنود ، فلطُف بيحيى بن عبد الله وحذّره وخوّفهُ ورغّبه ، فمال يحيى إلى الصلح وطلب أماناً بخطّ الرشيد وأن يشهد عليهِ فيه القضاة والفقهاء وجِلّة بني هاشم . فأجابه الرشيد إلى ذلك وسُرّ به وكتب له أماناً بليغاً بخطّه وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء ومشايخ هاشم وسَيَّر الأمان مع هدايا وتحف ، فقدم يحيى مع الفضل فلقيه الرشيدُ في أوّل الأمر بكلّ ما أحبّ ثم حبَسهُ عنده ، واستفتى الفقهاء في نقض الأمان ، فمنهم من أفتى بصحّته فحاجّه ، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله ، ثم قتله بعد ظهور آية له عظيمة .

شرح الآية التي ظهرت في قضيّة يحيى بن عبد الله

حضر رجل من آل الزبير بن العوّام عند الرشيد ، وسعى بيحيى ، وقال : إنّهُ بعد الأمان فعل وصنع ، ودعا الناسَ إلى نفسه ، فأحضره الرشيدُ من محبسه ، وجمع بينه وبين الزبيري ، وسأله عن ذلك ، فأنكر ، فوافقه الزبيري . فقال له يحيى : إن كنت صادقاً فاحلف . فقال الزبيري : والله الطالب الغالب ، وأراد أن يتمّم اليمين . فقال له يحيى : دع هذه اليمين ، فإنّ الله تعالى إذا مجّده العبد لم يعجل عقوبته ، ولكن احلف له بيمين البراءة ، وهي يمين عظمى ، صورتها أن يقول عن نفسه : بريء من حول الله وقوته ، ودخل في حول نفسه وقوتها إن كان كذا وكذا . فلمّا سمع الزبيريّ هذه اليمين ارتاع لها وقال : ما هذه اليمين الغريبة ! وامتنع من الحلف بها . فقال له الرشيد : ما معنى امتناعك ؟ إن كنت صادقاً فيما تقول ، فما خوفك من هذه اليمين ؟ فحلف بها ، فما خرج من المجلس حتى ضُرِب برجله ومات .

وقيل ما انقضى النهار حتى مات ، فحملوه إلى القبر وحطّوه فيه ، وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب ، فكانوا كلّما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينطمّ القبر ، فعلموا أنّها آية سماويّة ، فسقفوا القبر وراحوا . وإلى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان في ميميّته بقوله :

يا جاهــداً في مَساويهم يُكتِّمُها   غَدرُ الرشيدِ بيحيى كيفَ يَنكتِمُ
ذاق الزبيريُّ غِبَّ الحَنْث وانكشفتْ   عنِ ابنِ فاطمــةَ الأقـوالُ والتُّهَمُ

ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيى في الحبس شرّ قتلة .

* * *

وكانت دولة الرشيد من أحسن الدوَل وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ، وأوسعها رقعةَ مملكة ؛ جبى الرشيدُ معظم الدنيا ، وكان أحد عمّاله صاحبَ مصر ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقرّاء والقضاة والكتّاب والندماء

والمغنّين ما اجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كلّ واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة . وكان فاضلاً شاعراً راويةً للأخبار والآثار والأشعار ، صحيحَ الذوق والتمييز ، مَهيباً عند الخاصّة والعامّة .

قبض على موسى بن جعفر ، عليهما السلام ، وأحضره في قبّة إلى بغداد فحبسه بدار السنديّ بن شاهك ، ثم قُتل وأظهر أنّه مات حتف أنفه .

قتل موسى بن جعفر

شرح كيفيّة الحال في ذلك :

كان بعضُ حسّادِ موسى بن جعفر من أقاربه قد وشى به إلى الرشيد وقال له : إنّ الناسَ يحملون إلى موسى خُمس أموالهم ، ويعتقدون إمامته ، وإنّه على عزم الخروج عليك ، وكثّر في القول . فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمّه وأقلقه ، ثم أعطى الواشي مالاً أحاله به على البلاد ، فلم يستمتِع به ، وما وصل المال من البلاد إلاّ وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها .

وأمّا الرشيد فإنّه حجّ في تلك السنة . فلمّا ورد المدينة قبض على موسى بن جعفر ، عليهما السلام ، وحمله في قبّة إلى بغداد فحبسه عند السنديّ بن شاهك ، وكان الرشيد بالرّقّة فأمر بقتله ، فقُتل قتلاً خفيّاً . ثم أدخلوا عليه جماعة من العدول بالكرخ ليشاهدوه إظهاراً أنه مات حتف أنفه ، صلوات الله عليه وسلامه .

موت الرشيد

ومات الرشيد بِطُوس ، وكان خرج إلى خُراسان لمحاربة رافع بن الليث بن نصر بن سيّار ، وكان رافع هذا قد خرج وخلع الطاعة وتغلّب على سمرقند وقتل عاملها وملكها وقويت شوكتُه ، فخرج الرشيدُ بنفسه إليه فمات بطوس في سنة ثلاث وتسعين ومائة .

شرح حال الوزارة في أيّامه

لمّا بُويع بالخلافة استوزر كاتبَه ، قبل الخلافة ، يحيى بن خالد بن بَرْمَك ،

وظهرت دولة بني برمك مذ حينئذٍ .

شرح أحوال الدولة البرمكيّة وذكر مبدئها ومآلها

كانوا قديماً على دين المجوس ، ثم أسلم من أسلم منهم ، وحسُن إسلامهم ، وقد ذكرنا وزارة جدّهم خالد بن برمك في أيّام المنصور ، ونذكر هاهنا وزارة الباقين . وقبل الخوض في ذلك ، فهذه كلمات تعرف منها نبذة من أحوال هذه الدولة .

اعلم أنّ هذه الدولة كانت غرّة في جبهة الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر . ضُربت بمكارمها الأمثال ، وشُدّت إليها الرّحال ، ونيطت بها الآمال . وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها . فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرةً ، والبحور زاخرةً ، والسيول دافعةً ، والغيوث ماطرة . أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية . والدنْيا في أيّامهم عامرة . وأبّهة المملكة ظاهرة . وهم ملجأ اللهف ، ومعتصم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدّنْيا إذا ما فُقِدتُمُ   بني برمك مِن رائحينَ وَغَادِ

شرح السبب في نكبة البرامكة وكيفيّة الحال في ذلك

اختلف أصحاب السِّيَر والتواريخ في السبب في ذلك . فقيل : إنّ الرشيد ما كان يصبر عن أخته عبّاسة ولا عن جعفر بن يحيى ، فقال له : أزوّجكها حتى يحلّ لك النظر إليها ، ثم لا تقربها . فكانا يجتمعان وهما شابان ثم يقوم الرشيد عنهما ويخلوان بأنفسهما ، فجامعها جعفر فحبلت منه ، وولدت ولدين وكتمت الأمر في ذلك حتى علم الرشيد ، فكان ذلك سبب نكبة البرامكة .

وقيل : كان سبب ذلك أنّ الرشيد كلّف جعفر بن يحيى قتل رجل من آل أبي طالب فتحرّج جعفر من ذلك وأطلق الطالبي ، وسُعِيَ إلى الرشيد بجعفر . فقال له : ما فعل الطالبيّ ؟ قال : هو في الحبس . قال الرشيد : بحياتي ؟ ففطن جعفر فقال : لا ، وحياتك ! ولكن أطلقتُه لأنّي علمتُ أنّه ليس عنده مكروه . فقال الرشيد : نِعمَ ما

فعلتَ ! فلمّا قام جعفر قال الرشيد : قتلني الله إن لم أقتلك . ثم نكبهم .

وقيل : إنّ أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع ما زالوا يسعون بهم إلى الرشيد ، ويذكرون له استبدادهم بالملك ، واحتجانهم للأموال حتى أوغروا صدره فأوقع بهم .

وقيل : إنّ جعفراً والفضل ابني يحيى بن خالد ظهر منهما من الإدلال ما لا تحتمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك .

وقيل : إنّ يحيى بن خالد رُئي ، وهو بمكّة ، يطوف حول البيت ويقول : اللهمّ إن كان رضاك في أن تسلُبني نعمتك عندي وتسلبني أهلي ومالي وولدي فاسلُبني إلاّ الفضل ولدي ، ثم ولّى . فلمّا مشى قليلاً عاد وقال : يا ربّ إنّه سمِجٌ بمثلي أن يستثني عليك ، اللهمّ والفضل ! فنكبهم الرشيد بعد قليل .

– XI –

ترجمته من «تاريخ بغداد أو مدينة السلام»[1]

هارون أمير المؤمنين ، الرشيد بن محمد المهديّ بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب ، أبو جعفر . وُلد بالرَّيّ واستخلف بعد وفاة أخيه موسى الهادي . أخبرنا عبد العزيز بن علي الأزجي أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد المفيد حدّثنا أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري المعروف بالدولابي قال سمعت أبا موسى العبّاسي يقول : حدّثني عبد الله بن عيسى الأمويّ أخبرني إبراهيم بن المنذر ، قال : هارون الرشيد أُمّه الخيزُران الجرسيّة ، وُلد بالرَّيّ لثلاث بقين من ذي الحجّة سنة خمسين ومائة . أخبرنا علي بن أحمد بن عمر المقرىء أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قيس الرفا حدّثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا قال حدّثنا عبّاس – يعني ابن هشام – عن أبيه قال : استخلف الرشيد هارون بن محمد حيث مات أخوه موسى بن محمد سنة سبعين ومائة . قال ابن أبي الدنيا : وُلد هارون سنة تسع وأربعين ومائة ، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأيّاماً . وكان هارون أبيض طويلاً ، مسمَّناً جميلاً ، قد وخطه الشيب ، ويكنى أبا جعفر ، وأُمّه أُمّ ولد يقال لها الخيزُران . أخبرنا ابن رزق أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق حدّثنا محمد بن أحمد بن البراء . قال : الرشيد هارون بن المهديّ وكنيته أبو جعفر وُلد بالرَّيّ ، وكان يحجّ سنة ، ويغزو سنة ، قال أبو الشغلى :

فمَنْ يطلبْ لقاءَكَ أو يُرِدْهُ ... فبالحرمينِ أو أقصى الثُّغورِ
ففي أرض العدوِّ على طِمِرٍّ ... وفي أرض البنيّةِ فوق طُورِ
وما جازَ الثُّغورَ سواكَ خَلَقٌ ... من المستخلَفين على الأُمورِ

أخبرنا الأزجيّ أخبرنا المفيد ، حدّثنا أبو بشر بن أحمد بن حمّاد قال أخبرني أبو

1 تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ج14 ص 5 وما بعدها .

موسى العبّاسيّ عن عبد الله بن عيسى الأمويّ ، قال أخبرني إبراهيم بن المنذر ، قال : استُخلف هارون وبُويع له يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة ، وهو ابن تسع عشرة سنة ، وشهرين ، وثلاث عشرة ليلة . وقال أبو بشر ، أخبرني جعفر بن علي الهاشمي ، حدّثنا أحمد بن محمد بن أيّوب قال : بُويع لأبي جعفر هارون الرشيد بن محمد المهديّ بن أبي جعفر المنصور يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من شهر ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة ، ببغداد مدينة السلام . أخبرني الأزهريّ ، أخبرنا أحمد بن إبراهيم ، حدّثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة ، قال : الرشيد يكنّى أبا جعفر ؛ وبُويع له سنة سبعين ومائة في اليوم الذي توفي فيه الهادي ، وولد المأمون في تلك الليلة ، فاجتمعت له البشارة بالخلافة والولد وكان يقال : ولد في هذه الليلة خليفة ، وولّي خليفة ، ومات خليفة . وكان ينزل الخلد ، وحكى بعض أصحابه أنّه كان يصلّي في كلّ يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا ، إلاّ أن يعرض له علّة ، وكان يتصدّق في كلّ يوم من صلب ماله بألف درهم ؛ وكان إذا حجّ أحجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجّ أحجّ في كلّ سنة ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة ، والكسوة الظاهرة . وكان يقتفي أخلاق المنصور ويعمل بها إلاّ في العطايا والجوائز . فإنّه كان أسنى عطيّة ابتداء وسؤالاً . وكان لا يضيع عنده يد ولا عارفة . وكان لا يؤخر عطاء اليوم إلى عطاء غد ، وكان يحبّ الفقه والفقهاء ، ويميل إلى العلماء ، ويحبّ الشعر والشعراء ، ويعظم في صدره الأدب والأدباء ، وكان يكره المِراء في الدين والجدال ، ويقول إنّه لخليق أن لا ينتج خيراً ، وكان يصغي إلى المديح ويحبّه ، ويُجزِل عليه بالعطاء ، لا سيّما إذا كان من شاعر فصيح مُجيد . أخبرنا علي بن الحسين – صاحب العبّاسي – أخبرنا إسماعيل بن سعيد المعدل ، حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، حدّثنا إبراهيم بن الجنيد ، قال : سمعت علي بن عبد الله يقول : قال أبو معاوية الضرير : حدّثتُ هارون الرشيد بهذا الحديث ، يعني قول النبي ﷺ : «وددتُ أنّي أُقتَلُ في سبيلِ الله ثم أحيا ، ثم أُقتَل» . فبكى هارون حتى انتحب ثم قال : «يا أبا معاوية ترى لي أن أغزو ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، مكانُك في الإسلام

أكبر ، ومقامك أعظم ، ولكنْ ترسل الجيوش . قال أبو معاوية : وما ذكرتُ النبيّ ﷺ بين يديه قطّ إلا قال : صلّى الله على سيّدي . أخبرنا أبو بكر عبد الله بن علي ابن حمويه بن أبزك الهمذاني – بها – أخبرنا أحمد بن عبد الله الشيرازي ، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي ، حدّثنا أبو الحسين محمد بن إبراهيم بن محمد بن عتاب البزّاز البخاري ، حدّثنا أبو هارون سهل بن شاذويه بن الوزير البخاري ، قال حدّثني محمد بن عيسى بن يزيد السعدي الطرطوسي ، قال : سمعت خرزاذ القائد يقول : كنت عند الرشيد ، فدخل أبو معاوية الضرير وعنده رجل من وجوه قريش ، فجرى الحديث إلى أن خرج أبو معاوية إلى حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة : «أنّ موسى لقي آدم فقال : أنت آدم الذي أخرجتَنا من الجنّة !» وذكر الحديث . فقال القرشي : أين لقي آدمُ موسى ؟ قال فغضب الرشيد . وقال : النّطع والسيف ، زنديق والله يطعن في حديث رسول الله ﷺ ، قال فما زال أبو معاوية يسكّنه ويقول : كانت منه بادرة ولم يفهم يا أمير المؤمنين ، حتى سكّنه . أخبرنا أبو العلاء محمد بن علي بن يعقوب القاضي ، أخبرنا عبد الله بن محمد المزني – بواسط – حدّثنا أبو طاهر المزني عبد الله بن محمد بن مرّة – بالبصرة – حدّثنا حسن الأرزي ، قال : سمعت علي بن المديني يقول : سمعتُ أبا معاوية يقول : أكلتُ مع هارون الرشيد – أمير المؤمنين – طعاماً يوماً من الأيّام ، فصبّ على يدي رجلٌ لا أعرفه ، فقال هارون الرشيد : يا أبا معاوية تدري من يصبّ على يديك ؟ قلت لا ! قال أنا ، قلت أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم إجلالاً للعلم . أخبرنا أبو يعلى أحمد بن عبد الواحد الوكيل أخبرنا إسماعيل بن سعيد ، حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، أخبرني الربعيّ عن أبيه ، قال : كان الرشيد يقول : إنّا من أهل بيت عظُمت رزيتُهم ، وحسُن بُقيتهم ، رُزئنا برسول الله ﷺ ، وبقيت فينا خلافة الله . أخبرني محمد بن أبي علي الأصبهاني ، حدّثنا محمد بن أحمد بن إسحاق الشاهد – بالأهواز – حدّثنا ابن منيع ، حدّثنا يحيى ابن أيّوب العابد ، قال : سمعت منصور بن عمّار يقول : ما رأيتُ أغزر دمعاً عند الذكر من ثلاثة : فُضيل بن عياض ، وأبو عبد الرحمن الزاهد ، وهارون الرشيد .

أخبرنا الجوهري ، أخبرنا عبيد الله بن أحمد بن يعقوب المقرىء ، حدّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز ، حدّثنا عبيد الله بن عمر القواريري ، قال : لما لقي هارون الرشيد فُضيل بن عياض ، قال له الفضيل : يا حسنَ الوجه أنت المسؤول عن هذه الأمّة . حدّثنا ليث عن مجاهد (وتقطعت بهم الأسباب) قال : الوصل التي كانت بينهم في الدنيا ، قال فجعل هارون يبكي ويشهق . أخبرني الأزهريّ ، حدّثنا أحمد بن إبراهيم ، حدّثنا ابن دُريد ، أخبرنا عبد الرحمن – يعني ابن أخي الأصمعيّ – عن عمّه ، قال أحمد بن إبراهيم وقال إبراهيم بن محمد بن عرفة أخبرنا أحمد بن يحيى ، حدّثنا أبو زيد عن الأصمعي ، قال : سمعت بيتين لم أحفِل بهما ، قلت هما على كلّ حال خير من موضعهما من الكتاب ؛ فإنّي عند الرشيد يوماً وعنده عيسى بن جعفر ، فأقبل على مسرور الكبير فقال له : يا مسرور ، كم في بيت مال السرور ؟ قال : ليس فيه شيء . فقال عيسى : هذا بيت الحزن ؛ قال : فاغتمّ لذلك الرشيد ، وأقبل على عيسى فقال : والله لتعطين الأصمعي سلفاً على بيت مال السرور ألف دينار ، فاغتمّ عيسى وانكسر ، قال فقلت في نفسي جاء موضع البيتين : فأنشدت الرشيد :

إذا شئتَ أن تلقى أخاك مُعبَّساً ، وجَدّاهُ في الماضين ، كعبٌ ، وحاتِمُ
فكشِّفْـهُ عمّا في يديـهِ فإنّما تُكشِّفُ أخبـارَ الرجـالِ الدَّراهمُ

قال فتجلّى عن الرشيد وقال لمسرور : أعطه على بيت مال السرور ألفي دينار ، وما كان البيتان يساويان عندي درهمين . أخبرنا أبو علي محمد بن الحسين الجازري ، حدّثنا المعافى بن زكريا ، حدّثنا محمد بن الحسن بن دريد ، حدثنا أبو حاتم عن الأصمعي ، قال : دخلتُ على هارون الرشيد – ومجلسُه حافل – فقال : يا أصمعيّ ما أغفلك عنّا ، وأجفاك لحضرتنا ؟ قلت : والله يا أمير المؤمنين ، ما ألاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك . قال : فأمرني بالجلوس ، فجلست وسكت عني ؛ فلمّا تفرّق الناس – إلاّ أقلّهم – نهضتُ للقيام ، فأشار إلى أن أجلس ؛ فجلست حتى خلا المجلس ، فلم يبقَ غيري وغيره وَمَنْ بين يديه من الغلمان ، فقال لي يا أبا سعيد ، ما ألاقتني ؟ قلت

أمسكتني يا أمير المؤمنين وأنشدت :

كفّـــاكَ : كَـــفٌّ ما تليقُ درهماً جُوداً وأُخرى تُعط بالسيفِ الدِّما

فقال : أحسنت ، وهكذا فكن : وَقِّرنا في الملأ ، وعلِّمنا في الخلاء ؛ وأمر لي بخمسة آلاف دينار . أخبرني أحمد بن عبد الواحد الدمشقيّ ، أخبرنا جدّي أبو بكر محمد بن أحمد بن عثمان القسملي ، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن ربيعة القاضي ، حدّثنا أحمد بن عبيد ، حدّثنا الأصمعي ، قال : دخلت أنا وابن أبي حفص الشطرنجيّ على هارون الرشيد ، فخرج علينا وهو كالمتغيّر النفس . فقال : يا أصمعيّ ، قلت لبّيك يا أمير المؤمنين . قال : فأيّكما قال بيتاً وأصابَ به المعنى الذي في نفسي فله عشرة آلاف درهم ؛ قال ابن أبي حفص قد حضرني بيتٌ يا أمير المؤمنين ، قال هاتِهِ . فأنشأ يقول :

مجلسٌ يألَـــفُ السرورُ إليهِ لِمُحِبٍّ ريحانُـــهُ ذكـــراكِ

فقال أحسنت والله ، يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم ، ثم قال ابن أبي حفص : قد حضرني بيت ثانٍ يا أمير المؤمنين ؛ قال : هاته ؛ فأنشأ يقول :

كلّما دارتِ الزُّجاجةُ زادَتْـ ـــهُ حنيناً ولوعـــةً فبكاك

قال أحسنت والله ؛ يا فضل ، أعطِهِ عشرة آلاف درهم ؛ قال الأصمعيّ فنزل بي في ذلك اليوم ما لم ينزل قط مثله ؛ إنّ ابن حفص يرجع بعشرين ألف درهم وبفخر ذلك المجلس ، وأَرجعُ صفراً منهما جميعاً ! ثم حضرني بيت فقلت يا أمير المؤمنين ، قد حضرني ثالث ، فقال : هاته ، فأنشأت أقول :

لم ينلْكِ المنى بأن تحضُريني وتجافتْ أمنيّتـــي عـــن سواكِ

فقال أحسنت والله ؛ يا فضل أعطه عشرة آلاف درهم ؛ ثم قال هارون : قد حضرني رابع ، فقلنا إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنا فعل . فأنشأ يقول :

فتمنّيتُ أن يغشّينـــي اللـــ ـــهُ نُعاساً لعلَّ عيني تراكِ

قال : فقلنا : يا أمير المؤمنين ، أنت واللهِ أشعرُ مِنَّا ، فجوائزنـا لأمير المؤمنين ؛ فقال : جوائزكما لكما . وانصرفنا . أخبرنا التنوخي والجوهري ، قالا : أخبرنا محمد ابن عمران المرزباني ، حدّثنا أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش ، قال : قال محمد بن حبيب : حدّثنا أبو عكرمة عامر بن عمران الضبّيّ ، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، قال : دخلتُ على أمير المؤمنين الرشيد يوماً . فقال أنشدني من شعرك ؛ فأنشدته :

وآمرةٍ بالبخلِ قلتُ لها اقصري فذلكَ شيءٌ مــا إليــهِ سبيلُ
أرى الناسَ خِلاَّنَ الجوادِ ولا أرى بخيلاً له في العالَمينَ خليلُ
ومِنْ خيرِ حالاتِ الفتى ـ لو علمتِهِ ـ إذا نـــال خيراً أن يكونَ يُنيلُ
عطائي عطاءُ المكثرين تكرُّماً ومالي ـ كما قد تعلمينَ ـ قليلُ
وإنِّي رأيتُ البُخلَ يُزري بأهلِهِ ويحقــر يومــاً أن يُقــال بخيلُ
وكيف أخافُ الفقر أو أحرمُ الغِنى ورأيُ أميــرِ المؤمنــين جميــلُ ؟

قال : لا ، كيف إن شاء الله ؛ يا فضل ، أعطه مائة ألف درهم ؛ لله دَرُّ أَبياتٍ تأتينا بها ، ما أحسنَ فصولها ، وأثبتَ أصولها . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كلامُك أجودُ من شعري . قال أحسنت ، يا فضل اعطه مائة ألف أُخرى . أخبرني الأزهري ، أخبرني أحمد بن إبراهيم ، حدّثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة ، أخبرني أبو العبّاس المنصوريّ عن عمرو بن بحر ، قال : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحدٍ من جدّ وهزل : وزراؤه البرامكة ، لم يُرَ مثلُهم سخاء وشرفاً ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجرير في عصره ، ونديمه عمّ أبيه العبّاس بن محمد صاحب العبّاسيّة ، وحاجبه الفضل بن الربيع أَتْيَهُ الناس ، وأشدّها تعاظماً ، ومغنِّيه إبراهيم الموصلّي ، واحد عصره في صناعته ؛ وضاربُهُ زلزل ، وزامره برصوما ، وزوجته أم جعفر أرغبُ الناس في خير ، وأسرعهم إلى كل بِرّ ، وهي أسرع الناس في معروف ،

أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف . أخبرنا القاضي أبو الطيّب الطبريّ ، حدّثنا المعافي بن زكريّا ، حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي ، حدّثنا محمد بن القاسم الضرير ، قال : قال الأصمعي : دخل العبّاس بن الأحنف على هارون الرشيد ، فقال له هارون : أنشِدني أرقّ بيتٍ قالته العرب ، فقال : قد أكثر الناس في بيت جميل ، حيث يقول :

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودُني   بثينةُ لا يخفى عليّ كلامُها

قال له هارون : أنتَ والله أَرقُّ منه حيث تقول :

طاف الهوى في عبادِ اللهِ كلِّهِمِ   حتى إذا مرّ بي مِنْ بينهِمْ وقَفَا

قال العباس : أنت والله يا أمير المؤمنين أرقّ منّي ومنه حيث تقول :

أما يكفيكِ أنّكِ تملكيني   وأَنَّ الناسَ كلَّهُمُ عبيدي
وأنَّكِ ، لو قطعتِ يدي ورِجلي ،   لقلتُ ، منَ الهوى ، أحسنتِ زيدي

فأُعجبَ بقوله وضحك . أخبرنا أبو نعيم الحافظ ، حدّثنا سليمان بن أحمد بن أيّوب الطبراني ، حدّثنا محمد بن موسى بن حمّاد البربري ، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم ابن صالح ، حدّثنا عمّي علي بن صالح ، قال : قال هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ، في ثلاث جوارٍ له :

مَلَكَ الثّلاثُ الغانياتُ عِناني ،   وحَلَلْنَ مِنْ قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي ، تطاوِعُني البَريَّةُ كُلُّها ،   وأُطيعُهُنَّ ، وهُنَّ في عصيانِ ؟
ما ذاك إلاّ أنّ سُلطانَ الهوى ،   وبه قَوِينَ ، أَعَزُّ من سلطاني

أخبرنا ابن الفضل أخبرنا دعلج بن أحمد ، أخبرنا أحمد بن علي الأبّار ، قال : حدّثنا محمد قال : سمعت عبد الرزّاق يقول : كنت جالساً مع فُضيل بن عياض بمكّة ؛ قال : فمرَّ هارون ، فقال فضيل بن عياض : الناسُ يكرهون هذا ، وما في الأرض أعزُّ عليَّ منه ؛ لو أنّه حتى يضع رأسه ، لرأيت أموراً عظاماً . أخبرنا أحمد بن

عبد الله بن الحسين بن إسماعيل المحاملي ، أخبرنا أبو سهل أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد القطّان ، حدّثنا يحيى بن أبي طالب ، حدّثنا عثمان بن كثير الواسطي ، قال سمعت الفُضيل بن عياض يقول : ما مِنْ نفسٍ تموتُ أشَدَّ عليَّ موتاً من هارون أمير المؤمنين ؛ قال وددت أنّه – أو قال ولوددت – أنّ الله زاد في عمره من عمري ؛ فكبر ذلك علينا ؛ فلمّا مات هارون وظهرت تلك الفتن ، وكان من المأمون ما حمل الناس على أنّ القرآن مخلوق ، قلنا : الشيخ كان أعلم بما تكلّم به . أخبرنا الحسن بن أبي بكر ، أخبرنا محمد بن عبد الله الشافعي ، أخبرنا عمر بن حفص السدوسي ، حدّثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد ، قال : استُخلف هارون الرشيد بن المهديّ سنة سبعين ومائة في ربيع الأوّل ، وتوفّي سنة ثلاث وتسعين ومائة لثلاث بقين من جمادى الأولى ، فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة ، وشهرين ، وثلاثة عشر يوماً – أو نحو هذا – وذكرت وفاته . ونعي هارون بن محمد بمدينة السلام يوم الجمعة ، لستّ عشرة خلت من جمادى الآخرة وأُمُّه الخيزُران . قال أبو بكر السدوسي : ومات بطوس ، وصلّى عليه صالح بن الرشيد . فتوفّي وله ستّ وأربعون سنة . أخبرنا ابن رزق أخبرنا عثمان بن أحمد الدقّاق ، قال : حدّثنا محمد بن أحمد بن البراء ، قال : ومات الرشيد بطوس لغرة جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وكان عمره خمساً وأربعين سنة ، وخلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين ، وستّة عشر يوماً . أخبرني علي بن أحمد بن عمر المقرىء ، أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قيس ، حدّثنا أبو بكر بن أبي الدّنيا قال : ومات هارونُ بطوسَ ليلة السبت لأربع خلون من جمادى الآخرة ، من سنة ثلاث وتسعين ومائـة ، ودُفن بقرية يقال لها سناباذ ، وصلّى عليه ابنه صالح .

فهرس القوافي

فهرس المصادر والمراجع

ـ أ ـ

آثار البلاد وأخبار العباد : القزويني (زكرياء بن محمد) ، دار صادر ، بيروت .

الآداب العربية في العصر العبّاسي الأوّل : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت .

الإبانة عن سرقات المتنبّي : أبو سعد محمد بن أحمد العميدي . تحقيق إبراهيم الدسوقي البساطي ، دار المعارف بمصر ، 1961م .

الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) . شرحه وكتب حواشيه عبد علي مهنّا وسمير جابر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1992م . وطبعة أُخرى ، تحقيق عبد الستّار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، 1960م .

ـ ب ـ

البداية والنهاية : ابن كثير (إسماعيل بن عمر) . تحقيق أحمد أبو ملحم وغيره ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ، ط3 ، 1987م .

البصائر والذخائر : أبو حيان التوحيدي . تحقيق وداد القاضي . دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1988م .

ـ ت ـ

تاريخ الإسلام : الذهبي (محمد بن أحمد) . تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1990م .

تاريخ بغداد أو مدينة السلام : البغدادي (أحمد بن الخطيب) ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

تاريخ الخلفاء : السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن) ، تحقيق إبراهيم صالح ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1997م .

تاريخ الكتاب : ألكسندر ستبتشفيتش . ترجمة محمد الأرنؤوط ، سلسلة عالم المعرفة ، الرقم 169 .

تاريخ اليعقوبي : (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العبّاسيّ المعروف باليعقوبي) ، دار صادر ، بيروت .

التذكرة الحمدونية : ابن حمدون . تحقيق د . احسان عباس وبكر عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1996م .

التذكرة الفخرية : الإربلي (بهاء الدين المنشيء) . تحقيق نوري حمودي القيسي وحاتم صالح الضامن ، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية ، ط1 ، 1987م .

التنبيه والإشراف : المسعودي ، دار التراث ، بيروت ، 1968م .

- ح -

حدائق الأزاهر : ابن عاصم الأندلسيّ (محمد بن محمد) . تحقيق عفيف عبد الرحمن ، دار المسيرة ، بيروت ، ط1 ، 1987م .

- خ -

خلاصة الذهب المسبوك ، مختصر سير الملوك : عبد الرحمن سنبط قنيتو الأربليّ . تصحيح مكّي السيد جاسم ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- د -

ديوان الصبابة : ابن أبي حجلة (شهاب الدين أحمد) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، 1984م .

- ذ -

الذهب المسبوك في ذكر من من حجّ من الخلفاء والملوك : تقيّ الدين أحمد بن علي المقريزي . مكتبة الخانجي ، مصر ، ومكتبة المثنى ، بغداد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1955م .

- ز -

الزهرة : أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني . حقّقه وقدَّم له وعلّق عليه إبراهيم السامرائي ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، ط2 ، 1985م .

- س -

سير أعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، مؤسسة الرسالة ، ط1 ، 1988م .

- ع -

العقد الفريد : ابن عبد ربّه (أحمد بن محمد) . شرحه وضبطه وصحّحه وعنوَن موضوعاته ورتَّب فهارسه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، 1983م ، وطبعة أخرى ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف ، والترجمة والنشر ، 1946م .

- غ -

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة . لأبي اسحق برهان الدين الكتبي المعروف بالوطواط ، دار صعب ، بيروت .

- ف -

الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة : (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا) ، دار صادر ، 1966م .

الفرج بعد الشدّة : التنوخي (المحسن بن علي) . تحقيق عبود الشالجي ، دار صادر ، بيروت ، ط1 ، 1978م .

فوات الوفيات والذيل عليها : محمد بن شاكر الكتبيّ . تحقيق إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، 1973م .

ـ ق ـ

القيان : أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) . تحقيق جليل العطيّة ، رياض الريّس للكتب والنشر .

ـ ك ـ

كتاب الوزراء والكتّاب : أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري . تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ط1 .

ـ م ـ

المحاسن والمساوىء : البيهقي (ابراهيم بن محمد) ، دار صادر ، بيروت ، 1970م .

مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي (علي بن الحسين) . تحقيق شارل بلاّ ، منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1965م . وطبعة أخرى دار الأندلس ، بيروت ، ط2 ، 1973 .

مصارع العشاق : جعفر بن أحمد بن الحسين السّراج ، دار صادر ، بيروت .

معجم البلدان : ياقوت بن عبد الله الحمويّ ، دار صادر ، بيروت .

معجم الشعراء : المرزباني (محمد بن عمران) . تحقيق عبد الستّار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربيّة ، القاهرة ، ط1 ، 1960م .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع : عبد الله بن عبد العزيز البكريّ . حقّقه وضبطه مصطفى السّقّا ، عالم الكتب ، بيروت ، ط3 ، 1983م .

مقدّمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون . تحقيق وتمهيد د ، علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، ط1 ، 1957م .

الملوك الشعراء : جبرائيل سليمان جبّور ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط1 ، 1981م .

المنتظم في تاريخ ، الأمم والملوك : ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي) . دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، راجعه وصحّحه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 1992م .

ـ ن ـ

نزهة الجليس ومنية الأريب الأنيس : العبّاس بن علي المكّي الحسني .

ـ و ـ

الوزراء والكتّاب : الجهشياري (محمد بن عبدوس) . تحقيق مصطفى السقا وغيره ، ط1 ، البابي الحلبي وأولاده .

الورقة : محمد بن داود بن الجراح . تحقيق عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر ، 1986م .

ـ ي ـ

يتيمة الدهر : الثعالبي (عبد الملك بن محمد) . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر ، 1956م .

فهرس المحتويات

DĪWĀN
HĀROUN AL-RASHĪD

COMPILED BY
Dr. Saʿdī al-Ḍannāwī

DAR SADER *PUBLISHERS*
BEIRUT